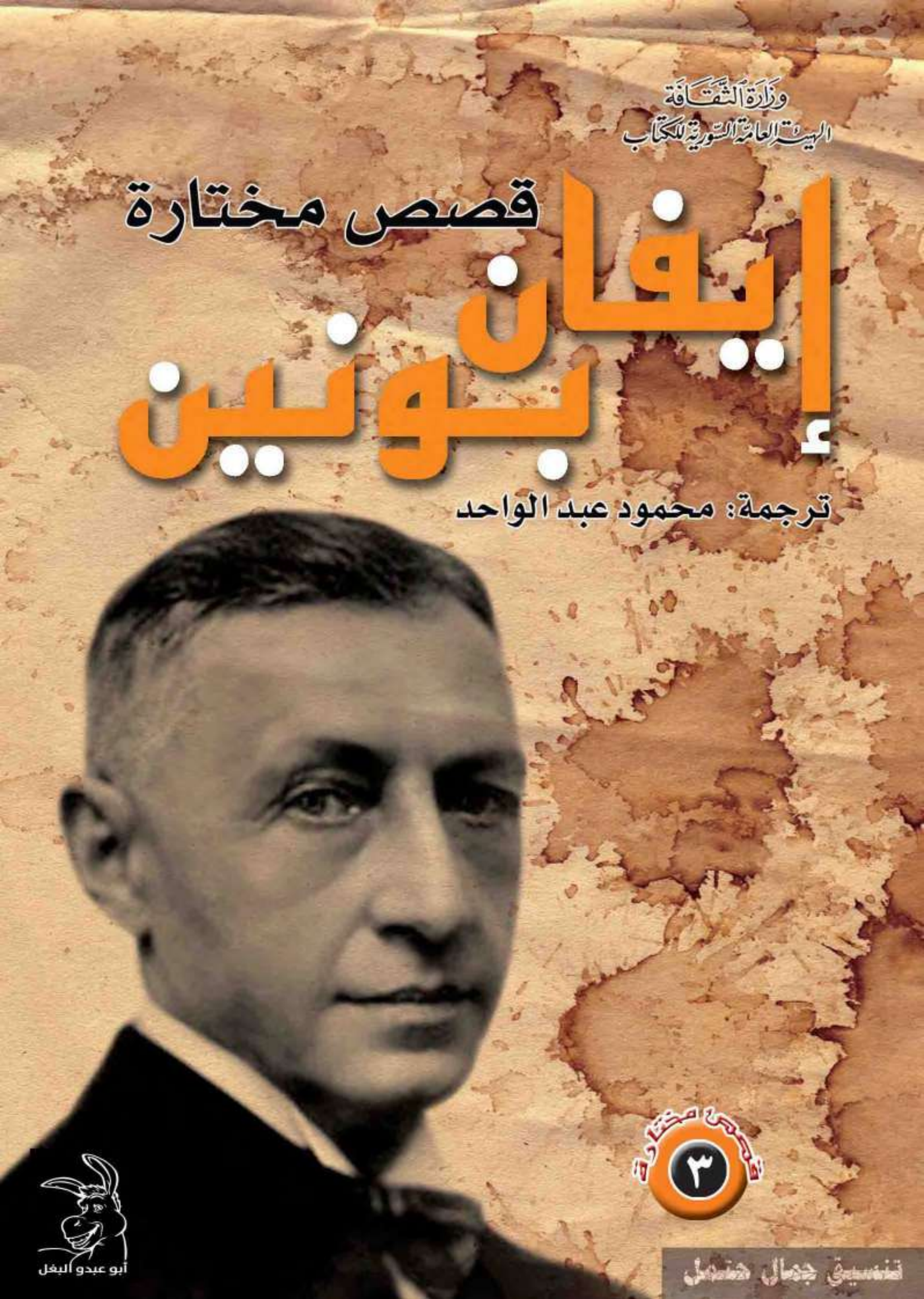

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
قصص مختارة
إيفان بونين
ترجمة: محمود عبد الواحد
قصص مختارة
٣
أبو عبدو البغل
تنسيق جمال حتمل



إيفان بونين
قصص مختارة

تصميم الغلاف
أريج دير

إيفان بونين

قصص مختارة

ترجمة: محمود عبد الواحد

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

إيفان بونين : قصص مختارة / ترجمة محمود عبد الواحد
.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م .-
٣٨٤ ص؛ ٢٠ سم .

(قصص مختارة؛ ٣)

١- ٨٩١,٧٣ ب و ن   إ ٢- العنوان   ٣- بونين
٤- عبد الواحد   ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص مختارة
«٣»

●

إيفان بونين واحد من أعلام الأدب الروسي الكلاسيكي، قال عنه غوركي في رسالة إلى الشاعر بيلاوسوف... «أما أفضل الكتاب المعاصرين فهو إيفان بونين، وسرعان ما سيغدو هذا واضحاً لكل من يحب الأدب واللغة الروسية». ولكنه قال أيضاً، بصدد قصته «تفاح أنطوان»: (عَطِرٌ هو «تفاح أنطوان»، أجل، ولكنه مع ذلك يفوح برائحة غير ديمقراطية...)، كما أورد غوركي نفسه أيضاً، في إحدى مقالاته، ما قاله أحد الأدباء الناشئين، وكان فلاحاً فيما مضى، عن بونين: «إنه يعتبر الفلاحين كائنات مشوهة لا علاج لها، نحن بالنسبة إليه

حيوانات تسعى على أربع. كان من الأفضل له أن يحاول مساعدتنا كي نقف على قوائمنا الخلفية بدلاً من أن يتغنى بماضي النبلاء».

إن موقف غوركي المتناقض من بونين يعكس تناقض بونين الداخلي مع ذاته، والمجتمع المحيط به آنذاك. ويكمن جوهر تناقضه في محاولته الاصطناعية المعاكسة للتاريخ، لربط مصير الفلاحين والنبلاء وتوحيدهم في وجه الرأسمالية المنقضة.

ولد بونين عام ١٨٧٠ في فارونج وترعرع «في هدوء الحقول العميق، وسط طبيعة غنية بالتربة السوداء وفقيرة بالمناظر الجميلة» بدأ حياته الأدبية شاعراً، وكان يقلد في قصائد فتوته أشعار بوشكين وليرمنتوف، وفي بداية التسعينات كتب قصصه الأولى. قال بونين عن إبداعه المبكر ما يلي: «كان كل شيء يبدو لي في ذلك الوقت، آسراً: البشر والطبيعة وبيت الجدة العتيق ذو

النوافذ الملونة، والضياع المجاورة والصيد والكتب التي كان مظهرها فحسب يمنحني متعة جسدية، وكل زهرة، وكل أريج». وقد واصل في تصوير الطبيعة تقاليد الأدب الروسي الكلاسيكي، وأسلوب تورغينيف الشاعري بشكل خاص.

تكاد قصص بونين، من حيث جنسها الأدبي المتميز وبنائها، تكون استمراراً لشعره. إنها تشكل ما يشبه شعراً منثوراً. ومشاهد الطبيعة تشغل في قصصه، كما في قصائده، مكانة هامة. فهي مرتبطة أوثق الارتباط بانفعالات أبطاله النفسية. إن الطبيعة تبث نَفَساً متفائلاً في عالم الشخصية الداخلي، الغارق في التأملات الحزينة، هذا فضلاً عن أن الطبيعة بالنسبة لبونين، مصدر متجدد دائماً لبهاء العالم.

نلاحظ لدى بونين، منذ قصصه الأولى، الفكرة التالية: ثمة مصير مشترك يجمع ما بين النبلاء

والفلاحين، فالرأسمالية تهددهما معاً بالهلاك. ولقد تضمن هذا الموقف نزعة معادية للرأسمالية ذات طبيعة خاصة يمكن تفسيرها بمميزات تلك الحقبة من الزمن، وبموقع بونين الاجتماعي نفسه. كان الكاتب، في ظروف الرأسمالية الصاعدة، يحاول بإصرار توحيد الفلاحين والنبلاء في وجه هذا الوحش الضاري الذي يدفع بهما إلى البؤس والإفلاس. إن حب بونين للشعب، وحنينه إلى الماضي المنصرم يملكان جذراً مشتركاً ألا وهو رعبه من الرأسمالية. إنه يصور الجوع، والخراب الذي يقوض القرى، ويتذكر ذلك «الزمن الماضي الجميل» عندما كان الفلاح يعيش، حسب رأيه، حياة هادئة وديعة. هذه الفكرة تخترم قصة تفاح «أنطوان» كلها. كما أن قصصه حافلة بالتعاطف مع الفلاحين والشفقة عليهم ولكنها لا تفوح حتى بما يشبه احتجاجاً اجتماعياً. إن ديمقراطية بونين تكمن في ذلك التعاطف مع القاع الاجتماعي، وفي

موقفه النقدي من الأوساط الأرستقراطية، ولكن هذه الديمقراطية تتسم بشيء من ضيق الأفق والوسطية، إذ لم تمض أبعد من هذا. غير أن قصص بونين، رغم كونها تخلو من أي احتجاج حاد، تقدم مادة غنية باهرة وأمينة عن مصائر القرية المعاصرة له، وعن إفلاس وآلام الفلاحين في ذلك العهد.

عشية الثورة الروسية الأولى، ثورة ١٩٠٥، اقترب بونين كثيراً من التجمعات الروسية الديمقراطية، ومن المهم الإشارة إلى أنه قد تعاون، بين خريف ١٩٠٠ وربيع ١٩٠١ مع مجلة الماركسيين العلنيين (الحياة) وأنه ربط نشاطه الأدبي، ولفترة طويلة، مع دار النشر الديمقراطية (المعرفة) التي يرأسها غوركي. من الطبيعي أن بونين كان بعيداً دائماً عن ماركسية غوركي وعقيدته البروليتارية الثورية، ولكنه كمعظم الكتاب الواقعيين الديمقراطيين الملتفين حول «المعرفة» كان معادياً للرجعية والاستبداد والعنف وكل مظهر من مظاهر الظلم واللامساواة،

مخلصاً لنزعته الإنسانية، وحبه العميق للشعب الروسي المضطهد.

عندما قامت ثورة شباط البرجوازية عام ١٩١٧ قابلها بونين بسخرية واستخفاف، أما ثورة أكتوبر الاشتراكية فقد وقف منها موقفاً معادياً ودانها بحدة. إذ انتابه الرعب من انقلاب الموجيك الروسي، ومن رؤية تلك الطاقة الهائلة التي تحررت من قمقمها، وراحت تحطم بلا رحمة كل أعمدة المجتمع القديم.

عام ١٩١٨ رحل وزوجته من موسكو إلى الجنوب، وقضى في أوديسا عاماً ونصف، وفي عام ١٩٢٠ غادر وطنه إلى فرنسا وعاش فيها بقية حياته، ولكنه ظل، إلى آخر لحظة من عمره، يحن إلى روسيا، ويحترق بذكرياته عنها. كتب إلى صديقه القديم تيلشوف عام ١٩٤١: «صرت أشيب، يائساً، نحيلاً، ولكنني مازلت ساما ولدي رغبة حارقة في العودة إلى الوطن». وقد أعاقت عودته عوامل عديدة أهمها نشوب الحرب.

بعد انتهاء الحرب، عام ١٩٤٦، التقى بونين بالكاتب السوفييتي المعروف كونستانتين سيمونوف الذي قدم إلى فرنسا ضمن وفد رسمي ومرة أخرى تطرق الحديث إلى العودة للوطن.

فقال بونين:

«أرجو أن تفهمني: من الصعب علي أعود إلى وطني شيخاً هرماً، فكل أصدقائي وكل أهلي يرقدون الآن في قبورهم، وسأسير هناك وكأنني أعبر مقبرة». كان يشق على بونين أن يجد نفسه غريباً في وطنه بعد تلك الغربة الطويلة، التي اختارها بمحض إرادته.

جدير بالذكر أن بونين نال جائزة نوبل عام ١٩٣٣ وأنه توفي في فرنسا عام ١٩٥٣.

أهم أعماله الأخرى: رواية «حياة أرسينيف»، والقصة الطويلة «القرية».

تفاح أنطون

-١-

أذكر خريفاً مبكراً رائعاً، كان آب مفعماً بمطر خفيف دافئ، هطل وكأنها خصيصاً للبذار. أتى في الوقت المناسب، في منتصف الشهر، على أعتاب عيد القديس لافرينتي. «يحلو الخريف والشتاء، عندما الماء هادئ والمطر خفيف في عيد لافرينتي». بعد ذلك في أواخر أيلول، كان ثمة كثير من خيوط العناكب على الحقول. وهذا أيضاً فأل حسن: «خيط العنكبوت في ذيل أيلول وعد بخريف طري»... أذكر فجراً هادئاً، منعشاً... أذكر بستاناً كبيراً، ذهبياً، جافاً وعارياً، أذكر المماشي بين شجر الكينا ورائحة الأوراق الساقطة المرهفة، وشذى تفاح أنطون(*) شذى العسل والطزاجة الخريفية. كان الهواء نقياً وكأنها ذاب في العدم. ومن أنحاء البستان كلها كانت تتعالى أصوات

(*) تفاح أنطون: صنف من أصناف التفاح الروسي.

بشر وصرير عربات. إنهم تجار المحاصيل وعمالهم يقطفون التفاح لإرساله ليلاً إلى المدينة. لابد من إرساله ليلاً، إذ يطيب الرقود في العربات، والتحديق إلى السماء المرصعة بالنجوم، وتشمم رائحة القار في الهواء النقي، والإنصات إلى صرير عجلات القوافل الطويلة، السائرة في العتمة، على الدرب الكبيرة. كان العامل وهو يجمع التفاح، يلتهمه بصخب وارتواء، تفاحة تلو الأخرى، والتاجر، عندما يرى هذا، لا يعترض أبداً، بل يقول: "كل هنيئاً حتى الشبع، الجميع في موسم النحل يشربون عسلاً". لم يكن يخرق هدوء الصباح البارد هذا سوى تغريد العنادل الشبع على شجر الغبيراء المرجاني في أيك البستان، وسوى أصوات العمال وارتطام التفاح الرنان وهو يلقى في الأطباق والبراميل. وتلوح بعيداً في البستان العاري، الطريق المؤدية إلى الخيمة الكبيرة المغطاة بالغسق، والخيمة نفسها، التي اقتنى التجار، لفترة الصيف، الأرض المحيطة بها كلها. كانت رائحة التفاح تفوح من كل مكان، من هنا خاصة. كانت الخيمة تضم، إضافة إلى الفرش، بندقية وحيدة الفوهة، وسماوراً مخضراً، وطناجر وصحوناً مركومة في الزاوية. وكان ثمة بالقرب من الخيمة خرق من الليف مبعثرة وصناديق وعديد من الأشياء

العتيقة البالية، وتنور ترابي. وفي المساء يشعل السماور، فيمتد في الحديقة بين الأشجار، خط طويل من دخان أزرق. وفي الأعياد يقام بالقرب من الخيمة معرض كامل، تلمع فيه الثياب المبرقشة الحمراء من خلال الأشجار، كل لحظة. كانت العذارى الجريئات يجتمعن هناك، بفساتين عارية الأكمام، ورائحة مساحيق نفاذة تفوح منهن. ثم يأتي «أعوان السادة» ببزاتهم الجميلة الخشنة، المتوحشة، وتأتي زوجة المختار الشابة، الحبلى، بوجهها الناعس العريض مزهرة مثل بقرة مدللة (بقرنين) هما ضفيرتان مدورتان على طرفي مفرقها، ملفوفتان بمناديل عدة، مما ينفخ رأسها فيبدو بالغ الضخامة، وكانت تلبس جزمة قصيرة، ذات نعل حديدي، تقف قدماها فيها — في الجزمة — ببلادة وثبات، وترتدي ثوباً بلا أكمام يشبه ستارة طويلة مثنية وقميصاً بنفسجياً مائلاً إلى السواد مخططاً بخطوط قرميدية اللون موشى ذيله بشريط ذهبي عريض.

كان التجار يصفونها وهم يهزون رؤوسهم:

"فراشة ريفية. إن مثيلاتها ينقرضن الآن".

وكان الصبيان، بقمصانهم البيضاء، وسراويلهم القصيرة، ورؤوسهم البيضاء العارية يفدون بلا انقطاع. كانوا يأتون اثنين

اثنين أو ثلاثة ثلاثة، سائرين دون إسراع، بأقدام حافية، ناظرين بأطراف أعينهم إلى الكلب المربوط بشجرة التفاح. كان واحد منهم فحسب طبعاً يشتري، وكانت الصفقة نفسها لا تبلغ بضعة كوبيكات أو بيضة ومع ذلك كان المشترون كثراً، والمساومات تجري على قدم وساق. وكان التاجر المسلول، في معطفه الطويل وجزمته الحمراء، مرحاً، يبيع مع أخيه الألثغ الحرك، نصف الأبله الذي يؤويه عنده «بدافع الإحسان» مطلقاً النكات مداعباً الزبائن، بل وكان أحياناً «يتحسس» الهارمونيكا. كانت الحشود تلتم في البستان حتى المساء، فتسمع بالقرب من الخيمة، أصوات الضحك والأحاديث ووقع أقدام الراقصين أحياناً.

في الليل كان الطقس يصبح بارداً جداً ونديّاً. وبعد أن تملأ رئتيك من البيدر بعبق الجودار ورائحة قشه وعصافاته الجديدة، تمضي إلى البيت، ماراً قرب سور البستان، لتناول العشاء بشهية مفتوحة. كانت أصوات البشر وصرير الأبواب في القرية تنبعث في الشفق البارد بوضوح عجيب.

هاهو الظلام قد حل، وهاهي ذي رائحة جديدة تنبعث في البستان، رائحة لهيب الموقد والدخان العطر المتهادي من

أغصان الكرز. وكان ثمة مشهد أسطوري يترامى في العتمة، من عمق البستان: لهب أرجواني يتوهج، قرب الخيمة، كحجر الجحيم، تحيط به الظلمة، وأشباح سوداء كأنها قدت من خشب أسود، تحوم حول الموقد، وظلالها العملاقة تتراقص بين شجر التفاح. تارة تستطيل يد سوداء بطول عدة أمتار على شجرة ما، وتارة ترسم قدمان، أشبه بعمودين أسودين. وفجأة ينزلق كل هذا عن شجرة التفاح، فيقع الظل على كل الممشى الواصل بين الخيمة وشجر الخوخ... وفي آخر الليل، عندما تطفأ الأضواء في القرية، وتلتمع نجوم الدب الأكبر السبع اللؤلؤية عالياً، في السماء، تركض مرة أخرى في البستان، إلى الخيمة، مثيراً في طريقك خشخشة الأوراق الجافة. فهناك، في الفسحة، قدر أكبر من الضوء، وفوق رأسك يلمع درب التبان.

ينبعث صوت خفيف من الظلمة:

- هذا أنت يا سيدي؟

- أجل. ألم تنم بعد يا نيقولاي؟

- محظر علينا النوم. لعل الوقت أصبح متأخراً. هاهو قطار الركاب آت.

أنصتنا طـويلاً حتـى ميزنـا اهتـزاز الأرض. وسرعـان مـا تحـول الاهتزاز إلى صخب متنام، ثم هاهي العجلات تـضج بإيقـاع سريـع يصم الآذان وكأنها تجري خلف البستان تماماً... كـان القطـار ينـدفع ملوياً هادراً وبـدأ يقـترب ويقـترب، ويتعـاظم ضـجيجه وغـضبه.. وفجأة صار يهدأ ويغيب وكأنه يغور في الأرض.

- أين بندقيتك يا نيقولاي؟

- إنها هناك قرب الصندوق؟

وتقـذف إلى الأعـلى بندقيـة وحيـدة الفوهـة، ثقيلـة كعتلـة، وبدورة سريعة تطلق النار فيندلع إلى السماء، بدوي مصم، لهـب أرجواني يعمي النجوم للحظة ويطفئها، والصدى النشط يتدور مقعقعـاً ويتـدحرج إلى الأفـق بعيـداً بعيـداً ويتلاشـى في الهـواء الرهيف النقي.

يقول التاجر:

- ممتاز، أخفها، أخفها يا سـيدي هـذه الطيـور، فلـيس منهـا سوى المصائب. لقد عرت أشجار الكمثرى على التلة.

كانت السماء السوداء ترسم الشهب الهاوية بخطـوط ناريـة. وتتأمل طويلاً عمقها المعتم الأزرق الممتلئ بالمجرات حتى تميد الأرض تحت قـدميك. عنـدها تنـتفض مخبئـاً كفيـك في كميـك

وتركض مسرعاً عبر الممشى إلى البيت... كم هو بارد وندي، وكم هو جميل العيش في هذا العالم!

-٢-

«التفاح الريان بشارة بعام سعيد». أمور القرية حسنة عندما يكون محصول التفاح وفيراً. فهذا يعني أن القمح سيكون وفيراً أيضاً.. أذكر عام الخصب.

في السحر، والديكة ما تزال تصيح، والأكواخ تطلق دخانها الأسود، تفتح النافذة على البستان البارد، المغطى بضباب ليلكي، تلمع عبره، في مكان ما، شمس الصباح ولا تطيق صبراً، فتأمر بإسراج الجواد، وتركض كي تغتسل في الغدير. الأوراق الصغيرة طارت جميعها عن شجر الصفصاف، والأغصان تقف عارية، مشعثة، تنسل السماء الفيروزية من فرجاتها. والماء تحت الشجر شفاف صقيعي كأنما زاد ثقله. إنه يطرد كسل الليل بلمح البصر. وبعد أن تغتسل وتفطر مع العمال في قاعة الطعام، بطاطا ساخنة، وخبزاً أسود، وملحاً رطباً ضخم الحبيبات، تلتذ عندما تحس جلد السرج الأملس

تحتك، عابراً قريتك، فيسيلكي، متوجهاً إلى الصيد. الخريف هو موسم الأعياد، والفلاحون في هذا الوقت يكونون مهندمين راضين ومنظر القرية يكون مختلفاً تماماً عما هو عليه في الأوقات الأخرى. وإذا كان العام خصيباً والبيادر مغطاة بمدينة ذهبية كاملة، والإوز يزعق بحدة ورنين على النهر، فهذا يعني أن الحياة في القرية تسير على أحسن ما يرام. إضافة إلى هذا قريتنا «فيسيلكي» مشهورة منذ زمن بعيد، زمن أجدادنا «بالغنى». الشيوخ والعجائز يعمرون في فيسيلكي طويلاً – هذه أول علائم القرية الغنية – كما إنهم، جميعاً، طوال القامة، ضخام المناكب، بيض البشرة كالثلج. وأنت لا تني تسمع: «لقد قطعت أغافيا عامها الثالث والثمانين»! أو حديثاً كهذا:

- متى ستموت يا بنكرات؟ لعلك ستبلغ عامك المئة قريباً!
- بماذا تفضلت يا سيدي؟
- أسألك كم لك من العمر؟
- لا أدري يا سيدي.
- وبلاتون أبولونيتش أتذكره؟
- كيف لا. أذكره بوضوح.
- أرأيت، عمرك إذن ليس أقل من مئة عام.

وكان الشيخ الواقف أمام الملّاك باحترام يبتسم بوداعة وإحساس بالذنب. ما العمل إذا أخطأ وأفرط في العيش. ولعله عمّر أكثر لولا أنه أنهك معدته بالتهام البصل في عيد بطرس. أذكر زوجته العجوز أيضاً. كانت تجلس طوال الوقت على كرسيها، عند الدرج منحنية، هازة رأسها، تنتفس بصعوبة، ممسكة الكرسي بكلتي يديها، واجمة تفكر. كانت النساء يقلن: «إنها على الأرجح، تفكر بثروتها»، إذ لديها ثروة كبيرة تحتويها الصناديق. أما هي فكانت تتظاهر بأنها لا تسمعهن. وتنظر إلى الأفق بعينين كليلتين، من تحت حاجبين مرفوعين بأسى. وتهز رأسها وكأنها تجاهد لتذكر شيء ما. كانت عجوزاً ضخمة، كالحة كلها، يكاد يكون ثوبها من القرن الفائت وتكاد جزمتها تشبه جزمات الموتى، عنقها صفراء يابسة، وثوبها ذو الدعائم الليفية، أبيض أبيض دائماً. «جاهزة للدفن تماماً». وكان يرقد قرب الدرج، حجر كبير اشترته لقبرها، مثلما اشترت الكفن، كفناً ممتازاً موشى بملائكة وصلبان وصلوات مطبوعة على حوافه.

وكانت بيوت فيسيلكي أيضاً أتراباً لعجائزها. فهي مبنية من القرميد كلها على زمن الأجداد. كانت غرف عديد من بيوت الفلاحين الأغنياء، كسافيلي وإيغنات ودرون، متلاصقة فيها

بينها، إذ لم تكن موضة التقسيم معروفة بعد في فيسيلكي. تلك الأسر كانت تربي النحل وتفخر بخيولها السوداء الأصيلة، وتحافظ على النظام في بساتينها. وكانت أعواد القنب الكثيفة الغضة، في البيادر، تزداد قتامة، تقف إلى جانبها مناشف الحبوب والمجارش مغطاة بعناية. وكانت الحظائر والعنابر مجهزة بأبواب حديدية يحفظ خلفها الخيش والمغازل والفراء الجديد وعدة الخيل والمكاييل مؤطرة بأطر نحاسية، وعلى الزحافات والأبواب كان ثمة صلبان مدموغة بالنار. أذكر كيف كان يبدو لي أحياناً، على ندرة هذا، كم هو مغرٍ أن يكون الإنسان فلاحاً. كنت تعبر القرية في صباح مشمس وتفكر: كم هو جميل أن تحصد وتجرش وتنام في البيدر على أكوام القش. وتنهض في الأعياد مع الشمس على رنين جرس الكنيسة المنبعث من القرية، وتغتسل قرب البرميل وترتدي قميصك وسروالك الكتاني، وجزمتك ذات النعل الحديدي الذي لا يهترئ، وتفكر لو أنه أضيف إلى هذا زوجة نشيطة جميلة ترتدي ثياب العيد، وصلاة الأحد، وغداء بعد ذلك عند حميك الملتحي، غداء من لحم الغنم الساخن في صحون خشبية والخبز الأسود وعسل النحل والعجة. ما الذي يمكن تمنيه غير ذلك.

إن طبيعة حياة النبلاء المتوسطين تملك في ذاكرتي - منذ فترة غير بعيدة - نقاط التقاء كثيرة وحياة الفلاحين الأغنياء، بشغفها بالحياة المنزلية وغبطتها الريفية العريقة. هذا ما كان عليه، مثلاً، بيت العمة آنا غيراسيموفنا الواقع على بعد اثني عشر فرسخاً من فيسيلكي. عندما تذهب إليها لا تصلها إلا صباحاً. كنت تضطر للذهاب إليها على زحافة تجرها الكلاب بخطى بطيئة، بل لم يكن لديك أدنى رغبة في الإسراع: فكم هو لذيذ السير عبر الحقول العارية في النهارات المشمسة الباردة. كانت البقاع مستوية، ومجال الرؤية يمتد بعيداً في الأفق. وكانت السماء خفية، فسيحة، عميقة، والشمس تضيء من طرفها والدرب الموطوءة بعد المطر بالعربات لزجة، ملساء، تلمع كالسكك الحديدية. وحولك تمتد مزروعات الخريف في شرائط عريضة، طازجة، خضراء، زاهية، ومن مكان ما يطير في الهواء الشفاف عقاب. ثم يستمر في نقطة واحدة مرفرفاً بجناحيه الحادين، وفي الآماد البعيدة، الواضحة، تركض أعمدة التلغراف، بأسلاكها الشبيهة بأوتار فضية، منحنية انحناء السماء المشعة، والطيور تجلس عليها مثل علامات سوداء على سلم موسيقي.

لا أعرف نظام القنانة ولم أشهده. لكنني أذكر كيف كنت أحسه عند العمة آنا غيراسيموفنا. ما أن تدخل فناء الدار حتى تشعر أنه ما يزال يعيش هنا ملء حياته. كان البيت متوسطاً، قديماً، متيناً، محاطاً بعرائش وأشجار البتولا التي يزيد عمرها عن مئة عام. يضم الفناء عديداً من الأبنية الجانبية الثانوية – الواطئة والمكتظة بمختلف الأدوات الزراعية والمؤن – التي تبدو وكأنها قدت من جذوع البلوط السوداء، تعلوها سقوف من القش. لم يكن يتميز بينها بالحجم، وللدقة بالطول، سوى قاعة طعام الخدم التي تنبض بآخر خلجات طبقة النبلاء: شيوخ وعجائز مهندمون، طباخ هرم متقاعد يشبه دون كيشوت. يستوون كلهم واقفين، عندما تدخل الفناء، وينحنون وينحنون. والحوذي الأشيب المتجه إلى الإسطبل، لأخذ حصان، ينزع قبعته عند باب الإسطبل ويطوف في الفناء حاسر الرأس. كان يعمل لدى العمة، فيما مضى، سائقاً لمركبة فخمة، تجرها أربعة أو ستة جياد مطهمة، أما الآن فهو يذهب بالعمة إلى صلاة الأحد شتاء في طنبر الشحن، وصيفاً في عربة متينة مؤطرة بالحديد كتلك التي يركبها الخوارنة.

كانت حديقة العمة مشهورة بفوضاها وبلابلها ويمامها وتفاحها.

وأما بيتها فقد اشتهر بسقفه. كان ينهض في مقدمة الفناء قرب الحديقة – مطوقاً بأغصان الزيزفون – صغيراً واطئاً، ولكن كان بادياً للعيان أنه سيعمر دهراً. فقد كان يحدق بثبات من تحت سقفه العالي الضخم القشي العجيب، المسود والمتيبس على مر الزمن. كانت واجهته الأمامية تبدو لي حية أبداً. كنت أتخيلها وجهاً حسناً ينظر من تحت قبعة ضخمة، من قاع عيونه، عيون نوافذه ذات الزجاج المصدف بفعل المطر والشمس. وعلى أطراف العيون كان ثمة درجان كبيران هرمان اصطفت عليهما الأعمدة، يحط على حوافهما حمام شبع، وتنهمر حولهما كالمطر آلاف العصافير متنقلة من سقف إلى آخر... وكم هو لذيذ أن أحس نفسي ضيفاً في هذا العش تحت سماء الخريف الفيروزية.

ما إن تدخل البيت حتى تسمع أولاً وقبل كل شيء، رائحة التفاح، تليها الروائح الأخرى: رائحة الأثاث المصنوع من خشب أحمر يابس، رائحة الزيزفون المجفف، الراقد على حافة النافذة منذ حزيران.. كانت البرودة والسديم يسودان كل الغرف، غرفة الخدم والصالون وغرفة الضيوف. سبب هذا أن

البيت محاط بالحديقة وأن الأجزاء العليا من زجاج النوافذ ملونة بالأزرق والليلكي. كان كل شيء يبدو صامتاً، نظيفاً، رغم أن الأرائك والطاولات المطعمة بالصدف، والمرايا المؤطرة بأطر ذهبية ضيقة مبرومة، تبدو وكأنها لم تزح من مكانها أبداً. ها هو سعال يتناهى. وتدخل العمة. إنها متوسطة القد ولكنها، كالجميع هنا، متينة الجسم. تدخل وعلى كتفيها شال فارسي كبير. تدخل باعتداد مرحبة، وفي الحال، خلال الأحاديث التي لاتنتهي عن الماضي والإرث تبدأ الأطعمة بالظهور: يأتي في البداية، الإجاص والتفاح، تفاح أنطون، والفطر الأبيض، ومن ثم يعد غداء مدهش: لحم خنزير أحمر كله مع البازلاء، ودجاجة محشوة، وديك هندي، وأنواع مختلفة من المخللات، وعصير أحمر، كثيف وحلو للغاية... وعبر النوافذ المفتوحة على الحديقة تتناهى أنسام خريفية، نقية، باردة.

-٣-

كان ثمة شيء واحد فقط، في الأعوام الأخيرة، يعزي نفوس الإقطاعيين المنطفئة، ألا وهو الصيد.

سابقاً كانت تلك البيوت، كبيت آنا غيراسيموفنا، نادرة. وكان هناك بيوت اعتراها الخراب ولكنها ظلت قائمة تعيش في بحبوحة، تحيط بها ضياع هائلة وبساتين تبلغ مساحتها عشرين هكتاراً. لقد ظل بعض هذه البيوت قائماً حتى زمننا هذا لكنها غدت متوحشة... خالية من العربات والخيول القرغيزية وكلاب الصيد السلوقية.. خالية من الخدم ومن مالك كل هذا: الإقطاعي الصياد كصهري المرحوم أرسيني سيميونيتش.

كانت حدائقنا وبيادرنا في نهاية أيلول، قد خوت، وظل الطقس كعادته متقلباً بحدة. كانت الريح أياماً بأكملها تلطم وتنهش الشجر والمطر ينهمر عليه من الصباح حتى الليل. أحياناً قبيل المساء كان شعاع الشمس الواطئة المذهب الخافق يتسلل عبر الغيوم القاتمة المنخفضة في الغرب والهواء يغدو نقياً شفافاً. كان الشعاع الشمسي يتلألأ مبهراً البصر، بين الأوراق، بين الأغصان التي كانت تتحرك شبكة حية مرتعشة بفعل الريح، وفوق السحب الرصاصية الثقيلة نحو الشمال كانت سماء زرقاء مائعة تلمع بسطوع وبرود. وخلف هذه الغيوم كانت سلاسل جبال السحب الثلجية العالية تسبح ببطء، وكنت أنت تقف عند النافذة وتفكر: «لعل الرب يجعل الطقس صحواً» ولكن الريح لم

تكن تهدأ. كانت تهز الحديقة، وتمزق أعمدة الدخان المندفعة من غرفة الخدم بلا توقف، ومن جديد تسوق خصل الغيوم الرمادية المشعثة الشريرة. كانت تركض مسرعة وعلى ارتفاع منخفض، وكالدخان تحجب وجه الشمس. فينطفئ وهجه، وتنغلق النافذة الصغيرة المفتوحة في السماء الزرقاء وتصبح الحديقة خاوية مملة، ومن جديد يتناثر المطر هادئاً في البدء، حذراً ثم يتكاثف حتى يغدو مزيجاً من سيل وعاصفة وظلام. ها قد حل ليل طويل يوجف القلب...

كانت الحديقة تخرج من هذه المعمعة عارية تماماً، مغطاة بأوراق مبللة وديعة، مسالمة لكنها مع ذلك تبدو جميلة للغاية عندما يحل طقس صاح من جديد، مع مقدم الأيام الشفافة الباردة الأولى من تشرين: عيد وداع الخريف، أما الأوراق الباقية على أشجارها فتظل معلقة هناك حتى هطول الثلج، عندها ترفع الحديقة السوداء شعرها المشعث إلى السماء الفيروزية الباردة وتنتظر الشتاء خاضعة متدفئة بلمعان الشمس. أما الحقول فتسود خطوطها المحروثة وتسطع خضرة المزروعات الخريفية الكثيفة...

آن أوان الصيد.

ها أنذا أرى نفسي في ضيعة أرسـيني سـيميونيتش، في البيـت الكبير، في قاعة مليئة بالشمس ودخان الغلايين والسجائر. خلق كثير لفحت وجوههم الريح والشمس، بـصداراتهم وجزمـاتهم الطويلـة. كـانوا قـد تعـشوا لتـوهم حتـى التخمـة فـاحمرت وجوههم، وكانوا مستثارين بأحاديث صاخبة عن الصيد الآتي، لكن من دون أن يفوتهم تجرع الفودكا حتى بعد الطعام.

وفي الفناء كانت الأبـواق تـنفخ والكـلاب تعـوي بأصـوات مختلفة. ويندفع كلب أرسـيني سـيميونيتش الأسـود المفـضل إلى المائدة ويبدأ بالتهام ما تبقى في الصحون من الأرنب بالصلـصة. وفجأة يطلق زعيقاً مخيفاً ويقلب الصحون والكؤوس ويقفز عـن الطاولة. فقد دخل أرسيني سيميونيتش آتياً مـن مكتبـه، حـاملاً سوطاً ومسدساً، وبغتة يصم القاعة بدوي طلقة، فتمتلئ القاعـة بمزيد من الدخان، أما أرسيني سيميونيتش فيقف ضاحكاً وهـو يقول مرقصاً عينيه:

- مؤسف أنني لم أصبه!

إنه طويل القامة، نحيل - ولكنه عريض المنكبين رهيف القد، أما وجهه فوجه غجري وسيم. كانت عيناه تلمعان بوحشية، إنه حـاذق للغايـة. كـان يرتـدي قميـصاً طـويلاً حريريـاً قرمزيـاً،

وسروالاً مخملياً، وجزمة طويلة. بعد أن أفزع الكلب والضيوف بطلقته، غنى بصوت جهوري نصف مازح ونصف جاد:

- آن الأوان فلنسرج الخيل الرشيقة

ولنلق الأبواق الرنانة على أكتافنا

ثم يقول بصوت مرتفع:

- ينبغي ألا نضيع وقتنا الذهبي.

تحس الآن كيف كان صدرك الفتي يتنشق بنهم وسعة برد النهار الرمادي الساطع في المساء، عندما كنت تذهب مع عصبة أرسيني سيميونيتش الصاخبة مستثاراً باللغط المنغوم للكلاب المقذوفة في الغابات، في غابة «الأكمة الحمراء» أو غابة «الجزيرة الهادرة» اللتين تثيران شهية الصياد باسميهما فحسب. تذهب ممتطياً حصاناً قرغيزياً مشاكساً، قوياً وواطئاً، تقبض على رسنه بقوة، فتحس نفسك ممتزجاً معه في جسد واحد.

كان ينخر ويعدو خبباً، ضارباً بحوافره سجاد الأوراق السود المتناثرة المخشخشة، السجاد العميق الخفيف الذي كان كل صوت يوشوش به يرن في الغابة الخاوية الرطبة الطازجة، وينبح في مكان بعيد كلب، فيجيبه كلب آخر بشوق وأسى، ثم ينبح ثالث، وفجأة تضج الغابة كلها بالنباح الصاخب فتبدو وكأنها

قدت من زجاج. ثم تدوي طلقة ثقيلة وسط الضجيج، فيميع كل هذا الصخب ويتدحرج مبتعداً.

- احترس!

زعق أحدهم بصوت مستميت على مدى الغابة كلها.

«احترس» وتلمع في الرأس فكرة مسكرة. تصرخ بالجواد، ثم تندفع في الغابة مثل أسير حطم أغلاله، غير آبه في طريقك بشيء، الأشجار وحدها فقط تمر أمام عينيك، والطين ينقذف إلى وجهك من تحت حوافر الجواد، ثم تقفز من الغابة، فترى على العشب قطيع الكلاب المبرقشة المنتشر في الأرض. وتزيد من سرعة «القرغيزي» قاطعاً الطريق عليها، عبر العشب والشقوق والحقول حتى تصل إلى الجزيرة التالية. ويختفي عن عينيك قطيع الكلاب بصخبه وعوائه.

عندها وأنت مبتل كلك، ترتجف من التوتر، تكبح جماح الحصان المزبد الناخر، وتبتلع بنهم رطوبة الغابة. بعيداً تصمت صرخات الصيادين ونباح الكلاب ويحيط بك هدوء ميت. الغابة نصف المكشوفة تقف أمامك فتحس أنك دخلت قصراً أثرياً مهجوراً. وتفوح الوديان بعبق فطر قوي وأوراق متفسخة ولحاء شجر مبتل. ثم تشتد رائحة العفن المنبعثة من الوديان

وتبرد الغابة وتظلم... حان وقت المبيت. لكن جمع الكلاب بعد الصيد ليس أمراً هيناً. ترن الأبواق في الغابة بصوت أسيان يائس طويلاً، وطويلاً يتناهى إلى السمع صراخ وسباب وزعيق الكلاب... ثم أخيراً، وقد أظلمت تماماً، تلقي عصبة الصيادين نفسها في بيت إقطاعي أعزب تكاد لا تعرفه، وتملأ بالصخب فناء البيت المضاء بالقناديل والشموع والمصابيح التي يحملها الخدم لاستقبال الضيوف.

كان يصدف أن يقيم الصيادون عند هذا الجار المضياف أياماً عديدة. في شفق الفجر، في الريح الجليدية، وأول قطرات الثلج الرطبة، ينطلقون إلى الغابات والحقول وفي غبش المساء يعودون، ملطخين كلهم بالوحول، بوجوه قانية، تفوح منهم رائحة الخيل ووبر الحيوانات المصادة وينغمرون في حفلة سكر صاخبة. يحس المرء في البيت الآهل المضاء بعد يوم كامل في برد الحقول، بالدفء والأمان. الجميع يتنقلون من غرفة إلى أخرى، بصدارات محلولة الأزرار، يأكلون ويشربون كيفما اتفق، متبادلين فيما بينهم انطباعات فائرة عن الذئب الضخم القتيل الراقد في وسط القاعة مكشراً عن أنيابه، قالباً عينيه، بذيله المنقوش الملقى جانباً، صابغاً الأرض بدمه الشاحب البارد. بعد

الفودكا والأكل تحس بتعب حلو لذيذ وهناء نوم فتي بحيث أن الأحاديث تتناهى إليك كأنها تمر عبر الماء. وجهك الملفوح بالريح يكاد يحترق ولكن ما إن تغلق عينيك حتى تنساب الأرض تحت قدميك. عندما ترقد في الفراش على الريش الطري في زاوية من زوايا الغرفة العتيقة ذات الأيقونة والقنديل الزيتي، تبرق أمام عينيك أشباح الكلاب النارية المبرقشة، فيسري في جسدك كله الإحساس بخبب الخيل، ثم تغرق، من دون أن تنتبه، أنت وكل هذه الصور والإحساسات في نوم سعيد معافى، ناسياً حتى أن هذه الغرفة كانت يوماً ما غرفة صلاة لشيخ أحيط اسمه وعلاقته بأقنانه، بأساطير سوداء وأنه مات في هذه الغرفة وربما على هذا السرير نفسه.

كان يصدف أن تستغرق في النوم مفوتاً الصيد، فتستمتع براحة لطيفة إلى حد خارق، تستيقظ وترقد طويلاً في الفراش، والهدوء يسود البيت كله وتسمع كيف يخطو البستاني بين الغرف على رؤوس أصابعه، مشعلاً المواقد، وكيف يطقطق الخشب ويلعلع. أمامك في هذا البيت الشتائي الصامت، يوم كامل من السكينة، ترتدي ثيابك على مهل، ثم تتمشى في الحديقة وتعثر بين الأوراق الرطبة مصادفة، على تفاحة منسية، باردة مبتلة،

ولسبب ما تبدو لك لذيذة الطعم إلى حد يفوق التصور، وفريدة بين التفاح. وبعد ذلك تنصرف إلى الكتب، كتب الأجداد ذات الأغلفة الجلدية الضخمة، والنجوم الذهبية. كانت هذه الكتب الشبيهة، بدفتر الأضاحي الكنسية، تعبق برائحة مجيدة، رائحة أوراقها المخشخشة الكبيرة، رائحة عفن حامض لطيف وعطور قديمة. وكانت التعليقات المكتوبة على الحواشي بأحرف مدورة خفيفة، المخطوطة بريش الإوز، جميلة هي الأخرى، تفتح الكتاب وتقرأ: «الفكرة الجديرة بالفلاسفة القدماء منهم والجدد، ثمرة العقل وأحاسيس القلب...» ودون إرادة منك تشغف بالكتاب كله. إنه «النبيل الفيلسوف» بما لديه من وقت وافر وموهبة لمناقشة أي قمم يمكن للعقل البشري بلوغها، أحس بالرغبة في أن يرسم للعالم مخططاً على نموذج ضياعه الواسعة.. ثم تصطدم بـ«المؤلفات الهجائية والفلسفية للسيد فولتير» فتتمثل بمقطع متأنق لطيف من الترجمة: «سادتي، لقد ألف إيرازم في القرن التاسع عشر مديحاً للحماقة (فاصلة أنيقة ونقطة) وأنتم تريدونني أن أمجد العقل..» وبعد ذلك تنتقل من عهد يكاترينا الغابر إلى العهود الرومانسية، إلى المختارات والروايات العاطفية المفخمة الطويلة، يقفز الوقواق من الساعة

وبصوت هازئ حزين يوقوق فوقك في البيت الخاوي فتتسرب إلى القلب كآبة لذيذة غريبة.

هاهي «أسرار الكسيس» هاهي «فيكتور أو طفل في الغابة».

«دقت الساعة منتصف الليل، الهدوء المقدس يحل محل صخب النهار وأغاني القرويين المرحة، النوم يبسط أجنحته القاتمة على الأرض معطراً إياها بالخدر والأحلام... الأحلام التي غالباً ما تكون استمراراً لآلام سيئي الطالع...» وتلمع أمام عينيك الكلمات القديمة المفضلة: الصخور وغابات البلوط، القمر الشاحب والعزلة، الخيالات والأشباح، الورود والسوسن و«ألعاب وشيطنة الملاعين الصغار» والأيدي الزنبقية واللودميلات والآنات.. هذه مجلة تحمل أسماء جوكوفسكي وباتوشكوف وبوشكين عندما كان طالباً. وبأسى تتذكر جدتك، ورقصتها «البولكا» على أنغام الأوكورديون وقراءتها الطائرة لأشعار «يفغيني انيغين»، وتنهض أمامك الحياة الماضية الحالمة. كم من نساء وفتيات جميلات كن يعشن يوماً في البيوت النبيلة. هاهي صورهن تطل عليك من الجدران، برؤوسهن الأرستقراطية الرائعة، بتسريحاتهن القديمة، برموشهن الطويلة المرخية بوداعة وأنوثة على عيونهن الحزينة الرقيقة.

-٤-

بدأت رائحة التفاح الأنطوني تختفي من بساتين الإقطاعيين. لم تكن تلك الأيام ببعيدة عني ومع ذلك كنت أحس أنه مر مئة عام كاملة منذ ذلك الحين. عجائز فيسيلكي وشيوخها ماتوا الواحد تلو الآخر، توفيت آنا غيراسيموفنا. وأطلق أرسيني سيميونيتش على نفسه النار... حل عهد الملاك الصغار المفلسين حتى الإدقاع. ولكن حتى نهاية حياة الملاك الصغار المدقعة هذه جميلة أيضاً!

ها أنا أرى نفسي في القرية من جديد في عمق الخريف. كان الطقس أزرق قاتماً. كنت أمتطي السرج في الصباح وأذهب إلى الحقول مع كلب واحد وبندقية وبوق. كانت الريح توحوح وتئن في فوهة البندقية عندما تهب إلى لقائي مصطحبة ثلوجها الجافة. كنت أمضي نهاراً كاملاً سابحاً في السهول المقفرة... وأعود إلى البيت في غبش المساء جائعاً خاملاً ولكن عندما تلمع أضواء فيسيلكي وتتصاعد رائحة الدخان والسكن من البيوت يحل في روحي الدفء والمسرة. أذكر كان أهلي يحبون الجلوس والسمر في عتمة الأماسي فلا يشعلون القناديل. أدخل البيت

فأجد أنهم قد ركبوا الإطارات الشتوية للنوافذ. وكان هذا يكيف مزاجي أكثر مع هرمونيا الشتاء المسالمة. العامل يشعل المواقد في غرفة الخدم، وأنا كما في الطفولة، أجلس القرفصاء قرب كومة من القش عابقة برائحة الطزاجة الشتائية الحادة، تارة أحدق إلى الموقد المتوهج وتارة إلى النوافذ التي يموت خلفها الغبش مزرقاً حزيناً. بعد ذلك أمضي إلى قاعة طعام الخدم الغنية بالضوء والبشر حيث الفتيات يقطعن الملفوف فتلمع قطعه تحت أيديهن، وأصغي إلى وقع السكاكين السريع المنتظم، وأغانيهن الفلاحية الحزينة المرحة في آن واحد.. أحياناً كان يمر ملّاك صغير من الجيران ويأخذني إلى بيته وأمكث عنده وقتاً طويلاً.. حسنة هي حياة الملاكين الصغار!

كان هذا الملّاك يستيقظ باكراً وبعد أن يتمطى بقوة ينهض من فراشه ويلف سيجارة ضخمة من التبغ الأسود أو ببساطة من تبغ الماخوركا. كانت أشعة صباح تشرين الثاني الشاحبة تضيء الحجرة البسيطة ذات الجدران العارية، وفراء الثعالب الخشن الممدود تحت السرير، والقامة الربعة ذات السروال والقميص المزنر. في المرآة ينعكس وجه وسنان ذو ملامح تترية. كان يسود البيت الدافئ نصف المعتم هدوء. وخلف الباب في الممر تئن

طباخة عجوز تقطن بيت سيدها منذ أن كانت طفلة ولكن هذا لم يكن يمنع الملاك من أن يملأ البيت بصوته الأجش صارخاً:

- لوكيريا، هاتي السماور!

ثم، بعد أن يرتدي جزمته، ويلقي بصداره على كتفيه يخرج من البيت من دون أن يزرر القميص، وعند حظيرة مرتجة تفوح برائحة الكلاب يتمطى بكسل، متثائباً بصوت مسموع، وبعد أن يبتسم تطوقه الكلاب السلوقية.

- اعلكي!

بهدوء وبلهجة متفضلة يقول هذا ويعبر البستان إلى البيدر. كان يتنشق ملء صدره هواء الفجر الحاد ورائحة الحديقة العارية المخدرة بخمول الليل... كانت الأوراق المسودة الملتفة على نفسها من البرد تخشخش تحت جزمته في الممشى الممتد بين أشجار البتولا التي قطع نصفها، وترتسم على السماء الواطئة المغبشة، غربان منفوشة الريش نائمة على حواف المجاري. سيكون يوماً رائعاً للصيد، ثم يتوقف السيد في وسط الممشى، ويحدق طويلاً إلى الحقل الخريفي الأخضر الخاوي، الذي تتسكع العجول فيه، ثمة كلبان سلوقيان يزعقان بالقرب من قدميه، أما زاليفاي، كلبه المفضل، فيكون قد قطع الحديقة، متقافزاً على

الـشجيرات الـشوكية، وكأنـه ينـادي ويطلـب الانطـلاق إلى الحقول. ولكن ماذا تفعل بهـذه الكـلاب؟ إنهـا الآن تـركض في الحقول المحروثة، وعلى الدرب الصيفي ولكنهـا تخشى دخـول الغابة لأن الريح تصفع أوراق الشجر فيها. آه لو أن لديه كـلاب صيد أفضل.

الجرش يبدأ في المجارش. ها هو مشط الدرّاسـة يـدوي دائـراً ببطء.

والخيـول تـشد الجـرار بكـسل، مـستندة بقوائمهـا إلى دائـرة الروث وهي تهتـز، وتمـضي في دورانهـا. ووسـط الـدائرة يجلـس العامل على مقعد صارخاً برتابة على الخيول، لاسعاً بسوطه ذلك الجواد الأسمر الخصي، أكسلها جميعـاً، الـذي ينـام في سـيره لأن عينيه معصوبتان ويصرخ عامل رصين يرتدي قميصاً واسعاً مـن الخيش:

- هيا يا بنات!

فتكنس الفتيات المجرش بعجلة ويركضن بالدلاء والمكانس.

- كان الرب معكن!

يقول العامـل وتطـير الحزمـة الأولى مـن الحـصيد، المـأخوذة للتجربة، على المشط بأزيز وصريف، ثم تطير عنه إلى الأعلى مثـل

مروحة شعثاء. المشط يزأر أكثر فأكثر والعمل يغلي، وسرعان ما تمتزج جميع الأصوات في صخب واحد لطيف هو صخب الجرش. السيد يقف عند باب المجرش وينظر كيف تلمع في عتمته المناديل الحمراء والصفراء والأيدي والمجارف والقش، وكيف يتحرك كل هذا ويموج تحت دوي المشط وصراخ العامل وصفيره الرتيبين. التبن يتطاير غيوماً إلى الباب والسيد يقف مرمداً من التبن. ثم يحدق إلى الحقل... قريباً تبيض الحقول، قريباً تغطيها الثلوج.

سيحل الشتاء ويهطل الثلج ولا كلاب صيد، بل ولا مجال للصيد، سيحل الشتاء ويبدأ العمل مع الكلاب السلوقية. ومن جديد، كما في الأزمنة الأولى يجتمع الملاك الصغار ويسكرون بما تبقى لديهم من نقود ويضيعون أياماً بطولها في الآماد الثلجية. وفي المساء في ضيعة نائية يضيء قنديل غرفة ما متوحدة عتمة الليل الشتائي. وهناك في هذه الغرفة الصغيرة تسبح أعمدة الدخان وتشتعل الشموع الشحمية الخابية ويدوزن أحدهم القيثارة.

في الغبش هاجت الريح
وصفقت بوابتي العريضة

يبدأ ساهر ما بصوت جهوري منطلق من الصدر، فيتلقف الآخرون الأغنية ويرددون، متظاهرين بالمزاح، بأصوات ناشزة حزينة واندفاع يائس:

صفقت بوابتي العريضة

وغمرت طريقي بثلج أبيض.

سيد من سان فرانسيسكو

وَيْلٌ! وَيْلٌ! الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ بَابِلُ! الْمَدِينَةُ الْقَوِيَّةُ!

سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي

انطلق السيد القادم من سان فرانسيسكو – لم يحفظ اسمه أحد لا في قبرص ولا في نابولي – للطواف بالعالم القديم، مع زوجته وابنته، على سبيل التسلية لا أكثر، لمدة عامين كاملين.

كان واثقاً بإصرار أنه يمتلك كل الحق في الراحة والغبطة، وفي جولة ممتازة من جميع النواحي. وكان يدعم ثقته هذه، بحجة تقول: أولاً – هو غني، وثانياً – لقد بدأ حياته للتو رغم أعوامه الثمانية والخمسين. قبل هذا لم يكن إنساناً حياً وإنما كائناً موجوداً فحسب. صحيح أن وجوده كان جيداً ومريحاً لكنه كان، رغم هذا، يعقد كل آماله على المستقبل، كان يعمل ليلاً نهاراً – الصينيون الذين يستأجرهم بالآلاف للعمل لديه يعرفون جيداً ماذا يعني هذا – وعندما رأى أخيراً أنه قد أنجز الكثير،

وأنه بلغ تقريباً مستوى أولئك الـذين اعتـبرهـم يومـاً مـا نـماذج تحتذى، قرر أن يرتاح.

الناس الذين ينتمي إليهم هذا السيد معتادون أن يبدأوا تذوق الحياة برحلة إلى أوروبا والهند ومصر. لذا قرر أن يسير هـو أيـضاً وفق هذه العادة. كان يريد، طبعاً، مكافأة نفسه، بالدرجة الأولى، على سنوات الكدح والتعب، لكنه كان سعيداً أيضاً باصـطحاب زوجته وابنته. لم تكن زوجته تتميز بشيء يترك انطباعـاً واضـحاً، ولكن كل الأمريكيات الكهلات شغوفات متحمـسات بالـسفر والتجوال. أما الابنة فكانت فتاة ناضجة معتلـة الـصحة قلـيلاً، ولهذا كانت الرحلة بالنسبة إليها ضرورة مباشرة. فـبغض النظـر عن الفائدة الصحية التي يمكن أن تجلبها، ترى ألا يحفـل الـسفر بلقاءات سعيدة؟ ألا يمكن أن تجلس ذات مرة مـع مليـارديرما خلف طاولة واحدة وتتفرج على اللوحات الجدارية؟ كـان خـط السير الذي رسمه السيد متشعباً وواسعاً. وكان يأمل بالتمتع، في كانون الأول وكانون الثاني، بشمس الجنوب الإيطالي، وبمشاهدة الآثار العريقة، ورقص الترانتيلا، وأغاني المغنين الجوالين وبذلك الشيء الذي يدغدغ قلب من هو في سنه، ألا وهو عشق الـصبايا النابوليات، حتى لو كان هذا العشق مغرضاً. كما خطط لتمضية

الكرنفال في نيس ومونت كارلو حيث تجتمع في ذلك الوقت، نخبة المجتمع، فيستغرق بعضها بشغف في سباق السيارات والمراكب الشراعية، وبعضها الآخر في الروليت، وبعض ثالث في اللعبة المسماة (اصطياد الجنس الآخر)، وبعض رابع في قنص الحمام الذي يطير من أقفاصه بجمال آسر ويحلق فوق بستان من ورود زمردية على خلفية بحر من أزهار «لا تنسني» ثم يهوي في الحال، على الأرض كتلاً بيضاء. وكان في نيته، مع بداية آذار، زيارة فلورنا، ومن ثم الذهاب إلى روما، في يوم آلام المسيح، للاستماع إلى «ميسيريرا»(*) وكان برنامجه يضم أيضاً البندقية وباريس، ومصارعة الثيران في سيفيليا، والسباحة في الجزر الإنكليزية وأثينا والقسطنطينية وفلسطين ومصر، بل وحتى اليابان في طريق العودة طبعاً - وقد سار كل شيء في البداية على أحسن وجه.

كان الوقت نهاية تشرين الثاني، ولم يكن هناك مفر من الإبحار، حتى مضيق جبل طارق، عبر سديم متجلد تارة، وعواصف ثلجية رطبة تارة أخرى، ولكن الإبحار تم، مع ذلك، بسلام. كان المسافرون كثراً وكانت الباخرة الشهيرة

(*) باللاتينية في النص وهي صلاة كاثوليكية.

(أطلنطيدة) شبيهة بفندق ضخم يضم كل وسائل الراحة – بار ليلي وحمامات شرقية وجريدة خاصة بها – وكانت الحياة عليها تسير بانتظام محكم: المسافرون يستيقظون باكراً على صوت البوق، الذي يدوي بين الممرات في السحر، حين يطلع الضوء ببطء وجفاء فوق تلك الصحراء المائية ذات الخضرة الرمادية المتموجة بتثاقل في الضباب، فينهضون، ملقين على أجسادهم بيجاماتهم الخفيفة، لتناول القهوة أو الشوكولاتة، أو الكاكاو، ثم يدخلون الحمامات ويمارسون التمارين الرياضية لبعث الشهية والمزاج الحسن، ثم يتوجهون بعد أن ينتهوا من الزينة النهارية، لتناول الفطور الأول. جرت العادة أن يتنزه المسافرون على سطح السفينة، حتى الحادية عشرة، مستنشقين طزاجة المحيط الباردة، أو لاعبين بالشيفلبور وغيرها من الألعاب، لبعث الشهية مرة أخرى، وفي الحادية عشرة يسكتون جوعهم بالسندويش والحساء، ثم يقرأون الجرائد بلذة، وينتظرون بهدوء فطورهم الثاني، الأكثر دسماً وتنوعاً من الأول. أما الساعتان التاليتان فتكرسان للراحة. كان سطح السفينة مكتظاً بأرائك خيزرانية يستلقي المسافرون عليها ملتحفين أغطية صوفية، محدقين إلى السماء الغائمة، وإلى الحدبات المزبدة التي تلوح خلف حاجز الباخرة، أو يغفون بخدر لذيذ. في الساعة الخامسة

يتناولون، منتعشين مرحين، شاياً ثقيلاً معطراً مع البسكويت. وفي السابعة يعلن البوق بدء الغاية الرئيسية من هذا التواجد وزبدته... وكان السيد القادم من سان فرانسيسكو يسرع في الحال إلى حجرته الفاخرة ويغير ثيابه.

كانت طوابق «أطلنطيدة» تفتح في الأماسي المعتمة مالا يحصى من العيون النارية المتوهجة، وكان ثمة جيش حافل من الخدم يعمل في المطابخ والمغاسل وأقبية النبيذ. كان المحيط السائر خلف الجدران، مخيفاً، ولكن لا أحد كان يفكر به. فثمة ثقة وطيدة بسلطة القبطان عليه. كان القبطان رجلاً أحمر الشعر، هائل الحجم والبدانة، يبدو نعساً باستمرار، يشبه، في معطفه ذي الشرائط العريضة المذهبة، صنماً ضخماً، ولم يكن يظهر من مقره السري للركاب إلا نادراً، كانت الصفارة في مقدمة السفينة، تعول وتزعق بحنق هائج وقتامة جهنمية كل دقيقة، ولكن قلة فقط من المتغدين استطاعت سماعها، إذ كانت تطغى عليها أصوات الأوركسترا الرائعة التي كانت تعزف بحذق وبلا كلل في قاعة تغمرها الأضواء، مكتظة بنساء يرتدين فساتين عارية الصدور ورجال بفراكات وسموكينغ، وبخدم رشيقين، وندل مهذبين، بل إن أحدهم، ذلك الذي كان يسجل الطلبات على النبيذ

فحسب، كان يسير وفي عنقه سلسلة مثل اللوردات الإنكليز. كان السموكينغ والياقة المنشاة يضفيان الشباب على محيا السيد القادم من سان فرانسيسكو. كان جافاً، قصير القامة، سيء التفصيل لكنه مخاط بشكل متين، وها هو الآن جالس وسط البريق الزمردي المذهب لهذا القصر، وأمامه زجاجة نبيذ وأقداح وكؤوس من أرق الزجاج، وباقة مشعة من الزنبق. كان هناك شيء ما منغولي في وجهه المصفر ذي الشاربين الفضيين المشذبين، والأسنان الضخمة ذات الحشوات الذهبية اللامعة والعاج القديم، وفي رأسه الصلعاء المتينة. أما زوجته فكانت ترتدي أيضاً ثياباً فاخرة ولكنها مناسبة لسنها. كانت امرأة ضخمة، عريضة وهادئة. وأما ابنته فقد ارتدت ثياباً أكثر تعقيداً، ولكن بخفة وشفافية تشوبها صراحة بريئة. كانت طويلة القامة، نحيلة القد، ذات شعر رائع مسرح برهافة، وأنفاس عطرة، تفوح من الأقراص البنفسجية والحبيبات الوردية الناعمة المتوضعة بين الكتفين وقرب الشفتين، يظللها قليل من البودرة. طال الغداء لأكثر من ساعة، وبعده بدأ الرقص في قاعة الحفلات. كان الرجال –ومن ضمنهم طبعاً السيد من سان فرانسيسكو –عندما ينهك الرقص أرجلهم، يدخنون السيجارات الهافانية ويجرعون

الليكيور في بار يخدمه زنوج بصديرات حمراء، وسترات من الفرو شبيهة بالبيض المسلوق بعد تقشيره. كانوا يدخنون ويجرعون ليكيورهم حتى تصطبغ وجوههم بحمرة الكرز، وكان المحيط يسير خلف الجدران، هادراً كجبال سوداء، والعواصف الثلجية تصفر بين الأشرعة المتثاقلة. كانت السفينة تهتز بأكملها، مجتازة العاصفة وهذه الجبال، ناثرة على جانبيها كالمحراث، هذه الكتل الجبلية الطرية ذات الذيول المزبدة. زعقت الصفارة كئيبة كالموت، مختنقة بالضباب، وتجمد الحراس في محارسهم من البرد والزمهرير، وقد أصابهم التوتر الخانق لانتباههم بالذهول. وكان بطن السفينة الغائص في الماء أشبه بقاع الجحيم، بحلقته التاسعة الأخيرة. إذ كانت المراجل العملاقة تطلق هديرها المكتوم مبتلعة بأفواهها الملتهبة أكياساً من الفحم الحجري، كان يلقيها بصخب بشر عراة حتى الخصور، مغطين بعرق قذر لاذع، محمرين من اللهب. أما هنا، في البار، فكان الركاب يجلسون خالي البال، ممددين أقدامهم على مساند الأرائك، يسكبون الكونياك والليكيور في أجوافهم، سابحين في أمواج من الدخان الرطب. كان كل شيء في قاعة الرقص يلمع ويسكب الضوء والدفء والغبطة، وكان الراقصون يدورون في رقصة فالس تارة، أو

يتكورون على أنفسهم في رقصة تانغو تارة أخرى، وكانت الموسيقى تتوسل بإصرار، وكآبة لذيذة وقحة، شيئاً واحداً متكرراً...

كان هذا الجمهور الراقي يضم ثرياً كبيراً حليق الذقن، طويلاً يرتدي فراكاً من طراز عتيق، وكاتباً إسبانياً شهيراً، وحسناء عالمية، وعاشقين ناعمين كان الجميع يراقبهما بفضول، ولم يكن هذان يخفيان سعادتهما. لم يكن يرقص إلا معها. كانا يؤديان كل الرقصات برهافة وجاذبية. ولم يكن أحد يعلم، باستثناء القبطان، أن هذين العاشقين مستأجران من قبل صاحب الباخرة كي يمثلا الحب لقاء أجر محترم، وأنهما يبحران منذ زمن بعيد على هذه الباخرة أو تلك.

عند جبل طارق أفرحت الشمس الجميع، وكان الطقس أشبه بباكورة الربيع. ظهر على متن «أطلنطيدة» مسافر جديد أثار اهتماماً عاماً بشخصه. كان أميراً وولي العهد لإحدى الدول الآسيوية، عنّ له التجوال خفية. كان إنساناً ضئيلاً متخشباً، عريض الوجه، ضيق العينين، ذا نظارات، وكان يثير النفور قليلاً بشاربيه المنفوشين كما لدى الموتى. لكنه، عموماً كان إنساناً لطيفاً، بسيطاً، متواضعاً. كان ثمة، في البحر الأبيض المتوسط، موجات

كبيرة ملونة مثل ذيل الطاووس، بـددتها تحـت البريـق الـساطع،
والشمس الصافية تماماً، ريح الشمال الباردة المواجهة، بعد ذلك،
في اليوم التالي، بدأت السماء تشحب والأفـق يمتلـئ بالـضباب.
أطلت اليابسة وتبدت للبصر ايسكيا وكابري، بل وأمكن بـالمنظر
رؤية نابولي، مثل قطع سكر مبعثرة عند أقـدام شيء مـا رمـادي،
أزرق. كان العديد من الـسيدات والـسادة قـد ارتـدوا سـتراتهم
الخفيفة ذات الياقات الفرائية. وكـان الخـدم الـصينيون، هـؤلاء
الـصبية المـستكينون، بـسيقانهم المعوجـة وضـفائرهم الـسوداء
كالقطران، الممتـدة حتـى أقـدامهم، المتحـادثون دائـماً بـصوت
خفيض، قد بـدأوا يخرجـون إلى الـدرج شـيئاً فـشيئاً البطانيـات
والعصي الجنتلمانية، والحقائب ومحافظ أدوات الزينة... كانت ابنة
السيد القادم من سان فرانسيسكو واقفة على سطح السفينة قرب
الأمير، الذي تعرفت عليه البارحة مساء، بفضل مصادفة سعيدة،
وهي تتصنع أنها تنظر باهتمام إلى الأفق، حيث أشار، شـارحاً لهـا
شيئاً ما، راوياً إحدى قصصه بعجلة وصوت هامس. كان بقامته
الضئيلة، يبدو بين الآخرين ولداً. كان قبيحاً غريـب الأطـوار –
بنظاراته وقبعته السوداء الصلبة، ومعطفه الإنكليـزي وشـعرات
شاربيه المشعة القليلة والغليظة كذيل الحصان، وجلـده الأسـمر

الرقيق الذي يبدو وكأنه شُدَّ على وجهه الأملس ولُمِّع – ولكن الفتاة تصغي إليه دون أن تفهم من ارتباكها، ما كان يقوله. كان قلبها يخفق من فرح غامض بوقوفها معه. إذ كل شيء، كل شيء لديه مختلف عما لدى الآخرين: يداه الجافتان، جلده النقي الذي يجري تحته دم ملكي عريق. حتى ثيابه الأوروبية، البسيطة للغاية، الأنيقة، مع هذا بشكل خاص، كانت تخفي جاذبية مبهمة. أما السيد من سان فرانسيسكو، بحذائه المغلف بحافظة رمادية فكان يحدق طوال الوقت إلى حسناء شهيرة تقف بالقرب منه. كانت طويلة القامة، مدهشة التكوين، شقراء، ذات عينين مكحلتين وفق آخر الصرعات الباريسية، تمسك كلباً صغيراً مقوساً، ذا شعر متساقط، بواسطة سلسلة فضية، وكانت لا تني تتحدث مع كلبها هذا. كانت ابنة السيد تحاول، بضيق حائر، أن تتجاهل رؤية أبيها.

كان السيد كريماً بما فيه الكفاية طوال الطريق، ولذا كان واثقاً تماماً من صدق اهتمام كل أولئك الذين كان يطعمونه ويسقونه ويخدمونه من الصباح حتى المساء، وينفذون أتفه طلب من طلباته حتى قبل أن يتفوه به، ويؤمنون له الهدوء والنظافة، وينقلون أمتعته، وينادون الحمالين، ويوصلون الحقائب إلى الفندق الذي يقصده. هذا ما جرى في كل مكان.

وهذا ما ينبغي أن يكون أيضاً في نابولي. كانت نابولي تنهض وتقترب. وبدأ الموسيقيون يحتشدون على سطح الباخرة بأبواقهم النحاسية، وثم، بغتة، أصموا الآذان بأصوات مارش احتفالي، فظهر القبطان المارد، بثياب الاستعراض، في برج القيادة، ومثل إله وثني لطيف راح يلوح للركاب بتهلل وبشاشة. وعندما دخلت «أطلنطيدة» أخيراً الميناء وأسندت جبلها المتعدد الطوابق المزروع بالبشر إلى الرصيف البحري، وضجت السلالم، اندفع إلى السيد حشد من عملاء الفنادق ومساعديهم بمعاطفهم ذات الأشرطة المذهبة والوكلاء والغلمان المصفرين، والصعاليك الأقوياء ببطاقات ملونة في أيديهم، مقترحين خدماتهم، لكنه اكتفى بالابتسام لهم، ثم مضى إلى سيارة ذلك الفندق الذي يمكن للأمير أن ينزل فيه، وهو يتلفظ بهدوء عبر أسنانه، بالإنكليزية تارة وبالإيطالية تارة أخرى:

ابتعد. GO AWAY!(*)

ابتعد VIA!(**)

(*) بالإنكليزية في النص.

(**) بالإيطالية في النص.

وفي الحال سارت الحياة في نابولي حسب النظام المقرر: صباحاً تناول الفطور في مطعم معتم، وسماء غائمة لا تعد بطقس حسن، وحشد من الأدلاء والمرشدين عند أبواب قاعة الاستقبال، تلي ذلك الابتسامات الأولى لشمس دافئة وردية، وإطلالة من الشرفة العالية على فيزوفيا وأقدام الخليج المدثر بالضباب الصباحي المتألق، ورقرقة المويجات الزمردية المغضضة، وظلال كابري على الأفق، والحمير الصغيرة الراكضة في الأسفل، جارة طنابرها، وصفوف الجند السائرين بنشاط إلى مكان ما، على وقع موسيقى الاجتماع الصباحي. ثم يحل موعد الخروج وركوب السيارة والتجول بروية في الشوارع الضيقة، الرمادية الآهلة بالناس، بين البيوت العالية، ذات النوافذ الكثيرة، وزيارة المتاحف النظيفة كالموت، المضاءة كأنها بالثلج، اللطيفة والمملة معاً، أو زيارة الكنائس الباردة العابقة برائحة الشموع والتي يتكرر فيها كل شيء: المدخل المهيب المغطى بستارة جلدية ثقيلة، الفراغ الهائل والصمت في الداخل، والأضواء الخابية للشمعدان السباعي، المحمرة في عمق المذبح المزركش بالمخرمات، وعجوز وحيدة تجلس وسط المقاعد الخشبية القائمة، وبلاط أملس كالضريح تحت الأقدام، و«الرفع

عن الصليب» لرسام ما، والتي لابد أن تكون لوحة شهيرة. في الواحدة الفطور الثاني على جبل سان مارتينو، حيث يتوافد حتى منتصف النهار أناس من الدرجة الأولى، وحيث، ذات مرة، كاد يغمى على ابنة السيد، إذ خيل لها أن الأمير جالس في القاعة رغم معرفتها، من الجرائد، أنه في روما. وفي الخامسة يجري تناول الشاي في الفندق في قاعة فخمة يسودها الدفء المنبعث من السجاد والمواقد اللاهبة. وهناك كان يجري الاستعداد أيضاً لتناول الغداء. ومن جديد كان رنين الناقوس الهائل المسيطر يملأ كل الطوابق، وتنعكس أرتال النساء، بفساتينهن عارية الصدور، في المرايا وتملأ السلالم بحفيف حريري. ومن جديد أيضاً كان المطعم يفتح قصره بكرم، على سعته، لتلوح سترات الموسيقيين الحمراء على المنصة، "وليحوم" الحشد الأسود من الخدم حول كبير الندل وهو يسكب في الصحون، بمهارة خارقة، حساء وردياً كثيفاً. وكان الغداء مرة أخرى حافلاً بمختلف الأطعمة وصنوف النبيذ والمياه المعدنية والحلوى والفواكه، بحيث أنه، عندما بلغت الساعة الحادية عشرة مساء وزعت الوصيفات على كل الحجرات أكياساً من الكاوتشوك، مليئة بمياه ساخنة لتدفئة البطون.

لكن كانون الأول «أطل» مخيباً. وعندما يجري الحديث عن الطقس مع وكلاء الفنادق كان هؤلاء يهزون بأكتافهم معتذرين فحسب، وهم يغمغمون بأنهم لا يذكرون عاماً كهذا، رغم أنها ليست المرة الأولى التي يضطرون فيها للتلفظ بهذه الغمغمة، والادعاء بأن شيئاً ما فظيعاً يحدث في العالم كله «ففي ريفيرا هطلت أمطار وهبت عواصف لم يعرف التاريخ لها مثيلا، وفي أثينا يتساقط الثلج، وإتنا مغطاة كلها أيضاً بالثلوج، حتى أنها تلمع في الليل. كما أن السياح يتراكضون فارين من باليرمو خوفاً من الصقيع...» كانت شمس الصباح تخدع الجميع كل يوم. فمنذ منتصف النهار تبدأ بالامتقاع والشحوب بلا توقف، وينهال مطر غزير وبارد. عندها كان النخيل الناهض عند مدخل الفندق يلمع كالصفيح، وكانت المدينة كلها تبدو أكثر قذارة وضيقاً، والمتاحف أكثر رتابة وتشابهاً، وسجائر الحوذيين السمان بمعاطفهم الجلدية الخافية في الريح كالأجنحة، كريهة الرائحة إلى حد لا يطاق، كما يبدو وقع سياطهم النشيط على أفراسهم الهزيلة الضامرة الأعناق، زائفاً للغاية، وأحذية السادة، منظفي سكك الترام أكثر فظاظة، والنساء المتخبطات في الوحل، تحت المطر برؤوس سوداء حاسرة، قصيرات السيقان بشكل

مقرف. هذا دون الحديث عن رطوبة ورائحة العفن المنبعثة من المسك المتفسخ المزبد الملقى على ساحل البحر. صار السيد والسيدة القادمان من سان فرانسيسكو يتشاجران كل صباح. وكانت ابنتهما تذرع الفندق ممتقعة مصدوعة الرأس تارة، وتارة تنتعش وتفرح بكل شيء، وتبدو عندها لطيفة ورائعة. رائعة كانت تلك المشاعر العذبة المعقدة التي أيقظها فيها لقاؤها بذلك الإنسان القبيح ذي الدم الغريب في العروق. إذ ليس مهماً في نهاية الأمر ما الذي بالضبط يوقظ روح الأنثى: النقود أم المجد أم الشهرة أم النسب.. كان الجميع يؤكدون أن الأحوال مختلفة تماماً في سورينتو بكابري. فهناك الجو أكثر دفئاً وضياء والليمون يزهر، والطباع أشرف وأنبل، والنبيذ أصفى وألذ. وهكذا قررت العائلة التوجه إلى كابري بكل حقائبها، للتفرج على هذه المدينة، والتجول بين أحجار قصور تيفيريا التي كانت قائمة يوماً ما، وارتياد مغاور «غورت الأزرق» الأسطورية، وسماع ألحان عازفي القرب الأبروتسيين، الذين يتسكعون طيلة شهر، قبل عيد الفصح، منشدين المدائح لمريم العذراء، ثم ينتقلون إلى سورينتو.

في يوم الرحيل - الذي كان تذكارياً جداً للعائلة - كانت الشمس غائبة منذ الصباح، وكان ثمة ضباب ثقيل قد غطى

فيزوفيا من أساسها، ملقياً بثقله الرطب الرمادي على تموجات البحر الرصاصية. لم تكن جزيرة كابري مرئية، وكأنه لم توجد على الأرض قط. وكان الزورق الصغير المتجه إليها يتأرجح من جنب إلى آخر بحيث أن الأسرة استلقت بلا حراك على الأرائك في حجرة البحارة البائسة وقد غطى أفرادها أقدامهم بالبطانيات، مغلقين أعينهم من الدوار. كانت الزوجة، حسب اعتقادها، أكثر الجميع معاناة، وكان يخيل إليها أحياناً، بل ويستحوذ على تفكيرها، أنها تموت، أما الوصيفة التي، ولسنوات عديدة وبشكل يومي، تتأرجح على هذه الأمواج، في الحر والصقيع، دون كلل أو ملل، فكانت تهرع إليها بطبق وهي تضحك فحسب. كانت السيدة تمسك بأسنانها حز ليمون ممتقعة إلى حد فظيع، أما السيد الذي كان مستلقياً على ظهره، مرتدياً معطفاً عريضاً وقبعة كبيرة، فلم يرخ فكيه طوال الطريق. كان وجهه متجهماً، وشارباه أبيضين، ورأسه مصدوعة للغاية. لقد أصبح، في الأيام الأخيرة، وبفضل الطقس السيء، يكثر من الشرب في الأماسي، ومن التمتع «باللوحات الحية» في بعض الأوكار. كان المطر يلطم الزجاج المرتج، ويسيل منه إلى الأرائك، أما الريح فكانت تضرب الصواري موحوحة، وكان المركب يميل أحياناً مع الموج المندفع

إلى جنبه، فيتدحرج إلى الأسفل شيء ما بصخب. كان الأمر أهون قليلاً في محطتي كاستيلامار وسيرينتو، ولكن هنا أيضاً كان الاهتزاز مرعباً، وكان الشاطئ بكل مايضمه من جروف وبساتين وأشجار صنوبر وفنادق وردية وبيضاء وجبال مجعدة خضراء دخناء، يطير خلف النافذة إلى أعلى وأسفل كأنه يمتطي أرجوحة. كانت الزوراق ترتطم بالجدران والريح الرطبة تخترق الأبواب، وكان ثمة ولد ألثغ يقف على زورق متأرجح يحمل علم فندق «رويال» لا يني عن الزعيق، لإغراء المسافرين، أما السيد القادم من سان فرانسيسكو، الذي كان يحس نفسه كما ينبغي له، شائخاً تماماً، فقد كان يفكر بأسى وحنق بهؤلاء البشر الصغار الجشعين، الذين تفوح منهم رائحة الثوم، ويسمون بالإيطاليين. في فترة التوقف فتح عينيه، ونهض قليلاً عن أريكته، فرأى انهداماً صخرياً برزت في أسفله كومة من البيوت الحجرية البائسة، مغطاة كلها بعفن أخضر يتكئ أحدها على الآخر لصق الماء، قرب الزوارق، قرب خرق مبعثرة وصفيح وشباك بنية، فتذكر أن هذه هي إيطاليا الحقيقية التي أتى إليها كي يبتهج، وعندها أحس بالقنوط... أخيراً بدأت الجزيرة تتقدم في الغسق بسوادها، تماماً وكأنها مثقوبة في أسفلها بأضواء خضراء حمراء، وخفت الريح

ودفئت وطابت رائحتها. وعلى صفحة الموج الذي هدأ والذي كان يخفق مثل زيت أسود، انسابت أفاع ذهبية من قناديل المحطة.. ثم هوت المرساة في الماء بصخب وتعالت صيحات البحارة المتقاطعة الغاضبة من كل مكان، وفوراً أصبح المزاج أحسن وبدت حجرة الجلوس في المركب أكثر ضياء، وتعاظمت الرغبة في الأكل والشرب والتدخين والحركة... وبعد عشر دقائق نزلت الأسرة إلى زروق صغير، وبعد خمس عشر دقيقة وضعت أقدامها على حجر الشاطئ، ثم جلست في عربة مضاءة توجهت بها إلى الأعلى، عبر المرتفع، بين أوتاد الكرم والأسوار الحجرية المهدمة، وأشجار البرتقال الرطبة، المعوجة، المغطاة بسقائف قشية، وبريق الثمار الأورانجية، والجذوع الثخينة اللامعة المنزلقة إلى الأسفل تحت الجبل، مارة بمحاذاة نوافذ العربة المفتوحة... كم هو عبق أريج الأرض في إيطاليا بعد المطر، كم هي خاصة تلك الرائحة التي تميز كل جزيرة من جزرها.

كانت جزيرة كابري، ذلك المساء، رطبة معتمة، لكنها انتعشت للحظة وضوأت. وفي أعلى الجبل، وفي محطة العربات، كان يقف حشد من أولئك البشر الذين يقع على عاتقهم حسن استقبال السيد القادم من سان فرانسيسكو. كان هناك مسافرون

آخرون أيضاً ولكنهم لا يستحقون الاهتمام: بضعة مسافرين روس أتوا إلى كابري سيئي الهندام، شاردين، بنظارات ولحى وياقات مرفوعة لمعاطف قديمة، ومجموعة من الفتيان الألمان طويلي السيقان، مدوري الرؤوس، بثياب قومية وحقائب من الخيش على الأكتاف، وهؤلاء ليسوا بحاجة لخدمات أحد، وهم لا ينفقون بسعة على الإطلاق. انزوى السيد عن أولئك وهؤلاء بهدوء مما ميزه في الحال، فساعده أفراد الحشد بسرعة على الخروج وركضوا أمامه مشيرين إلى الطريق، ومن جديد تحلق حوله الغلمان ودزينة من النساء الكابريات اللواتي يحملن على رؤوسهن حقائب وصناديق السياح المحترمين، وراحوا يقرعون بقباقيبهم أرض الساحة الصغيرة التي تحولت إلى ما يشبه منصة مسرح أوبرالي، تتأرجح فوقها بفعل الريح الرطبة كرة كهربائية. وبدأت عصبة الغلمان تصفر وتتشقلب، وكما على الخشبة مر السيد بينهم باتجاه بوابة من القرون الوسطى، تحت بيوت مذابة في كتلة واحدة. خلف هذه البوابة كان ثمة شارع صغير صاخب ينحدر ببطء إلى مدخل الفندق البراق. كان الطرف الأيسر من الشارع حافلاً بسعف النخيل المتدلي على الأسطحة، وفي آخر وأعلى الشارع كانت السماء السوداء تلمع بنجوم زرقاء. كان

يبدو وكـأنها عـلى شرف الأسرة القادمـة مـن سـان فرانسيـسكو انتعشت هذه المدينة البحرية الرطبة الصغيرة القائمة على جزيـرة صخرية في البحر الأبيض المتوسط، وكان يبدو أيـضاً كـأن هـذه الأسرة هي التي جعلت من صاحب الفندق إنساناً سعيداً فرحاً، وكأن الناقوس الصيني الذي يطوف برنينه بين الطوابـق، داعيـاً إلى الغداء، كان ينتظر أفراد هذه الأسرة بالذات، إذ ما إن وطئـوا ردهة المدخل حتى علا رنينه.

للحظة أحس السيد بالدهشة عندما نظر إلى صاحب الفنـدق – هو شاب مهذب لبق، انحنى باحترام وحذق – فقد تـذكر أنـه في الليلة الماضية، ضمن مختلـف المتاهـات التـي حاصرتـه أثنـاء نومه، رأى هذا الجنتلمان بالضبط أو مثله تماماً، طبق الأصـل، في ثياب الخدمة نفسها، وبـشعره المـسرح الـصقيل كـالمرآة، نفسه. ولدهشته كاد يتوقف. ولكن بما أنـه لم يبـق في روحـه، منـذ أمـد بعيد، أية ذرة من الأحاسـيس الغيبيـة، فقـد انطفـأت دهـشته في الحال. وقد حدث زوجته وابنته مازحاً عن هذا التوافق الغريـب بين الحلم والواقع وهم يعبرون ممر الفندق، ولكن الابنة نظـرت إليه بقلق في هذه اللحظة. لقـد انقـبض قلبهـا فجـأة مـن الكآبـة والإحساس بوحدة مريعة في هذه الجزيرة الغريبة المعتمة... كـان

ثمة ضيف عالي المقام قد رحل لتوه عن كابري. إنه ريس السابع عشر. وقد خصصوا للضيوف القادمين من سان فرانسيسكو ذلك الجناح الفاخر الذي كان يقيم فيه. كما ألحقوا بخدمتهم أجمل وأمهر وصيفة، وهي فتاة بلجيكية ذات خصر نحيل وصلب بفعل المشد، وقلنسوة منشاة على هيئة تاج صغير مسنن، وأفضل خادم، وهو شاب صقلي أسود كالفحم ملتهب العينين، وأنشط عمال الممر: لويجي القصير البدين، الذي غير في حياته كثيراً من مثل هذه الأمكنة. بعد دقيقة قرع كبير الخدم الفرنسي باب غرفة السيد بهدوء، كي يعرف فيما إذا كان السادة يرغبون بتناول الغداء.

ولكي يعلمهم، بعدما يتلقى جواباً أكيداً - هذا بالمناسبة لم يكن موضوع شك – أن قائمة اليوم تتضمن محاراً وروستو وهليون ودراريج وغيرها. كانت الأرض ماتزال تجري تحت أقدام السيد. فلهذه الدرجة أدار رأسه ذلك المركب الإيطالي اللعين. لكنه بتمهل وبلا مهارة أغلق بنفسه، رغم أن هذا ليس من عادته، النافذة التي انفتحت عند دخول كبير الخدم، وفاحت منها رائحة المطبخ البعيد والزهور المبتلة في الحديقة، وبوضوح متأن أجاب بأنهم سيتناولون الغداء، وأن طاولتهم ينبغي أن

توضع بعيداً عن الباب، في عمق القاعة، وأنهم سيحتسون النبيذ المحلي. كان كبير الخدم يجيب بنعم على كل كلمة من كلماته، بنبرات مختلفة تحمل كلها معنى واحداً، هو ذلك المعنى الذي يؤكد شرعية رغبات السيد، وأنها ستنفذ كلها في الحال وبدقة. وفي النهاية أحنى رأسه وسأل بتهذيب:

- أهذا كل شيء يا سيدي؟

وعندما تلقى (نعم) ممطوطة – أضاف أنه سيجري اليوم في البهو رقص التارانتيلا وسيؤديه كارميلا وجوزيبه الشهيران في إيطاليا برمتها في «كل العالم السياحي».

قال السيد بلهجة لاتنم عن شيء:

- لقد رأيتها على البطاقات وجوزيبه هذا هل هو زوجها؟

- ابن عمها يا سيدي.

وبعد أن فكر السيد متمهلاً، صرفه بهزة من رأسه دون أن يقول شيئاً.

بعد ذلك بدأ يتصرف تماماً وكأنه يستعد لعرس: أضاء اللمبات في كل مكان، مالئاً المرايا والضوء والبريق، بالأثاث والصناديق المفتوحة، وراح يحلق ذقنه، ثم اغتسل قارعاً الجرس كل دقيقة، وفي الوقت نفسه كانت أجراس أخرى عجولة تقاطعه

مالئة الممر، آتية من غرفة زوجته وابنتـه. كـان لـويجي بـصدريته الحمراء، وبخفة يتسم بها كثير من البدينين، يدور كاللولـب عـلى رنين الأجراس، متصنعاً علائـم الرعـب مـضحكاً الوصـيفات الراكضات بالقرب منه حتى تدمع عيونهن، وبعد أن يقرع الباب بأزرار كمه، مفتعلاً الارتباك حتى البلاهة، يسأل باحترام:

- هل قرعتم الجرس يا سيدي؟

ومن خلف الباب يأتيه صرير صوت متمهل يـشوبه انزعـاج لبق:

- أجل، ادخل..

بم كان السيد يحـس، وبـماذا كـان يفكـر في هـذا المـساء الهـام بالنسبة له؟ كان يحس، كأي إنسان عانى خلخلة الـسفر، برغبـة عارمة في الأكل، كان يحلم، متلذذاً، بـأول ملعقـة حـساء، وأول جرعة نبيذ. انتهى من زينته العادية بشيء مـن التـوفز لم يـترك لـه وقتاً للأفكار والمشاعر.

حلق ذقنه واغتسل، صحح وضع بعض أسنانه الاصطناعية، ثم وقف أمام المرآة، وبلل بقايا شعره اللؤلؤي المحيط بجمجمـة صفراء مسمرة، ومشطها بفرشـاة ذات إطـار فـضي، وشـد عـلى الجسد الشائخ المتين ذي الخصر الممتلئ بسبب التغذيـة المفرطـة،

صدارا حريريا بلون الكريمة، ودس قدميه الجافتين مسطحتي الباطن في جوربين حريريين وحذاء خاص بالحفلات الراقصة، ثم، وهو جالس، أصلح وضع البنطال الأسود المشدود إلى أعلى بحمالات حريرية، والقميص الناصع البياض البارز عند الصدر، ودس الأزرار المذهبة في الكمين الملمعين، ثم راح يجاهد لالتقاط العروات تحت الياقة المنشاة الصلبة. كانت الأرض ما تزال تهتز تحته، ونهايات أصابعه تؤلمه بشدة، والأزرار تعض بقوة على جلده الرخو في التجويف تحت الحلق، ولكنه كان مصراً، وفي النهاية، وبعينين تلمعان من التوتر، وبشرة مزرقة من الياقة المشدودة بإفراط فوق حنجرته، أنجز ما بدأه، وجلس مجهدا أمام منضدة الزينة، وقد انعكست صورته في مرآتها، مكررة في المرايا الأخرى.

- هذا فظيع!

غمغم لنفسه وهو يخفض رأسه الصلبة الصلعاء، من دون أن يحاول الفهم أو التفكير في ماهية هذا الشيء الفظيع، ثم، وبشكل تلقائي واهتمام، نظر إلى أصابعه القصيرة ذات المفاصل المتفخة بسبب النقرس، وأظافره الضخمة المتفخة ذات اللون اللوزي، وكرر جازما:

- هذا فظيع!

وهنا دوى الناقوس مرة ثانية، برنين جهوري، كما في معبد وثني، مالئاً بدويه الفندق كله. فنهض السيد من مكانه بعجلة، مضيقاً ربطة عنقه على الياقة، شاداً بطنه تحت الصدار المفتوح، وارتدى السموكينغ، وعدل من وضع كميه، ثم نظر إلى نفسه مرة أخرى في المرآة مفكراً: "كارميلا السمراء هذه ذات العينين اللعوبين، تشبه خلاسية في ثياب فاقعة، يسودها اللون البرتقالي. لابد أنها ترقص بشكل خارق"، ثم خرج منتعشاً من غرفته، واقترب على السجاد، من الغرفة المجاورة، غرفة زوجته، وسأل بصوت عال عما إذا كانت جاهزة. فأجاب صوت أنثوي رنان من خلف الباب:

- بعد خمس دقائق!

- ممتاز!

أجاب السيد وبتمهل ذرع الممرات والأدراج المفروشة بالسجاد ثم مضى إلى الأسفل باحثاً عن قاعة المطالعة. كان الخدم، عندما يصادفونه، يلتصقون بالحائط، أما هو فكان يسير غير مكترث بهم. وكان ثمة عجوز، متأخرة عن الغداء، محدودبة، حليبية الشعر، ولكنها مع ذلك ترتدي فستاناً من

الحرير عاري الكتفين، رمادياً زاهياً، مسرعة أمامه بكل قوتها، بمشية مضحكة أشبه بمشية الدجاجة، فسبقها دون جهد. توقف، قرب الأبواب الزجاجية للمطعم، حيث اجتمع النزلاء وباشروا بتناول طعامهم، أمام طاولة مكتظة بعلب السيجار واللفافات المصرية، وتناول لفافة كبيرة ملقياً إلى الطاولة بثلاث ليرات، ثم ألقى نظرة عابرة من نافذة الشرفة الشتائية المفتوحة: هب عليه من العتمة نسيم عليل، وتراءت له قمة نخلة هرمة، نشرت سعفها بين النجوم، فبدت كالمردة، وتناهى إلى سمعه هدير البحر الرتيب. لم يكن هناك، في قاعة المطالعة الهادئة المريحة، المضاءة فوق المناضد فحسب، سوى رجل ألماني أشيب يشبه ابسن، يرتدي نظارات فضية مستديرة، كان يقلب الجرائد واقفاً، بعينين مندهشتين مجنونتين. نظر السيد إليه ببرود وجلس على أريكة جلدية عميقة في الزاوية، قرب لمبة يعلوها غطاء أخضر، وارتدى نظارة الأنف، ثم نفض رأسه من الياقة التي تخنقه، ودفن وجهه في الجريدة. ركض بعينيه على عناوين بعض المقالات، وقرأ عدة أسطر عن حرب البلقان التي لا تهدأ، وبحركة عادية قلب الجريدة. فجأة ومضت الأسطر أمام عينيه ببريق زجاجي، وتوترت عنقه، وجحظت عيناه، وطارت

النظارة عن أنفه... اندفع إلى الأمام يريد ابتلاع الهواء، شاخراً بشكل وحشي، وهوى فكه الأسفل مضيئاً كل فمه بالحشوات الذهبية، وهوت رأسه على كتفه مهتزة، وبرز صدره تحت القميص كالصندوق، وزحف بجسده على الأرض، منكمشاً، داعكاً السجادة بكعبيه، مصارعاً بيأس عدواً غامضاً مجهولاً.

لو لم يكن هذا الألماني في القاعة لأمكن تسوية الأمر في الفندق وإخفاء هذا الحدث المريع، ولانطلق الخدم خفية، حاملين السيد من قدميه ورأسه إلى أبعد مكان ممكن، ولم يكن أحد من النزلاء ليعرف بما حدث. ولكن الألماني اندفع من القاعة صائحاً، مرعباً كل المطعم وكل الفندق ففقفز كثيرون تاركين طعامهم، وركضوا شاحبين إلى القاعة وانبعث سؤال: «ماذا...ماذا حدث»؟ متعالياً بكل اللغات. لكنه لم يجد جواباً ولم يفهم أحد شيئاً، لأن البشر يدهشون حتى الآن من الموت ولا يريدون الإيمان به. كان رب الفندق يهرع من نزيل إلى آخر محاولاً إيقافهم وتهدئتهم بتأكيدات سريعة على أن ما حدث لم يكن سوى أمر تافه، مجرد إغماء بسيط حدث لسيد ما من سان فرانسيسكو.. ولكن أحداً لم يصغ إليه، فقد رأى كثيرون كيف كان الخدم يمزقون ربطة عنق هذا السيد وصداره وسموكينغه

المدعوك، بل وحتى حذائه عن قدميه السوداوين الحريريتين المسطحتين. كان قلبه ما يزال يخفق. وكان يصارع الموت، الموت الذي هبط عليه بغتة وبفظاظة، محاولاً بإصرار ألا يستسلم مهما كان الثمن. كان يهز رأسه ويشخر كالمذبوح، ذاهل العينين كالسكران.. وعندما حملوه بسرعة ووضعوه على سرير في الغرفة (٤٣) – أصغر وأسوأ الغرف وأكثرها برودة ورطوبة، في آخر الممر السفلي – ركضت إليه ابنته بشعر مشعث، وصدر عار مرفوع بمشد، ثم تلتها الزوجة، وكانت قد ارتدت حلة فاخرة استعداداً للغداء، وفمها مستدير من الرعب.. لكنه كان قد كف حتى عن تحريك رأسه. عادت الأمور في الفندق، بعد ربع ساعة، إلى نصابها بشكل ما. ولكن الأمسية كانت قد خربت نهائياً. بعضهم عاد إلى طعامه بصمت ووجه حزين، في حين كان صاحب الفندق يتنقل من واحد إلى آخر، بانزعاج يائس مكتوم، هازاً كتفيه، شاعراً بنفسه مذنباً من غير ذنب، مؤكداً للجميع أنه يفهم تماماً كم هو «محزن هذا الحدث» مطلقاً التعهدات بأنه سيتخذ «كل الإجراءات المتعلقة به» من أجل إزالة جميع الآثار المؤسفة لما حدث. اقتضى الموقف تأجيل الترانتيلا، وإطفاء الأضواء الزائدة وانصرف معظم النزلاء إلى المدينة أو مشرب

البيرة، وساد الهدوء، بحيث أن دقات ساعة البهو كانت مسموعة بوضوح. لم يكن في البهو سوى ببغاء كان يغمغم بصوت جامد، ذارعاً القفص قبل النوم، محاولاً أن يغفو، رافعاً مخلبه الأخرق إلى الطرف الأعلى من منصة جلوسه.. كان السيد راقداً على سرير حديدي رخيص، تحت بطانية صوفية خشنة، وكان ضوء خاب، لقنديل معلق في السقف، يسقط عليه، وكان ثمة كيس يقبع على جبينه الرطب البارد. كان وجهه الميت المزرق قد بدأ يبرد، والغرغرة المبحوحة، المنبعثة من فمه المفتوح، المضاء ببريق الذهب قد ضعفت. إن من كان يغرغر الآن ليس ذلك السيد القادم من سان فرانسيسكو – فهو لم يعد موجوداً، وإنما إنسان آخر. كانت زوجته وابنته والطبيب والخدم يقفون محدقين إليه. وفجأة حدث ما كانوا يتوقعونه ويخشونه: انقطعت الغرغرة، وببطء شديد انتشر الشحوب في وجه الميت، تحت بصر الجميع، وبدأت ملامحه تدق وتضيء.

دخل صاحب الفندق.

- لقد مات.

قال له الطبيب هامساً فهز صاحب الفندق كتفيه بلا اكتراث. أما الزوجة التي كانت الدموع تسيل على خديها بهدوء، فقد

اقتربت منه وقالت بارتباك إنه ينبغي الآن نقل الفقيد إلى غرفته. فأسرع صاحب الفندق معترضاً بلباقة ولكن دون أدنى مسحة لطف:

- أوه كلا يا مدام.

قال جملته هذه بالفرنسية وليس بالإيطالية، فقد أصبح عديم الاهتمام بتلك التفاهة التي يمكن أن يجلبها إلى صندوقه أولئك القادمون من سان فرانسيسكو.

- هذا مستحيل يا مدام.

ثم أفاض في الشرح قائلاً إنه يثمن عالياً ذلك الجناح، وإن كل كابري إذا ما نفذ طلبها ستدري بذلك، وأن السياح سيهربون منه.

كانت الزوجة تحدق فيه طوال الوقت بغرابة، ثم جلست على كرسي، وغطت فمها بمنديل وراحت تنتحب. أما الابنة التي جفت دموعها بسرعة وانتفخ وجهها، فقد رفعت صوتها مطالبة، متحدثة بلغتها، وهي لا تصدق بعد أنهم فقدوا كل احترام هنا. فأجلسها صاحب الفندق برصانة متأدبة: إذا كانت أنظمة الفندق لا تعجب المدام. فهو لن يجرؤ على إعاقتها عن الرحيل، ثم أعلن بشكل حاسم عن ضرورة نقل الجثمان اليوم،

عند مطلع الفجر، وقال إن الشرطة قد أعلمت بما حدث، وأن ممثلها سيحضر الآن وسيقوم بكل الإجراءات الشكلية... سألت المدام: وهل يمكن الحصول، في كابري على تابوت بسيط جاهز؟ للأسف هذا غير ممكن بأي حال من الأحوال، كما لن يستطيع أحد صنعه في فترة قصيرة كهذه. سنضطر لإيجاد حل آخر.. فهو مثلاً يتلقى ماء الصودا الإنكليزية في صناديق طويلة وكبيرة.. ويمكن أن يتخذ من أحد هذه الصناديق تابوتاً.

كان الفندق كله نائماً في الليل، والنوافذ مفتوحة في الغرفة الثالثة والأربعين: كانت تطل على زاوية من الحديقة نمت فيها، بمحاذاة سور حجري عال، متوج بزجاج مكسور، شجرة موز ضامرة. أطفأ الخدم الضوء في الغرفة، ورتجوا بابها وذهبوا. وظل الميت في العتمة، والنجوم تنظر إليه من السماء، وكان ثمة جندب يصيء على السور بلا مبالاة حزينة... وفي الممر المضاء بضوء خاب، جلست وصيفتان على طرف إحدى النوافذ. وهما تهمسان. دخل لويجي مرتدياً خفيه، حاملاً في يديه كومة من الثياب.

- جاهز - قال بهمس رنان مهتم، مشيراً بعينيه إلى الباب المخيف في نهاية الممر، ثم لوح بيده الطليقة إلى ذلك الاتجاه بخفة

- انطلاق! ثم زعق بصوت خفيض وكأنه يودع قطاراً، مطلقاً الهتافات التي يطلقها الناس عادة في المحطات الإيطالية عندما ينطلق القطار. أما الوصيفتان فقد هوتا برأسيهما، إحداهما على كتف الأخرى، كاتمتين ضحكات حبيسة.

بعد ذلك ركض، قافزاً بانسياب، إلى باب الغرفة، وطرق برفق، مائلاً برأسه، وسأل باحترام وبنصف صوت:

- هل قرعتم الجرس يا سيدي؟

ثم رد على نفسه، ضاغطاً حنجرته، ماداً فكه السفلي بصرير حزين ممطوط، وكأنما الصوت آت من خلف الباب:

- أجل، أجل...

وفي الفجر عندما ابيض العالم خلف نافذة الغرفة الثالثة والأربعين، وهزت الريح أوراق شجرة الموز المهترئة، وارتفعت سماء الصباح البنفسجية فوق جزيرة كابري وامتدت، وتذهبت قمة مونت ساليارد الصافية الواضحة بالشمس الطالعة من خلف جبال إيطاليا البعيدة الزرقاء، وعندما خرج الحجارون إلى عملهم، لإصلاح طرق الجزيرة من أجل السياح، جيء إلى الغرفة الثالثة والأربعين بصندوق طويل من صناديق ماء الصودا، وسرعان ما أصبح ثقيلاً، ضاغطاً بشدة على ركبتي

الوكيل الثاني للفندق، الذي نقله بسرعة على عربة يجرها جواد واحد، عبر الطريق البيضاء الملتوية بين منعرجات كابري، والأسوار الحجرية وكروم العنب، نازلة أوطأ فأوطأ حتى ساحل البحر. أما الحوذي، وهو رجل متعب أحمر العينين، يرتدي معطفاً ذا كمين قصيرين، وجزمة مهترئة، فقد كان شبه سكران - ظل الليل بأكمله يلعب النرد في الحانة —وكان طوال الوقت يسوط حصانه القوي، المزركش على الطريقة الصقلية، الذي كان يرن بمختلف الأجراس المعلقة على لجام محلى بطرز صوفية ملونة، وعلى الأطراف المدببة للسرج النحاسي العالي ذي الريش الغليظ المهتز من العدو، المتدلي من لبدته المقصوصة.

كان الحوذي صامتاً، مسحوقاً بضلاله وآثامه، وبكونه قد خسر في الليلة الماضية، آخر قرش لديه. لكن الصباح كان منعشاً، وفي هذا الهواء، قرب البحر، تحت السماء الصباحية، سرعان ما تطير السكرة ويعود خلو البال إلى روح الإنسان. كان الحوذي يعزي نفسه بهذا، وبذلك المال الذي أتاه فجأة من سيد ما من سان فرانسيسكو، هو الآن يهز برأسه الميتة في الصندوق الراقد خلفه. كان المركب، القابع بعيداً في الأسفل كالجندب، في الزرقة الساطعة العذبة التي يسكبها خليج نابولي بكثافة

وامتلاء، قد أرسل صفارته الأخيرة، فرددت الجزيرة صداها بحيوية. كانت كل انحناءة وكل قمة وكل حجر مرئية بوضوح من جميع الأمكنة، تماماً وكأنه لا وجود للهواء. لحق الوكيل الثاني بالقرب من المحطة بالوكيل الأكبر الذي كان منطلقاً في السيارة بالزوجة والابنة الشاحبتين، ذابلتي العينين من البكاء وأرق الليلة، وبعد عشر دقائق ضج المركب من جديد في الماء، ومن جديد بدأ عدوه إلى سيرانتود كاستيلامار، آخذاً من كابري إلى الأبد تلك الأسرة القادمة من سان فرانسيسكو.. ومن جديد حل على الجزيرة الأمن والسلام.

كان يقطن هذه الجزيرة، منذ ألفي عام، إنسان متسفل في إرضاء شهوته إلى درجة تفوق الوصف، وقد فرض لسبب ما، سلطته على ملايين الناس، وكان يحس بالارتباك من عبثية هذه السلطة، وبالرعب من فكرة أن أحدا ما سيقوم باغتياله، فأخذ يمارس على هؤلاء الناس قسوة لا حد لها، وقد اندمغ في ذاكرة البشرية إلى الأبد. إن أولئك الذين يسيطرون الآن على العالم، بالقسوة نفسها والعبثية نفسها، يتقاطرون من مختلف بقاع العالم لمشاهدة بقايا ذلك البيت الحجري، حيث كان يعيش على منحدرات الجزيرة الحادة. في ذلك الصباح الرائع كان جميع

القادمين إلى كابري لهذا الغرض ما يزالـون نـائمين في الفنـادق، رغـم أن مـداخلها قـد امـتلأت بـالحمير الـصغيرة القويـة، ذات السروج الحمراء التـي كـان ينبغـي للأمريكـان والألمـان رجـالاً ونـساء، كبـاراً وصـغاراً، بعـد الاسـتيقاظ وتنـاول الطعـام أن يعتلوها كي تركض خلفهم مجدداً، عبر الطرق الصخرية الجبليـة وحتى قمة مونت تيبيريو، شحاذات كابري العجـائز، لاكـزات الحمير بعصيهن التي يحملنها بأيديهن المعروقة. نام السياح بعمق بعد أن طمأنهم إبعاد السيد الميت إلى نابولي. كان ينوي الـذهاب معهم، ولكنه، بدلاً من ذلـك، أرعـبهم بـذكرى المـوت. كانـت الجزيرة هادئة والمحـلات لم تفـتح أبوابهـا بعـد، ولم يكـن يعمـل سوى السوق الواقعة على ساحة صغيرة، حيث كـان يجـري بيـع السمك والخضار، ولم يكن فيها سوى بشر بسطاء، وقـف بيـنهم كما الحال دائماً، وبلا هـدف محـدد، لوريتتـسو، البحـار العجـوز الوسيم الفاسق خالي البال، المعروف في كل إيطاليا. إذ عمل غير مرة موديلاً لعديد من الرسامين. لقد جلب إلى السوق سرطانين بحريين كان قد اصطادهما ليلاً، وبـاعهما بـثمن بخـس. وهاهمـا الآن يخشخشان في صدرية طباخ ذلك الفندق الذي نزلـت فيـه الأسرة مـن سـان فرانسيـسكو. وباسـتطاعة لوريتتـسو الآن أن

يقف بهدوء، وحتى المساء، وقفته القيصرية، نـاظراً فـيما حولـه، متبختراً بأسماله وغليونـه الفخـاري وطاقيتـه الـصوفية الحمـراء المائلة على إحدى أذنيه. كان ثمـة إثنـان مـن سـكان الجبـال مـن اناكابري عبر جروف مونـت سـوليارو، عـلى الطريـق الفينيقيـة المحفورة في الصخور.

كان لدى أحدهما، تحت المعطف الجلدي، مزمـار قـربي، هـو فروة معزاة كبيرة ذات زمارين، أما الآخر فكان يحمل ما يشبه ناياً خشبياً. كانا يسيران والبلاد بأكملها فرحة، رائعة، مشمسة، تمتد تحت أقدامهما بنتوءاتها الصخرية التي ترقد الجزيـرة كلهـا تقريبـاً عنـد أقـدامها، وبتلـك الزرقـة الأسـطورية التـي تـسبح فيهـا، والأبخرة الصباحية اللماعة التي تعلو البحر مـن جهـة الـشرق، تحت الشمس الباهرة، التي تشع بوهجها طالعـة في قبـة الـسماء، وبقاع إيطاليا الضبابية اللازوردية التي قلقلها الصباح، وجبالهـا القريبة والبعيدة التي لا يمكن للكلمة البشرية أن تـصور جمالهـا. وفي منتصف الطريق خففا الخطو، ففوق الدرب، في مغارة مونت ساليارو الصخرية، كانـت أم الـرب تقـف، مـضاءة بالـشمس، مغمورة ببريقها ودفئها، بيضاء كالثلج، وإكليل ملكـي، مـذهب صديء بفعل الطقس، يعلو رأسها، وديعة لطيفـة، وقـد رفعـت

عينيها إلى السماء، إلى المثوى الخالد السعيد لابنها الممجد ثلاثاً، فحسرا رأسيهما، وتدفقت منهما مدائح ساذجة، طيبة، فرحة، للشمس والصباح، ولها، هي الطاهرة المدافعة عن جميع المعذبين في هذا العالم الشرير الرائع، ولذلك المولود من رحمها، في مغارة، في مأوى رعوي فقير ببيت لحم من أرض الناصرة البعيدة.

عاد جسد الميت إلى موطنه، إلى قبر على أحد شطآن العالم الجديد، بعد أن عانى الكثير من الإذلال، الكثير من اللامبالاة البشرية. بعد أسبوع من التطواف بين مرفأ وآخر انتهى أخيراً إلى ظهر تلك السفينة الشهيرة نفسها، التي حملته منذ فترة وجيزة باحترام إلى العالم القديم. لكنه هذه المرة أخفي عن أعين الأحياء وأنزل عميقاً بتابوت مغطى بالقطران إلى العنبر الأسود. ومن جديد، من جديد انطلقت السفينة في رحلتها البحرية الطويلة، مرت ليلاً بالقرب من جزيرة كابري، وكانت أضواءها حزينة، تختفي ببطء في البحر المعتم لمن يراقبها من الجزيرة، ولكن هناك، في السفينة، في قاعاتها البراقة المضاءة بالثريات كان ثمة حفلة صاخبة تقام، كالعادة في تلك الليلة.

واستمرت الحفلة في الليلة التالية والثالثة، وسط العاصفة المسعورة المندفعة فوق جبال المحيط التي كانت تدوي مثل

قداس حزين، متهادية بخطى جنائزية والرغوة الفضية تكللها. كاد الثلج أن يحجب أعين الباخرة النارية عن الشيطان الذي كان يراقبها من فوق صخور جبل طارق، من البوابة الحجرية الفاصلة بين عالمين، متابعاً المركب الذاهب في الليل والعاصفة. كان الشيطان هائلاً كجبل، ولكن السفينة أيضاً كانت هائلة، متعددة الطوابق والمداخن، مصنوعة بصلف الإنسان الجديد ذي القلب القديم. كانت العاصفة تلطم أجهزة السفينة ومداخنها ذات الحناجر الغليظة المبيضة من الثلج، ولكن الباخرة ظلت صلبة، رابطة الجأش، مهيبة ومرعبة. وعلى سطحها العلوي كانت حجرة القبطان الرهيب الشبيه بإله وثني، تقبع وحيدة وسط الزوابع الثلجية، مضاءة بقنديل خاب، وكان القبطان يرقد ممتطياً السفينة بأكملها، مستغرقاً في نوم حذر قلق. كان يسمع ولولة الريح الثقيلة، وعويل الصفارة الغاضب، المخنوق بالعاصفة، ولكنه كان يطمئن نفسه بمجاورته لذلك الشيء الذي لم يكن، في نهاية الأمر مفهوماً لديه والذي كان قابعاً خلف الجدران: تلك الحجرة المصفحة، الممتلئة بهدير خفي وبصرير وطقطقة الأضواء الزرقاء الجافة، التي كانت تومض وتتقطع حول عامل البرق ذي الوجه المتقع والطوق المعدني على

الرأس. وفي الأسفل، في الجزء الفائض من «أطلنطيدة» كان الفولاذ يلمع شاحباً، وكانت المراجل الضخمة، الهائلة، وغيرها من الآلات، تنفث البخار وتغلي بالماء والزيت. كان ثمة قوى مرعبة بتركيزها تفور في ذلك المطبخ الملتهب بأفران الجحيم السفلية، حيث تطبخ حركة السفينة، وتنتقل إلى كل عوارضها وإلى القبو الطويل اللامتناهي، والسرداب الدائري المضاء بكهرباء شحيحة حيث تدور، ببطء وانتظام يسحق الروح البشرية، مسننات عملاقة، مثل غيلان حية، في مقصوراتها الحزينة، الممتدة في هذا السرداب الشبيه بفوهة بركان. أما صدر «أطلنطيدة» الحافل بالمطاعم وقاعات الاحتفال، فكان يسكب الضوء والبهجة، ضاجاً بأحاديث الحشد المتأنق، معطراً بأريج الأزهار الطازجة، مفعماً بأغاني الأوركسترا، ومرة أخرى، وبوجهين معذبين، رفرف العاشقان المأجوران الرهيفان الليِنان وسط بريق الأضواء والحرير والمجوهرات، وأعناق النساء العارية، رفرفا وأحياناً كانا يتصادمان بتشنج. كانت الفتاة متواضعة إلى درجة الخطيئة، ذات رموش مسبلة وتسريحة بريئة، أما الفتى فكان فارع القامة، ذا شعر أسود كأنه ألصق على رأسه إلصاقاً، ممتقع الوجه من البودرة، يرتدي حذاء جميلاً ملمعاً،

وفراكاً ضيقاً ذي شقين طويلين. كان هذا الفتـى الوسـيم شـبيهاً بعلقة هائلة. لم يكن أحد يعلم أن هذين العاشقين قـد سئما منـذ زمن بعيد ذلك الألم المصطنع. وتلـك الغبطـة المعذبـة عـلى وقـع الموسيقا الحزينة الوقحة، ولم يكن أحد يدري بمن يقبـع عميقـاً، تحته، في قاع العنبر المعتم، قرب الجوف القائظ المكفهـر للـسفينة التي كانت تعبر الظلمة والمحيط والعاصفة.

تشرين الأول ١٩١٥

العشب النحيل

يا عشب يا نحيل.. اخرج من الحقول

«مثل شعبي»

انتهى الصيام وحل عيد بطرس فأفطر أفيركي واضطجع.

اغتسل الأجراء الشبان بالصابون ومشطوا شعورهم، وارتدوا جزماتهم وقمصانهم الكتانية الجديدة المطرزة، أما أفيركي، الذي كان يحس بالوهن واللامبالاة، فلم يذهب قبل العيد إلى البيت ولم يغير قميصه، كما لم يكن عنده من ثياب أخرى سوى رداء واحد للأيام العادية والأعياد. أكل العمال الشبان حتى التخمة وكانوا طوال الغداء يقهقهون، مطلقين من الألفاظ ما يجعل الطاهية تستدير بسخط مفتعل، بل كانت أحياناً تبتعد عن المائدة ملقية ملعقتها المبتلة.

كان أفيركي يأكل بصمت.

لقد بلغ السن التي يبدأ فيها الرجال الجيدون المسالمون الـذين كدحوا في حياتهم كثيراً – هو أيضاً كدح كثيراً، إذ اشـتغل أجـيراً فحسب ثلاثين عاماً – يـسيئون الـسمع، ويقلـون مـن الكـلام، ويوافقون على كل ما يقال لهم، ويفكرون بأشياء أخـرى خاصـة بهم. لقد بلغ العمر الذي لا تستطيع تحديـده فـوراً. كـان طويـل القامة، سيء التكوين، فهو نحيل للغاية، طويل اليـدين، ضـخم العظام، ولكن كتفيه ضيقان، مائلان ورخوان، ولكن هذا القبح الريفي، عندما يجتمع والخف والمعطف القصير المصنوع من فـرو الضأن، الذي لا يغادر كتفيه، كان يؤلـف ويـا للغرابـة، مظهـراً حـسناً: رأس صـغيرة صـلعاء فـوق الجبـين، ذات شـعر طويـل خفيـف في الهامـة، وجـه مـضنى ذو أنـف جـاف دقيـق، عينـان زرقاوان مائعتان، ولحية ضيقة شائبة لا تخفي فكيه اليابسين.

كان كل ما يـضحك العـمال عـلى المائـدة يبـدو لـه عبثـاً غـير مضحك. ولكن علائم وجهه لم تكن تظهر أي ضيق. كان يأكـل بتأن. واضعاً الملعقة بعد كل لقمة، فقد تعـود منـذ الطفولـة، أن يتناول طعامه وكأنـه يـصلي، وكانـت المائـدة بالنـسبة لـه، طيلـة حياته، إكليلاً ليوم من العمل، وسط المخاوف الدائمة من الغـد، رغم أنه ظل العمر كله يردد بهدوء:

الرب أعطانا النهار والرب سيمنحنا لقمة الخبز.

غامت أفكاره، واحمر نتوء وجنتيه العظميتين المشدودتين بجلد رمادي رقيق. عافت نفسه الطعام، ولكنه ظل يأكل بإصرار: لأن هذا واجب في العيد، ولأن الأكل، كما يعتقد، كان يساعده، ولأنه من المؤسف ألا يأكل: فها هو قد مرض، وعليه أن يبرح المكان وربما كان بيته لا يفتقد لذيذ الطعام فحسب، وإنما الخبز أيضاً.

قدم على صينية خشبية لحم ضأن مدهن ومملح بشدة. تذكر أفيركي عندما خدم في المدينة شتاء. ثم تناول بحذر بعد لحظة تفكير، قطعة من اللحم بأصابعه الدقيقة، وأطلق ضحكة صغيرة شاحبة وهو يقول باستحياء دون أن ينظر إلى أحد:

أحب الخردل ولكن كيف أحصل عليه؟

توعكت معدته من اللحم ولكنه ظل جالساً حتى انتهى الجميع من الطعام. وعندما بدأ العمال ينهضون متجرعين آخر قطرة من الحليب في الإناء الضخم، متجشئين برضا، وراحوا يدخنون خالطين رائحة التبغ بعبق الطعام والخبز الطازج، ارتدى أفيركي قبعته الشتائية الكبيرة بحذر، ففي قعرها القنبي كان ثمة دائماً إبرة وخيطان ملفوفة، وخرج إلى العتبة ووقف

بين الكلاب الجائعة التي كانت تنظر إلى عينيه بشره وكأنها تعرف تماماً أنه يحس بالغثيان. اكفهر الطقس وأعتم، كما عند الغروب، وبدأ مطر خفيف يتأتئ على جريدة ملقاة عند مصطبة بيت السيد، واعتلت الديكة الهندية السور المتداعي خافضة ذيولها المبتلة، أما الصيصان التي كانت تنقرها بانزعاج فقد زحفت مختبئة تحت أجنحتها.. كان أفيركي يثمن الطعام اللذيذ. هاقد واتاه هم الموت وهو ما يزال يلح بإصرار، عندما جر نفسه إلى ما خلف الكوخ، على عدم إضاعته.

عاد ممتقعاً بقدمين ترتجفان، وألقى بجسده فوق فرن الطاهية، فسألته تلك دون اكتراث:

- هل أنت مريض؟

- خدمت ثلاثين عاماً – أجابها أفيركي باللهجة نفسها، زاحفاً على السطح الخشبي للفرن، واضعاً خفيه في تجويف صغير في جدار الفرن، ثم أردف بمرح، ناهضاً في الفضاء الضيق القائم بين التنور والسقف:

- خدمت ثلاثين عاماً بوجه صاف، والآن حلت النهاية، ضعفت... لم أعد أقوى على نش ذبابة. اهترأت، صرت أحس بالاختناق – قال هذا بنبرة تأكيد، بل وبشيء من الرضا، ورقد.

ما أن اضطجع، معدلاً وضع رأسه في القبعة على سلة محطمة، حتى غفا منصتاً إلى أنفاسه العميقة الرتيبة المتقطعة، التي كان يحس بلفحها يلدغ شفتيه. لقد اقتنع نهائياً أن المرض احتل جسده كله، وأنه «ديك رهين» سيستعاد قريباً. كان يحاول منذ زمن بعيد التغلب على ضعفه. الكلاب المريضة تغادر الفناء، باحثة في التخوم والغابات عن عشبة دقيقة، لا يعرفها أحد سواها، وتأكلها. إنها تبحث خفية عن نجدة ما. أفيركي أيضاً يبحث عن هذه النجدة، إذ كان يبتعد عن بيت سيده ويشتري لنفسه سراً، فودكا وصودا... أما الآن فلم يعد قادراً على تجاوز ضعفه، ولكن ينبغي إيجاد مخرج: هل يرحل من هنا أم لا؟ إذا كنت ستموت قريباً فليس ثمة مشكلة طبعاً.. ولكن إذا طال مرضك ولم تمت؟

كان العمال يدخنون مقهقهين. وكان يسمعهم ويفكر ويرى أحلاماً في الوقت نفسه. كانت أحلامه منسوجة من ذكرياته الحزينة المملة.. هاهو خارج من الكوخ – عليه أن يذهب إلى البيدر لإحضار الخرطوم فيدخل الفناء قادم غريب ويتوقف عندما يرى الكلاب تنهض. رأسه مغطى بشال نسائي، في يده اليسرى سلة وفي اليمنى عصا طويلة، يحتذي خفين ليفيين

مهترئين. «إذا الـرب سـاعدني سـأذهب إلى كييـف وزادونـسك واتبيانا – فكر أفيركي في نومه – هذا هو الفعل الحقيقي، النقـي، اللطيف، وإلا فلن أعرف لماذا عشت في هذه الدنيا».

قهقه العمال بصوت واحد، مغرقين الكوخ بالدخان، فـصحا أفيركي. كان الباب يقرع، ودخل أحدهم.

قالت الطاهية وهي تمسح الطاولة ودون أن تنظر إلى القادم:

- مرة أخرى تأتيني بعينيك المـائعتين، مـن جديـد أتيـت أيهـا الجد، ألم يعد لديك حياء أبداً؟ ثم سألته وهي تلتفت:

- لماذا جئت؟ ألم تضجرني بعد بما فيه الكفاية؟

ولكن الجد – وهو حارس على بـستان اسـتأجره الإقطـاعي، كان يسمي نفسه «الشيخ الرقـاص» عـلى سـبيل اللهـو، مخمـور دائماً، رث الثياب، كان لا يفتأ يعذب أفيركي بفوضويته وثرثرته وبكل سلوكه المنفلت الذي لا ينسجم أبـداً وحيـاة الفـلاح – لم يعر الطباخة أي اهتمام.

- فكروا معي يا شباب: أمـن الحكمـة هـذا – قـال متطوحـاً بيأس مصطنع، قالباً يديه أمام العمال – أقبـع وحـدي في بـستان كهذا. لن أرضى بأقل من ست روبلات. الآن عندما يأتي سأقول له في وجهه أنا لست عبد أبيك، كفى! هاهـم الـصبيان قـد بـدأوا

يتسللون إلى البراعم، وقد هزوا شجرتي تفاح، فما ذنبي أنا؟ قال لي حافظ على الكمثرى أكثر من أي شيء آخر ولكن ماذا أفعل وحدي؟ وشجرة الكرز التي عند السور مرة أخرى كسروها... فليأخذهم الشيطان، إنني إنسان مريض.

فقالت الطباخة:

- مريض وتعصر كل شيء عصراً.

- كوني لطيفة واسكتي – قال الشيخ وهو يجلس على أرض الحجرة الخشبية – عجوزي بعمر أمك لم أرها منذ نصف عام، بل أحس أنني العمر كله لم أرها... لا أدري لماذا تزوجت...

«حاله مثل حالي» فكر أفيركي مغمضاً عينيه، وقد فارقة إحساس القرف الذي كان يكنه لهذا الشيخ.

- مع أنها أقرب الناس إلي – واصل ذاك بحرقة صادقة – دائماً أقول للشباب ماذا بمقدوري أن أفعل؟ ها أنذا هنا وفي الخيمة جلباب للسيد ثمنه سبع روبلات وماذا أفعل؟ سيسرقونه بكل راحة بال. السادة أسمح لهم بقطف الكرز، فهم لا يأكلون سوى حبة أو حبتين أما أخوتنا الفلاحون... أحق ما أقوله أم لا؟ صرخ وقد انتعش مجدداً – ولك أنت أيضاً يا مختار اسمح دائماً، فأنت الأول هنا ولكن أتعرف بم أزعلتني: ضننت علي ببضعة

ألواح من الخشب للسرير، شكراً لابن سيدنا فهو يساعدني باستمرار، رقصت له البارحة قليلاً، فأعطاني نصف زجاجة فودكا...

بدأ أفيركي يذهل من جديد عما حوله... سار في الحقل مساء خلف عربة محملة، هطل رذاذ خفيف، وكان ثمة بوابة مفتوحة على سعتها في فناء حظيرة لأحد الفلاحين الأغنياء. وكان ذكر الأوز يتسكع في الفناء ويصيت باحثاً عن أنثاه...«الغبي يعيش جيداً في كل مكان» صرخ الشيخ بحرقة وألم في الصوت من مكان ما في الأسفل، فهز أفيركي قبعته موافقاً ثم استغرق في أفكاره «الغني كثور بقرنين لا يدخل من الأبواب الضيقة» وأفاق عندما أحس أنه يهذي... الرب لا يحب الأفكار الرفيعة.. كم هو مثير غناء هذا الشيخ.. ولكنه قابع وسط الدخان والكلام الزائد وأناس غرباء وعلى فرن غريب. آه أية كآبة وضيق. الحيوان يركض كي يموت في حجره الخاص...كلا يكفي... آن أوان العودة إلى البيت.

-٣-

صحا فوجد نفسه في عتمة المساء. كان العمال والطباخة قد غادروا الكوخ. ولم يكن هناك سوى أنوتا الحمقاء جالسة على

كرسي قرب النافذة. كانت بدينـة، قـصيرة الـشعر، لا عمـل لهـا سوى الطواف بالـسادة والفلاحـين. كانـت تنظـر عـبر النافـذة ورأسها من الخلف أشبه بجرة مقلوبة، وكانـت تبكـي إذ أن ابـن الطباخة لم يدعها تنم بقفزه المتواصل على مقعدها.

- هناك الإوز أنهكني - قالت باكيـة، متـشكية إلى ذاتهـا ظنـاً منها بأن أفيركي نائم - رقدت في البستان فهطل المطر ونقر الإوز رأسي، وهنا هـذا العفريـت... وهكـذا يـا آنـا ماتفيفنـا.. هكـذا أعيش يا أماه... خبز الآخرين ليس حلواً. كم كنـت غنيـة وكـم ذاع صيتي كفتاة ذكية.

كانت تتذكر ذلك العصر الذهبي عندما كـان بحوزتهـا سـت وثلاثون روبلاً بالتمام والكمال. لقد جمعتها وصانتها طويلاً كضوء عينيها. ولكن ذات مرة طلب الفلاح الذي كانت تقطن عنده هذه النقود، مقسماً بالكنيسة، أنه سيعيدها، لم يعـدها طبعـاً، بـل قـال بصريح العبارة: فلتعلمي بأنني لن أردها.. وانقلعي من هنا...

فتح أفيركي عينيه. أحس نفسه الآن أفضل من البارحـة، إذ لم تعد رأسه معتكرة. أنصت إلى الحمقاء وضحك. آه يا إلهي عـلام يقلق هؤلاء الناس ومم يتعذبون. الشيخ يـشكو العـمال بحـرارة وهذه تبكي لأن طفلاً أزعجها...

ثم قال ضاحكاً:

- لِمَ لمْ تصفعيه؟

- آه.. استيقظت؟ سألت الحمقاء وانخرطت فجأة في النحيب بصوت مزعج:

- وكيف أقدر عليه؟

ناداها أفيركي، عندما بدأت تهدأ، بصوت خفيض ملاطفاً، فأجابته ببلادة:

- ماذا تريد؟

- اذهبي يا عزيزتي إلى عجوزي وقولي لها بأن تأتي إلي. أخشى أن ليس لديها ما تأكله، وماذا نفعل؟ ستتدبر أمرنا بشكل من الأشكال. أعتقد أن خدمتي قد انتهت. البيت أفضل وأليق..

أجابت الحمقاء بحرقة:

- ولكن سيحل مكانك أناس غرباء، سأذهب لا تخف... ألن تزعل مما سأقوله لك؟

- كلا.

- ولكن ربما تفزع أيضاً.

- ممَ؟

- لا شيء...لقد أردت لك الخير، جئت البارحة، وسمعتهم يقولون إنك مريض. فذهبت إلى بانتوشا كي أنجم لك.

- وماذا تبين؟

- تبين أن أمورك سيئة يا عزيزي..فقد أخذ حفنة من التراب ووضعها في مقلاة، ثم رقد تحت الأيقونة وبدأ يرتل...ثم راح يتناول التراب من المقلاة وينثره على وجهه... يتناول وينثر...

- وهل بحت لك بكنيتي؟

- وهنا المصيبة...لقد بحت بها.

فصمت أفيركي ثم قال:

- مع ذلك اذهبي إلى العجوز.

- لا تجزع بسبب هذا. سأذهب.

أخرجت الحمقاء كعكة من كيسها الرث وراحت تقضمها ملتقطة الحبيبات المتساقطة على ركبتيها.

- أتريد كعكاً؟

- لا يا عزيزتي...شكراً... لا أحس برغبة.

ثم تنهد وانقلب إلى جنبه. فتحت الحمقاء النافذة فهبت منها طزاجة المساء، ولمع الهلال الدقيق كالشعرة في قبة السماء الشفافة، فوق السهل الأسود المنحدر خلف النهر. وغنت الفتيات، بعيداً في القرية، بصوت جميل ممطوط أغنية مداثحية قديمة: «في المساء، تحت القمر الساطع...» متى ولمن حدث

هذا؟ غبش يغطي المرج، ومياه النهر الدافقة موردة تحت ضوء الفجر، مهتزة برقرقات خفيفة، تتحلق دوائر، وعربة ماء على الضفة. ثوب نسائي بالكاد يرى في الغبش، وقدمان حافيتان، ويدان خرقاوان تسحبان الدلو الممتلئ بصعوبة... مر بالقرب أثناء الرعي الليلي، فتى صغير كان يتنشق بلذة عبق المرج الندي.

- ألم تعرفيني؟ سأل مفتعلاً اللامبالاة.

- مهم جداً أن أعرفك. أجاب صوت ناعم خارج من الصدر رنان مرتبك، مفعم، رغم إرادة صاحبته، بالحنان والفرح لهذا اللقاء الصدفي.

- هل أساعدك؟

- مهم جداً أن تساعدني.

كبح رغبته، معتقداً أنه ليس من اللائق جرها إلى حديث لا تريده، وصعد الهضبة بصمت، إلى الحقل المعتم المخضل بالندى محدقاً إلى النجوم، مصغياً إلى هديل السمان، وهو يفكر بشكل عملي:

- جميلة ولكنها فقيرة... هاهي تنقل الماء بنفسها.

حدث هذا منذ زمن طويل، في بداية العمر... أمن المعقول أنها هي نفسها تلك التي ستأتي غداً كي تأخذه، إلى البيت ليموت؟ إنها هي... هي... جاءته في اليوم التالي، وجمعت يداها العجفاوان

بحنان واهتمام كل «ثروته»: الجلباب والجورب الثخين، والحـزام بألوانه الحائلة، وقادته إلى البيت ممتقعاً يبتسم بوهن.

- لنذهب، لنذهب يا عزيزي لقد اشـتغلت بـها فيـه الكفايـة. انتظرتك طول العمر. انظر كيف أصبحت. لقد اهترأت ولم تعـد تصلح لشيء. ومع ذلك يظل السوار العقيقي جميلاً وإن اهترأ.

كان في الأيام الأولى فرحاً، فها هو في بيته وقد أنهى خدمتـه. لم يرقد في الكوخ، فقد كان يحن منذ زمن طويل إلى الرقاد في هـواء الحقول النقي، الهادئ، في العراء الطلق. رقد في بيدره، في مجـرش عتيق، مزروع بطيور التم، رقد في عربـة بـلا عجـلات، وكانـت تهب عليه من البساتين والبيادر، عبر البوابة المفتوحة ليلاً نهـاراً، رياح رطبة تحمل إليه قطرات كبيرة من المطـر. نـاقش والعجـوز كل القضايا، وتحسرا على ابنتهما التي اضطرا، تحت وطأة الفاقـة، لتزويجها لرجل من قرية بعيدة، ميسور ولكنـه مـصاب بمـرض لعين. قررا أن يرسلا لها خبراً كي تحضر لرؤية أبيها.

ولكن الابنـة لم تحـضر، للدقـة منعتهـا الأحـوال الجويـة مـن المجيء، كان طقساً مضنياً. في الصباح أشرقـت الـشمس وعـلا البخار الحقول المدخنة، والطرق الموحلة، وأكوام القمح المـشبعة بالماء، الراقدة على الأرض، وبشّر أفيركي، عندما غادر عربته إلى

الكوخ، العجوز بطقس حسن، ولكن عند الغداء تسللت سحب سوداء – كان سوداها يبدو أكثر قتامة تحت لمع الشمس – وغيرت الغيوم ألوانها وملامحها العجيبة، وهبت ريح باردة، وركض المطر عبر الحقول مائلاً، موشى بألوان قوس قزح.

- سوف تحدث مصائب عظيمة – قالت الجارة، وهي خادمة سابقة لدى أحد الإقطاعيين – فسابقاً لم تكن السحب هكذا، كانت تشبه الأرانب والشجر كلها، أما الآن فقد حل زمن الغيوم الفظة...

ولكن أفيركي الذي كان جالساً قرب الكوخ بجزمته الوبرية ومعطفه الفرائي القصير، رسم ابتسامة واهنة فحسب: ما شأنه الآن والمصائب التي ستأتي! أتى الجيران، الذين كانوا يحرثون أرضهم المراحة، إلى الغداء مبتلين، تعبين، يشتكون من تعفن قمصانهم على أجسادهم، جاهدين في إقناع أنفسهم بأن الرب يحسن الطقس، ولكن بعد الغداء اعتكرت السماء بالسحب، وهبت عاصفة هوجاء حاملة معها مطراً غزيراً وبرداً. وعند المساء هدأ الطقس وأطلت الشمس، ولكن ثمة جبال موردة تكتلت في المشرق، وتغطى أسفل القبة السماوية في المغرب، بتموجات فضية غريبة أشبه بريش البط.

أما الليالي فكانت ضبابية، والنجوم مغطاة بزغب أخضر، مثل حباحب كبيرة، محدقة إلى أفيركي عبر البوابة. كان النوم يجافيه وضجر الليل يضنيه. ولكنه كان، عندما يتذكر انعتاقه الحالي من كل الهموم والأشجان يرسم شارة الصليب على السماء ممتناً.

كان ينحف ويضعف ليس يوماً بعد يوم وإنما ساعة بعد ساعة. ولكنه كان عندما يحس أن الموت يتملكه بلا ألم ودون أن يهزأ به، يقول للعجوز:

- لا تجزعي، سأموت مرتاحاً.

ولكن العجوز كانت تغمغم بأمل مهموس، إذ كانت تأبى تصديق كلماته. كانت لا مبالاته هي أكثر ما يخيفها، ولكن حتى هذه اللامبالاة كانت تحاول نسبها إلى ضعفه، إلى أن تجاوزت كل حد. في نهاية تموز، عندما بدأ الحصاد في الحقول، وتوقف المطر، ضاعت عجلتها التي حرمت نفسها من أشياء كثيرة كي تشتريها، عجلتها التي كانت تتبعها كالكلب. ركضت العجوز إلى كل الحقول والقرى المجاورة بحثاً عنها، وكانت تسأل، حزينة، قلقة، كل عابر عما إذا كان قد رأى عجلة حمراء. ولم تكن لتستسلم، وظلت تستذكر أماكن جديدة يمكن البحث فيها.

وفجأة، ذات مساء قاتم، جرت الكلاب إلى القرية رأساً حمراء ذات قرنين صغيرين، فانتزعها الأهالي منها، وأتوا بها إلى العجوز التي كانت جالسة على مصطبة بيتها، فاضطربت وبكت كالطفل. وقفوا عند المصطبة طويلاً لا يدرون ما يفعلون أو يقولون. فقد تركت هذه الرأس الفظيعة ذات القرنين الصغيرين، المصطبغة بدم جاف، في نفوسهم جميعاً انطباعاً ثقيلاً، أفيركي وحده، وقد أتى على أصواتهم من الحرش إلى الكوخ، لوح بيده قائلاً بخفة:

- ماذا حدث! بحياتنا لم نملك شيئاً، والآن لم يعد هناك لزوم لشيء.

فنظروا إليه مندهشين، ثم راحوا يتكلمون جميعاً في آن واحد، مؤكدين بأنه ينبغي عدم التوقف عند هذا الحد. قال الراعي إن الكلاب نبشت الرأس في الغابة، وقرروا، رغم حلول الظلام، الذهاب إلى هناك دون إبطاء. ضم أحد الجيران الجياد إلى العربة بسرعة، وأجلس العجوز الباكية فيها، ثم قفز إلى جانبها واندفعت العربة تعدو وقرقعتها تملأ الدرب، ولحق به الأهالي على الجياد. كانت الحقول مظلمة، والغابة كانت مظلمة أيضاً وهادئة، تفوح منها رائحة الأوراق المتساقطة، ولكنها كانت، في

ناحية من نواحيها، منورة بضوء القمر الطالع الأحمر الخابي. وصلوا إلى كوخ الحارس في فسحة صغيرة قرب شجرة بلوط ذات هامة يابسة. كان يتعشى وعندما رأى الحشد انتابه الهلع. طلبوا منه قنديلاً ومضوا مع الراعي إلى ذلك المكان، حيث حفرت الكلاب، فوجدوا أحشاء مغطاة بالتراب. ارتفع اللغط وساقوا حارس الغابة إلى القرية، إلى أفيركي. لم يكن هذا نائماً وإنما جالساً في الكوخ المعتم. وعندما أضرمت النار وبدأ الكوخ يمتلئ بالناس، وأتى المختار بلحيته القشية، وراح الجميع يتهمون الحارس، مقاطعين أحدهم الآخر، انحاز أفيركي فجأة إلى صف المتهم الذي كان لا يفتأ يكرر دفاعاً عن نفسه:

- أنا أرفض أن أسرق. أبي لم يسرق وأنا كذلك. لو أنني كنت معدماً لسرقت، ولكن الرب أعطاني ولدي أرض هي ملكي.

ولقد صدقه أفيركي، اللامبالي بالشؤون الأرضية، تماماً، بل ورفع صوته مطالباً بإطلاق سراحه، وبألا يساق إلى السجن. فأذعن له الجيران المندهشون المذهولون، في نهاية الأمر، وأذعنت العجوز أيضاً له، لصوته ووجهه النعشي.

لم يعد لديها في شفائه، منذ تلك الليلة، أي أمل.

-٥-

وعدت الابنة وزوجها بالمجيء وجاءا في عيد التتويج، في اليوم الثاني لذكرى المخلص. وكان الصهر قد قرر أن يأخذ أفيركي إلى المستشفى لعرضه على الطبيب، فوافق، وانتعش لعدة أيام.

ولعدة أيام عادت إليه المشاعر البشرية المألوفة، اغتسل منذ الصباح الباكر، بمساعدة العجوز، ومشط شعره للقاء الضيوف.

وعند الغداء راح ينصت: أليسوا بآتين؟ تناهى إلى سمعه وقع خطى وهمهمات آتية من بعيد ثم ظهر الصهر، في إطار البوابة، ومن خلفه الابنة وطفلتها، تتبعهم العجوز. الصهر طويل القامة، ذو شعر ضارب إلى الاخضرار، ورموش بيضاء، حليق، أنيق الثياب: قبعة وجزمة جديدتان، جاكيت رمادي فوق قميص جديد أصفر، أما ابنته، التي كان دائماً يعتبرها حسناء، فقد أدهشته هذه المرة أيضاً بجمالها وتواضعها الممتزج بالكبرياء، ورموشها الطويلة المسبلة وفستانها الليلكي، وسمرة يديها الصغيرتين. كانت أنثى عذبة تقود طفلتها ذات الشعر الأشقر للغاية، والثوب الأخضر، التي كانت تنظر بفضول إلى الثقوب المالئة سقف المجرش وهي تمص كركراً خشبياً للخيطان.

دنا الضيفان من أفيركي وانحنيا له، وقبلاه برفق، ثم رفعا طفلتهما إلى خده، فأشاحت بوجهها عنه، رافضة أن تقبله. لاحظ أفيركي برقة أن شعرها أبيض مذهب، صلب وأملس كالعشب بعد الصيف. تحدث الضيفان بحيوية ودعة – كان الصهر يحاول التفكه باستمرار – ولكن من دون أن يرفعا بصريهما عن أفيركي. لم يكونا على ما يبدو يعرفان عما يتحدثان. أحس بهذا فابتسم مرتبكاً، بل وأظهر حيوية فائقة، ولكنه كان لا يني يفكر مقارناً ابنته بعجوزه: كلا، زوجتي كانت أكثر طيبة. الابنة أيضاً جميلة ومتواضعة كأمها في صباها، بل أهدأ، وأرصن. كان يعجبه جمالها ورموشها وبريق القطرات الزجاجية في ملقط شعرها، أما العجوز فكانت تثير حنانه بجلدها الرخو وحذائها الليفي وتعبها وإخلاصها. كان تضادهما يهزه، وأحس مجدداً للحظة أن الحياة حلوة. لم تكن العجوز تتصنع عندما دخلت ووقفت محدقة إليه بحزن وكأنها تقول: ها قد أتيت بهم، إنهم يريدون رؤيتك، لم تعد جميلاً يا عزيزي، ولكن ما العمل؟ وللحقيقة أصبح قبيحاً. كان شعره يقل ويدق، زاحفاً، متساقطاً على ياقة قميصه العريضة، وعلى ترقوته الناتئة من تحتها كاللجام، كما كان يتهدل على ناحيتي صدغيه الغائرين، أذنان كبيرتان شفافتان وغاضت عيناه عميقاً.

تناول الضيوف غدائهم في الكوخ. وأرسلت العجوز له طبقاً من الكفاس الأخضر وشحم الخنزير مع قطعة خبز. نهض قليلاً وتناول الطبق وانحنى فوقه، مقوساً ظهره المسنن بالفقرات، واختطف الملعقة بيده المرتجفة بعد أن رسم شارة الصليب، وبدأ يزدرد الطعام بسرعة، خائفاً من ألا تكفيه قواه للأكل. وفعلاً لم تكفه. إذ سرعان ما أحس بالإنهاك وضيق النفس فرقد على ظهره... وظل الطبق قابعاً قرب العربة، وعلت الرغوة الكفاس وغطت سطحه طبقة كثيفة من الشحم وسقط فيه ذباب كثير. كان أفيركي ينشه محدقاً إلى يده وأظافره المزرقة. كانت راحة كفه تدهشه، إذ بدت ضامرة، يابسة، لامعة وكأنها طليت بالشمع. وابتسم بهزء عندما فكر بالمستشفى.

-٦-

هطلت، قبيل المساء، زخة قصيرة من المطر، وركضت من الدرب زرافة فتيات ضاحكات، متغطين بأذيال فساتينهن، ووقفن عند البوابة دون أن يعرن أفيركي أي اهتمام، وانتظرن انقطاع المطر، الذي كان يرى بوضوح عبر إطار البوابة، على خلفية من غيم رمادي، ووقف هناك أيضاً شبان يتحدثون

مقهقهين وراح أحدهم يعزف على هارمونيكا مكسورة، متهدلة الصمامات. اقترب الصهر من البوابة والسكر يداعب رأسه، مد ركبته اليمنى إلى الأمام ووضع عليها هارومونيكاه الكبيرة وهي تهر بنعومة ورقة، وانخرط في العزف محدقاً بعينيه الناعستين إلى نقطة محددة. وفي مواجهته وقفت امرأة شاحبة، ذات فم ريان لطيف وعينين تبرقان كالفضة ورموش سوداء.. إنها زوجة جندي. وقفت حانية رأسها قليلاً، محدقة إليه بثبات. كانا يناديان أحدهما الآخر بالنظرات، وبكلمات أغنية «الألم» التي لا تنتهي، وظل الجمع طويلاً يراقب، تحت المطر الخفيف حوارهما الغرامي الصامت. أظلمت زوايا المجرش. أظلمت البوابة، وأطبق أفيركي جفنيه منصتاً. كان مزاجه رائقاً.

ظل الحشد متجمعاً قرب المجرش هكذا حتى وقت متأخر، ثم تفرق بالتدريج، وفي آخر الليل صفت السماء وحدقت نجمتان كبيرتان إلى المجرش «هكذا إذن، ابنتي لا تعجبه، تلزمه أخرى» صمتت الهارمونيكا، وانبعث خلف البوابة صوت رجولي راجف، مبحوح متوسل، وكانت المرأة تتمنع بصوت ممطوط ومقاومة تضعف شيئاً فشيئاً، وبعد ذلك حجب ظلان النجوم المتلالئة في إطار البوابة للحظة، ومضيا إلى اليسار، إلى بقايا القش...

«آه، بادرة سيئة، وابنتي تحبه طبعاً...» وانبثقت في روحه أغنية عاطفية ناعمة «ضجرت يا حبيبتي بدونك... فرشت الفراش بدونك، والمخدة غطاها الصقيع». غفا ولكن سرعان ما صحا على سعال قوي. أوصل الصهر زوجة الجندي وعاد بجرأة إلى المجرش وجلس على زحافة ثم خلع جزمته وألقى بها إلى الأرض بصخب. أشعل عود ثقاب، فأضاء الديك النائم على خشبة التقطيع. قال أفيركي عن الديك ضاحكاً، كي يظهر أنه لم يزعل وأنه لا يتدخل في شؤون الآخرين:

- اللعين، أي مسكن وجد لنفسه.

- لماذا لم تنم؟

- إنني لا أعرف النوم تقريباً.

فقال الصهر دون اكتراث، وهو يضطجع:

- ستموت إذن؟

أجاب أفيركي متفكهاً:

- يا عشب يا نحيل اخرج من الحقول. أحس النهاية.. أحس «به»، بالموت. ينتابني الضجر في الليل أكثر من أي وقت آخر. فأترقب سطوع شهاب أو طلوع نجمة من نجوم منتصف الليل ولكن ما من واحدة. ثم أردف بنبرة يائسة:

- بدأت أجراس قصبتي ترن...

غفا الصهر شاخراً باكتئاب. وظل أفيركي وحيداً مع حزنه وعزلته التي توجف القلب. كان يرغب بمزيد من الكلام، بقول شيء ما لطيف، رقيق، لصهره فناداه:

- هل نمت؟

- كلا، -أجاب الصهر منتفضاً من نومه – ماذا تريد؟ ثم غمغم بصرامة:

- كفاك زعيقاً، نم ودع غيرك ينم.

فسكت أفيركي، كان يريد القول: «آه.. كم هو الحب جميل في هذه الدنيا» كان راقداً يفكر، وحبس أنفاسه محاولاً أن يتخيل نفسه في القبر... شخر الصهر، كان يغط في سبات آخر الليل العميق. تراءت حمرة الشفق الخابية، المعتكرة، طويلاً، خلف البوابة، وراء الحقول المعتمة، وبدا له هلال الهزيع الأخير من الليل، وكأنه منعكس في مرآة مغبشة، ثم مر واطئاً واختفى. أظلمت الدنيا قبل الفجر، وصاح الديك مالئاً المجرش بصوته، ملأت إطار البوابة سماء فضية وأطل على الأحياء نهار جديد.

نهض الصهر متثائباً بقوة وانتعاش، وأيقظ أفيركي من غفوته الخفيفة. حل الصباح مرحاً. وبمرح ونضارة حدقت في البوابة

سماء زرقاء، برتقالية عند الأفق. ولمع الطل على العشب. احتذى الصهر جزمته ثم نفخ صدره وراح يخبط بها الأرض، قائلاً بصوت أجش حيي:

- ضيقها لي هذا الشيطان الأعرج. كان يقصد الإسكافي. فأجابه أفيركي:

- الحذاء الضيق والشغل في الخريف عذاب ما بعده عذاب.

- هذا وجوربي خفيف، لو ارتديت جورباً صوفياً فلن أفلح في إدخال قدمي فيها.

ألبست العجوز والابنة أفيركي ثيابه، ألبستاه قميصاً كتانياً، مر عليه وقت طويل دون كي، ولكنه نظيف وخفيف وبنطالاً رمادياً مخططاً – هو هدية من السيد الإقطاعي – وجزمة طويلة جلدية، وألبستاه معطفه الفرائي القصير وقبعته الشتائية الكبيرة، وقادتاه من تحت إبطه إلى العربة. كانت الطفلة تعدو في المجرش خلف الديك محاولة إمساكه من ذيله. فكان ينكمش ثم يهرب منها، وكان أفيركي يضحك. بدت السماء له بعدما خرج من المجرش، رحبة بلا حدود ومضيئة، فرحة، وهواء الحقول مسكراً. كانت الطريق قد جفت، وكان ذلك النهار من شهر آب بارداً إلى حد ما، ملتمعاً، مكتظاً بغيوم لها لون

الفولاذ. لم يعد يحس برغبة في التفكير بالمستشفى والشفاء، فهو مسرور هكذا.

-٧-

مر شهر آخر، وابتعدت الحياة عن أفيركي في هذا الشهر أكثر فأكثر. طبعاً لم تساعده الأقراص السوداء ذات المسحوق الأصفر الفواح، وإنما كانت تلسعه بنارها فحسب. ولكنه ظل مع ذلك يبتلعها طوال عشرين يوماً، وعندما ازدرد آخر قرص، وأخفى، لسبب غير مفهوم، الزجاجة المدورة تحت المخدة، تنفس الصعداء، وكأنه ألقى عن كاهله آخر عبء ثقيل. كان قد ودع الناس في مخيلته وكان الناس بدورهم قد بدأوا ينسونه وقلّت زياراتهم له تدريجياً، وعندما يعرجون عليه كانوا يتبادلون أحاديث مؤثرة تارة، مضحكة تارة أخرى، حزينة تارة ثالثة، ولكنها دائماً عديمة الأهمية. كان طوال الوقت يحس نفسه ضيفاً قدم إلى منطقة عاش فيها ذات يوم، وهاهم الناس يعيشون الآن فيها حياة أكثر سوءاً وإسقاماً من ذي قبل، عندما كان بينهم.

عاد أحد الجنود إلى القرية وزاره مرتين. كان في بورت أرتور وفي اليابان، عرف الحرب والأسر. ومع ذلك لم يقل عبارة

واحدة ذكية عن الحرب أو الأسر، وإنما تكلم كما يتكلم كل الذين خاضوا الحرب وزاروا البلدان الأجنبية، الحرب مرعبة وكفى، وفي البلدان الأجنبية كل شيء مخالف لطبيعة البشر: الأرض واسعة ولكن ليس من مكان تستطيع الذهاب إليه، الجبال تملأ دنياها، والبشر أشكال وألوان لا تحصى، ولكن لا مجال للحديث مع أحد منهم... روى الجندي الكثير عن النساء اليابانيات، ولكنه أدانهن هن أيضاً: «قصيرات القامة، منفرات».

زراته أنوتا، كان أفيركي يحس معها بالراحة. إذ تجلس طويلاً غير مستعجلة بالذهاب إلى أي مكان ولا تقول بافتعال: «سأذهب، لدي عمل...» كانت بسيطة، صادقة رغم أنها تزعجه بكلامها معه الآن كلام الند للند، مثل حمقاء مع أحمق، كما مع أخيها، أو مع إنسان زائد عن الحاجة.

وزاره الشيخ الرقاص، في معطفه الفرائي القصير، وقبعة قشية عتيقة أخذها من سيده، وجلب معه تفاحاً وراح، بإلحاح مفرط يدسه تحت مخدة أفيركي. وانطلق، بحيوية مفرطة أيضاً، يثرثر، مبتهجاً في أعماقه بسكره الدائم، وكان تارة يمتدح حياته وتارة لا يبيعها بقرش، ورائحة الخمر اللاذعة تتطاير من فمه مع الكلمات التي لا تتوقف.

ـــ هم... أحس نفسي في الضيعة وكأنني في النعيم، لقد سمنت هنا... أصبحت إنساناً. أرسلوني العام الفائت إلى كرم في الحقل.. شيء لا يحتمل حتى ولو أعطوك هناك قصراً.. أراحنا الرب، أما عندكم في الضيعة فالأمر مختلف. إذ ثمة دائماً عندما تخرج إلى الحقول، ما تتفرج عليه: الشبان وهم يقطعون القنب، أو امرأة تدعوها إلى لقاء.

لم يكن لدى الناس العمليين وقت لأفيركي: كانوا يذرون الحبوب الجديدة ويبذرونها مرة أخرى. وذات مرة خرق الهلع وناقوس الخطر هذه الحياة الوديعة، فقد دق الناقوس داعياً القرية المفزوعة إلى مكان الكارثة المباغتة، إلى كوم في بيدر بعيد، زغرد فوقه فجأة، في وضح النهار القائظ، لهب برتقالي سريع. وجف قلب أفيركي، إذ كان يخشى الحرائق دائماً، فنهض بسرعة، حسب استطاعته، وحدق طويلاً عبر البوابة إلى السماء الزرقاء الهادئة، حيث كانت ندف سوداء تتطاير بفزع، أنصت باهتمام إلى لغط وضجيج القرية، اللذين يحب الناس الراكضون إلى الحريق تضخيمها بشكل مقصود. وانتقلت إليه، حسب العادة القديمة، عدوى هذا الإحساس، ولكنه سرعان ما أدرك أنه قد فرح للحريق، وللعزاء بأنهم سيركضون نحوه ويخرجونه من

المجرش، ولكنه أدرك أيضاً أن الحريق بعيد وأنه لن يحـدث شيء من هذا، ومن جديد عادت إليه لامبالاته، ومن جديد اضطجع.

مرة زاره القندلفت بجبته المصنوعة من الخيش وجلـس معـه. راح في البداية يسخر منه ومن مرضه ثم قال:

- أجل... «من التراب خرجنا، وإلى التراب نعـود... وترجـع الروح إلى خالقها.. ايه يا أخي... لامفر من هذا». أجاب أفيركي بسرعة، وقد أعجبته كلمات القندلفت:

- حاشى الله كيف يمكن الفرار من هذا.

للحظة أحس بالانقباض من كلمات قندلفت الكنيسة ولكنـه كرر بإصرار:

- كلا... حاشى الله... لا يمكن تجنـب هـذا. أحيانـاً أتـشكى قائلاً: أنا ديك مرهون، كما يقال، أليس هـذا صـحيحاً، والـرب يطلب الرهينة...

ثم أضاف بلا مناسبة وقد اختلطت عليه الأفكار:

- كلا... بأسرع ما يمكن.. كم من الخطايا انتـشر في الأرض. القديسون يقولون أن أم الرب كانت، وهي عائدة من الـصلب، تبكي بحرارة... الأزهار كلها احترقت مـن دمعهـا ويبـست إلا التبغ.. ولهذا يحرقه الناس الآن ويدخنونه.

بعد عودته من المستشفى حاول مراراً أن يتـذكر حياتـه. كـان يحس بضرورة أن ينظم كل ما رآه وخبره في عمره. جهد في تحقيق هذا، وكانت جهوده كل مرة تذهب عبثاً. فذكرياته كانت تافهـة، فقيرة متشابهة،، تذكر سفاسف ليس لها معنـى، وكـان كـل شيء يتبدى له في لوحات مشوشة متقطعة. ما أن تبـدأ تتـذكر حياتـك بالترتيب، بادئاً من الطفولة حتى تتحد كلها في يـوم أو مـساء مـا واحد، لا يمت للطفولة بصلة على الأغلب، يوم بعيد، زائـد، لا تملك تجاهه سوى أن تنفض يدك منه. ولقـد نفـض أفيركـي مـن يده بأسى كل ما يعرفه وكل قدراته الذهنيـة. أي أعجوبـة هـذه، عشت وعشت ولا أذكر الآن شيئاً لا أدرك شيئاً. يقولون، مثلاً، أنه ولد في المكان الفلاني في السنة الفلانية، ولكن ماذا يعني هذا: ولد؟ أدرك أنه لا يفهم حتى معنى ولادته، بل ولم يعد لديـه ثقـة ملموسة بحدوثها. كانوا يرددون دائماً أن أباه فلان الفلاني وأمـه فلانة الفلانية، وهاهو الآن لا يصدق حتى هذا، لا يفهـم حتـى هذا. كان طيلة حياته يعتقد أن والديـه همـا أقـرب النـاس إليـه، ولكن عندما مات أبوه نسيه تماماً، مـثلما نـسي أمـه مـن بعـده. لم يكف عن التحسر عليهما فحسب، وإنما لم يعد يتصور وجـه أبيـه بوضوح. كانت لديه صلات حميمة مع كثير مـن البـشر، ولكنـه

نسيهم أيضاً، كما تنسى الأحلام، لقد رأيت في حياتك أحلاماً كثيرة ولكن حاول الآن أن تتذكرها.

لم يكن يذكر بوضوح سوى ذلك الفجر قرب النهر، ولقائه البعيد مع تلك الفتاة اللطيفة التي تنظر إليه الآن بعطف بارد وعينين شائختين، وسوى وجه ابنته.

-٨-

مر شهر ثالث واقترب موعد تأدية هذه الجزية الحلوة المريرة للرب. حل الخريف باكراً. كان أفيركي يهز برأسه، مضنى من البرد، وثيابه القديمة، وجلده المتقشر، وأظافره الجريحة الجافة، ويقول مشيراً إلى الموت: كم هو جامح، أناديه ولا يأتي.

كان يرى العالم كالسابق ضمن إطار البوابة فحسب، كان يرى جزءاً صغيراً من تلك اللوحة الهائلة. عبرت الأفق، خلف الصفصاف العاري، غيوم تزداد بياضاً وبرودة. يبست الأعشاب وتعفنت قبل أن تموت. خوى البيدر وتعرى. وبدأت الطاحونة في الحقل البائس تتراءى عبر أشجار الصفصاف. كان الثلج يعقب المطر أحياناً، والريح تصفر في ثقوب المجرش، بحقد صقيعي، وكان أفيركي يفكر ببلادة:

هاهو الخريف آت على مهرة بلقاء.

أما في الليالي الرطبة، الجليدية، السوداء، فكان إطار البوابة وحده يقف أمامه شبحاً غائماً، ثابتاً، يلقي إليه نظرات ثقيلة، تزرع فيه الرعب. كان يرفض الانتقال إلى الكوخ، فهو يعرف أنه سيختنق هناك في أول ليلة، ويموت معذباً.

ذات مرة رأى حلماً: الطقس بارد للغاية، وغيوم واطئة تحلق بعيداً، فوق خضرة الغابة، وحوافها الصفراء المحمرة. وكان يعبر الحقول بمحاذاة الدرب الموحلة، على مهرة بلقاء. كان هرماً، طويل الشعر والساقين، يغطي جسده الطويل اليابس معطف فرائي طويل. كان يضرب المهرة بقدمه فتغوص عميقاً في الوحل، مقتلعة بحوافرها كتلاً من الخضرة. أدركه وكيل الإقطاعي على جواده المسرج، وضربه بصمت وحقد فانزلق أفيركي على ظهر المهرة، مع القميص الذي كان يجلس عليه، بخفة وصمت، وركع على ركبتيه، خالعاً قبعته الثقيلة، عن رأسه الصلعاء، وراح يبكي طالباً الصفح، مردداً أنه أصم، هرم، ضعيف، وأنه ذاهب إلى ابنته... كز الوكيل على أسنانه وشرع يسوط كل بقعة من بدنه. صحا أفيركي من الألم والرعب، غارقاً في دموعه. وظل راقداً حتى مطلع الفجر، محدقاً إلى شبح البوابة

الرصاصي. وأحس بأنه قلبه المتعب يتجمد، يخفق بنبضة أخيرة سريعة. لم يدرك أكان هذا حلماً أم هي حياته الأرضية الواقعية، وقد امتزجت بذلك الأسى وتلك التعاسة اللذين أحسهما عندما ركع في الحلم أمام الوكيل. ضحك ماسحاً وجهه المخضل بالدموع وقال لنفسه بثقة:

- كلا سأذهب إلى الكوخ. سأختنق... فليكن.

وفي الصباح اضطر رغماً عنه للانتقال إلى الكوخ. أتى الشتاء فجأة والتمعت الحياة مرة أخرى في جسده. آه، كان الشتاء يغذيه، منذ زمن بعيد، بإحساس أليف، فرح، شتوي. هطل الثلج الأول، هبت العواصف الثلجية الأولى، ابيضت الحقول وغرقت في الثلج، اختبأ في الكوخ نصف عام! الوحشة تخيم في الحقول الثلجية البيضاء، في العاصفة، وتلعب الوحوش، أما الكوخ فيغمره الأمن والسلام. سيكنسون أرض الكوخ الترابية المحفرة، ويغسلون الطاولة، ويشعلون القش الطازج في الموقد. ما أجمل هذا! أتت ابنته فقال لنفسه «أحس قلبها» رغم معرفته بأنها أتت من أجل صديقتها، لحضور حفلة خطوبتها. بيّض الثلج القرية العفنة القاتمة. بيض الجبال ومنحدراتها وضفاف النهر كله. النهر وحده فحسب – إذ لم يتجمد بعد – كان أسود،

وكان ثمة إوز أبيض يسبح فيه. وقفت الابنة عند مدخل الكوخ مرحة، جميلة، وقد فارقها ذلك الإحساس بالشفقة على أبيها، فهو لن ينهض مرة أخرى على كل حال. في الخريف ماتت طفلتها، وهذا ما أعاد إليها مجدداً الشباب والحرية. كانت العجوز تمد على أرض الحجرة فراشاً لأفيركي وكانت الابنة تنتظرها كي تذهبا معاً لإحضار الأب، لسحبه على الزحافة إلى الكوخ.

عندما وصلت الابنة خلعت معطفها الفرائي وأزاحت الشال عن رأسها إلى كتفيها، ووقفت على العتبة فاقتحم الباب المفتوح غبار فضي. كانت ترتدي فستاناً حريرياً أزرق، يفوح بأريج لطيف عطر، وعلى شعرها كانت تلمع ندف ذائبة من الثلج. تسلل عجل الجيران إلى الباب. طردته عدة مرات ثم قفزت إلى العتبة. تراءى لها أنها ما تزال طفلة، وهاهي ذي تعيش مجدداً في بيت أمها وأبيها. كان يفرحها أنها تعرف عجل من هذا، وعلى من ينبغي أن تصرخ بسببه.

- ميشكا، حمى تأخذك – صرخت وهي تتقافز على العتبة، فرحة لكونها، مثل أي من أهل القرية، تستطيع أن تشتم دون أن يزعل أحد منها – لست مستعدة للجري وراء ثورك.

أتت صديقتها التي ستحضر حفلة خطوبتها، إلى المدخل وهي تفصفص بذور عباد الشمس. إنها فتاة جادة، ذات حاجبين أسودين عريضين، وكانت تلف شعرها بمنديل جديد له لون الفولاذ، مزركش بأوراق فضية.

قالت ابنة أفيركي بعجلة:

- فلنذهب لنقل أبي، إنه يموت، وقد أمر بإحضار القسيس..

كان أفيركي مستثاراً بأرق الليلة والعاصفة الثلجية الأولى، والانتقال إلى الكوخ.. وبالموت القريب. رقد في الزحافة مصغياً إلى وحوحة الريح الشتائية الباردة، وحفيف الشبكة الجافة التي كانت الريح تنفذ إليه منها، ناظراً إلى الندف البيضاء التي تحملها. كان يرتجف منكمشاً على نفسه في معطفه المهترئ الذي غطي، لجلب الدفء، ببردعة رقطاء، مرخياً باستمرار قبعته العميقة على جبينه الأصلع. كان وجهه يعبر عن الانتظار، أما عيناه الكبيرتان، القاتمتان، فلم تكونا تعبران عن أي شيء. كان قد انتقل من العربة إلى الزحافة بمفرده، بقواه الذاتية، متطوحاً، سكران من الوهن، وهو يفكر بنشوة طفولية: سيأتون لنقله فيجدون كل شيء لديه جاهزاً، كان بحاجة لأن يستعين بذراع العربة فحسب... فجأة انبعث صوت الابنة الرنان:

- أبي هل أنت حي؟

بكت الابنة بغتة عندما وقع بصرها عليه: كم بدا لها عظيماً وعتيقاً هذا المرحوم الحي ذو الشعر – بقايا الشعر - الطويل المرخي حتى الكتفين، والقبعة التي صيّرها القدم أشبه بطرطور عال لمهرج، أشبه بقلنسوة الرهبان، والجلباب الطويل المصطبغ بلون الحنطة اليابسة، الذي كان يعلو المعطف. سلم عليها بصوت لا يكاد يسمع، فأخفضت بصرها وسحبت الزحافة إلى الكوخ دون مساعدة صديقتها. ومن المجرش إلى الكوخ، على الغطاء الأبيض، امتد خطان أسودان هما الأثر الجنائزي لسكتي الزحافة اللتين ظلتا طوال الصيف ملتصقتين بالأرض الرطبة.

-٩-

خيم في الفناء غسق بلون الرماد المزرق، ولكن الضوء لم يكن قد امحى بعد.

انحنى القس في العتمة، على عتبة الباب الواطئ والثلج يغطيه، ودخل الكوخ، هتف بحيوية، ورن صوته كصوت الموت نفسه:

- أين هو؟

نهضت العجوز عن مقعدها برعب بارد (ذهبت الابنة للاحتفال بخطوبة صديقتها، إذ لم تكن تظن أن نهاية الأب ستحل بهذه السرعة) ونهض أفيركي نفسه معتمداً على يديه الراعشتين. وكأنه ينهض من النعش. كان وجهه المخيف يبدو في العتمة أزرق شاحباً شحوب الموت. نظر القس إليه، وأخفض صوته وهو يقول بسرعة، وذعر، وكأنما دخل الكوخ أحد ما آخر، هو ذلك الذي يقام لأجله كل هذا، كأنما دخل الرب نفسه:

- القبعة... انزع القبعة.

فخلع أفيركي قبعته ووضعها على ركبتيه...

ثم ضوأت شمعة بذبالة صفراء.

بعد الاعتراف وتناول القربان سأل أفيركي بصوت خفيض، بالكاد يسمع:

- يا أبانا أنت عارف بهذه الأمور، أتعتقد أن الموت قد حلّ فيّ؟

فأجاب القس بصوت مرتفع، عجول، وفظ تقريباً:

- حلّ... حلّ آن الأوان كي تستعد.

ثم أمسك بيد العجوز دون أن ينظر إليها، وتناول منها عشرين كوبيكاً أعدتها مسبقاً وتعرقت في كفها. ومضى مسرعاً

متجاوزاً العتبة. رسمت العجوز شارة الصليب، وانحنت إلى الأرض وراحت وهي تسند ذقنها بيدها، تنظر للمرة الأخيرة إلى هذا الرجل الذي قلما رأته في حياتها... «آن الأوان، آن الأوان» صرخ به القس، فرقد على ظهره بإذعان، ضاغطاً الشمعة بأصابعه العجفاء. كان قلبه ينحل ويذوب، وكانت روحه تعوم في الضباب، في التموج الذي يسبق الموت. كان ضوء الذبالة الصفراء ينزلق على شفتيه الرماديتين، المنسلتين عبر شاربيه الخفيفين، وعلى أنفه الدقيق اللامع، وكرتي عينيه الكبيرتين البنفسجيتين المغمضتين.. وعندها أحس بإنسان يقترب منه، بذل جهده كي يقول كلمة ما، وفتح عينيه قليلاً، ولكن وجهه ارتجف فحسب. ربما أفزعه هذا الضوء، وأقلقته هذي العتمة السوداء المهتزة التي تذكره بالكنيسة. أخذت العجوز الشمعة بهدوء من يدي أفيركي، ونفخت عليها، معتقدة أن النهاية ماتزال بعيدة، ثم جلست بالقرب منه.

أحس أفيركي في السكون والظلمة براحة أكبر. تخيل يوماً صيفياً، ريحاً صيفية تركض في الحقول الخضراء، ومنحدر الجبل خلف القرية، ورأى عليه قبره. من ذا الذي يصرخ بصوت رنان هكذا وينوح فوقه؟

- حبيبي أبي، ماذا فعلت بنفسك، ماذا فعلت بنا؟ من سيحزن لأجلنا، من سيهتم بنا؟ حبيبي أبي كنت مارة قرب بيتك، لم يلقني أحد، لم يرحب بي أحد، عندما كنت أمر قربك، كنت تلقاني ترحب بي، أرعدي يا رعود، اشتعلي يا بروق، وأنت أيتها الأرض الرطبة يا أمنا، انشقي واعصفي يا رياح، انفخي الكفن الذهبي عن أبي، اخلعيه عنه.

«آه إنها ابنتي» قال أفيركي هذا لنفسه بفرح وعذوبة، وتململ أمل ما في صدره...

مات في الكوخ المعتم الهادئ وكان الثلج، خلف النافذة، يصبغ العالم بالبياض بصمت، حتى إن العجوز لم تلاحظه.

١٩١٣

الحياة الجميلة

كانت حياتي جميلة، كل ما تمنيته حققته. ها أنذا أملك أموالاً غير منقولة –زوجي بعد العرس مباشرة سجل البيت باسمي– وخيولاً وبقرتين. ولديّ تجارتي. أنا لا أملك طبعاً مخزناً كبيراً وإنما دكاناً صغيراً فحسب، ولكنه مناسب تماماً لضاحيتنا. لقد كنت ناجحة دائماً وذات طبع حازم لا يلين.

أما من ناحية العمل فقد علمني أبي مختلف الأشغال رغم أنه كان أرمل وسكيراً مدمناً، ولكنه كان مثلي، ذكياً للغاية، عملياً، قاسي القلب.

قال لي عندما تحرر من القنانة:

- أنا الآن يا بنيتي، سيد نفسي، تعالي نوفر بعض النقود، وعندما يصبح لدينا ما يكفي منها ننتقل إلى المدينة ونشتري بيتاً، ثم أزوجك لسيد ممتاز وعندها سأحس نفسي ملكاً. لا أريد البقاء عند أسيادنا، فهم لا يستحقون هذا.

كان أسيادنا طيبين إلا أنهم فقراء للغاية، بل يمكن القول عنهم ببساطة أنهم شحاذون. رحلنا عنهم بعد أن بعنا البيت والدواب وغيرها مما نملك. حططنا الرحال في قرية أخرى، قرب المدينة، واستأجرنا حقل ملفوف من السيدة ميشيرينا، وهي واحدة من نساء حاشية القيصر، قبيحة، مجعدة الوجه، لم يتزوجها أحد فظلت عانساً، ولكنها كانت تعيش بهدوء. استأجرنا إذن حقلاً لديها ونصبنا خيمة وأقمنا على أحسن ما يرام.

حل الخريف بارداً، وكأن المصائب لاتكفينا. قعدنا ننتظر أرباحاً جيدة دون أن نحس بقدوم الكارثة، وأية كارثة! ما إن سارت أمورنا بهدوء إلى نهايتها حتى اندلعت فضيحة كبرى. شربنا الشاي صباحاً – كان يوم عيد – ثم وقفت قرب الخيمة أراقب الناس العائدين من الكنيسة عبر المروج. أما أبي فذهب يتفقد الملفوف. كان يوماً مشمساً رغم الرياح التي تخللته. كنت منهمكة في التفرج على الناس، ثم لاحظت رجلين اقتربا مني فجأة، أحدهم القس، وهو رجل طويل القامة، ذو وجه ترابي معتم، يرتدي جبة رمادية ويحمل عصا، كان قذاله مغطى بشعر يشبه عرف جواد أصيل، وكانت الريح تداعبه. أما الآخر

فرجل بسيط يعمـل عنـده. اقتربـا مـن الخيمـة، فانحنيـت وقـد انتابني الخوف وقلت:

- أهلاً وسهلاً بأبينا. نحن ممتنان لك لأنك فكرت بزيارتنا.

ولكنه راح يضرب الأعشاب بعصاه حاقـداً مكفـر الوجـه، وقال دون أن ينظر إلي:

- أين أبوك؟

- لقد ذهب إلى الحقل. سأناديه إذا أردتم. ها هو آت بنفسه.

- قولي له أن يحمل أمتعته وهذا السماور الكريه وأن ينقلع مـن هنا. فسيحل حارسي محله.

- حارسك؟ كيف؟ ولكننا دفعنا للسيدة تسعين روبلاً.. ماذا تقول يا أبانا؟ (كنت ماكرة رغم حداثة سني) أتـضحك علينـا؟ ينبغي أن تبرز لنا وثيقة.

فصرخ:

- لا تثرثري، السيدة انتقلت إلى المدينـة، وقـد اشـتريت منهـا الحقل. هذا الأرض أصبحت ملكي.

راح يلوح بالعصا ويضرب الأرض بها، وكنت خائفة مـن أن يمر بها على وجهي.

رأى أبي هذا فركض نحونـا – كانـت دمـاؤه حـارة للغايـة – وسأل:

- ما هذا الضجيج؟ ما بك يا أبانا تـصرخ في وجههـا دون أن تدري شيئاً؟ أنت لا تملك الحق في أن تلوح بعصاك، وإنما عليـك أن تبين بوضوح، كيف أصبح الحقل ملكك. نحن أنـاس فقـراء وبمقدورنا اللجوء للمحكمة، وأنت رجل ديـن ولا يمكنـك أن تحمل البغضاء لأحـد، وإذا فعلـت فلـن يمكنـك بعـد ذلـك أن تقرب الخبز والنبيذ المقدسين.

لم يقل أبي إذن أية كلمة نابية، أما القس، رغم أنه رجل كنيسة، فقد بدا شريراً مثل أي فلاح جاهل عادي، إذ مـا أن سـمع هـذه الكلمات حتى ابيضّ كله، ولم يقو على قول كلمة. وبدأت سـاقاه ترتعشان تحت جبته، ثم زعق واندفع نحو أبي كـي يلهـب رأسـه بالعصا، ولكن أبي حاد عن طريقه، ثم أمسك بالعصا وانتزعهـا من يديه وحطمها على ركبته وألقى بها بعيداً وصرخ في وجهه:

- لا تقترب مني بحق الـرب يـا غبطـة القـس. أنـت جاهـل ومحتال وأنا أكثر منك احتيالاً. ثم أمسك به من يديـه. ووقعنـا في المحاكم، ونفي أبي، بسبب رجـل الـدين هـذا، إلى صـقع بعيـد. وبقيت أنا وحيدة في هذه الدنيا الشاسعة، وفكـرت: مـاذا أفعـل

الآن؟ يستحيل على ما يبدو العيش بالحقيقة وحدها. لابد من اللف والدوران. عشت عند عمتي سنة ورأيت أنه لا مفر لي، ينبغي أن أتزوج بأسرع ما يمكن. كان لأبي في المدينة صديق طيب يعمل سراجاً. وقد طلب يدي، لا أقول أنه خطيب بارز ولكنه مفيد على كل حال. كان ثمة رجل يعجبني فعلاً ولكنه فقير مثلي، وكان هو أيضاً يعيش لدى الآخرين، أما هذا فهو على الأقل سيد نفسه. لم يكن لدي أي كوبيك للبائنة، ولكنني عرفت أنه سيأخذني من دون شيء، فكيف أضيع هذه الفرصة. فكرت ثم قبلت، رغم أنني أعرف طبعاً أنه كهل سكير وعصبي المزاج دائماً، وأنه باختصار قاطع طريق.. تزوجته فانقلبت من فتاة بسيطة إلى: ناستاسيا سيميونوفنا جوخوفا، زوجة تاجر من المدينة.. وكم بدا لي هذا ممتعاً.

تعذبت مع هذا الزوج تسع سنين. لم يكن فيه من التاجر سوى الاسم، إذ كنا غارقين في الفقر أكثر من أبأس فلاح. ومن جديد بدأ الوسخ والمشاجرات تنغص حياتي مع كل طلوع شمس. أخيراً حن علي الرب وقبض روحه. أطفالي ماتوا كلهم ما عدا صبيين: أحدهما، فانيا في السابعة من عمره، والآخر رضيع، كان مرحاً ومعافى بشكل مدهش. بدأ يمشي ويتكلم

وعمره عشرة أشهر – أطفالي كلهم كانوا يبدأون المشي والنطق في الشهر الحادي عشر – وصار يشرب الشاي بنفسه... كما كان يمسك الصحن بيديه الصغيرتين فلا أستطيع أخذه منها... ولكن هذا الصبي مات أيضاً ولم يبلغ العام. عدت ذات مرة من النهر إلى البيت فقالت لي أخت زوجي – استأجرت وإياها شقة واحدة -:

ابنك كوستيا ظل طيلة النهار يصرخ ويتقلب، فعلت كل ما بوسعي لأجله: لاعبته، أعطيته ماءً حلواً، فكان يشرب ويلفظ الماء من أنفه. يبدو أن برداً أصابه وأنه أكل شيئاً ما، فالأطفال يبتلعون كل ما يصادفونه في طريقهم، وراقبيهم إذا استطعت.

اندفعت إلى سريره منقبضة القلب، ونفضت الستارة. كان مضنى بحيث لم يعد يستطيع الصراخ. ركضت أخت زوجي إلى ممرض تعرفه، فأتى، وسألنا:

- ماذا أطعمتماه؟

- أكل عصيدة لا غير.

- بم كان يلعب؟

أجابت الأخت:

- كان يلعب بحلقة نحاسية سقطت من أحد السروج.

- لابد أنه ابتلعها إذن. قطع الله أيديكما...ماهذه الفعلة التي فعلتماها...سيموت الولد.

ولقد تحقق ما قاله. لم يمض ساعتان إلا وتوفي الطفل. ظللنا ندور ونلوب دون أن نستطيع فعل شيء. يبدو أنه ما من راد لإرادة الرب. وهكذا دفنت ابناً آخر، ولم يبق لدي سوى فانيا. أصبح وحيدي ولكن الوحيد، كما يقال، سيد. كان ضئيل القامة ولكنه كان يأكل ويشرب ليس بأقل من رجل راشد. بدأت أتردد إلى بيت العقيد نيكولين كي أمسح أرض الغرف. كان وأسرته أناساً ذوي ثروة لا بأس بها، وكانوا يقطنون بيتاً يدفعون أجرة عنه ثلاثين روبلاً في الشهر. كانوا يشغلون الطابق العلوي، أما الطابق السفلي فخصص للمطبخ. كانت لديهم طاهية وديعة ولكنها منحلة. وقد حبلت ذات يوم. وطبعاً لم يعد بمقدورها أن تنحني لتغسل وأن تخرج القدور من الفرن... ثم تركت العمل كي تلد فاحتللت مكانها. بدأت أتقرب من سادتي بدهاء، إذ أنني حاذقة وماكرة منذ الطفولة، ما إن أتولى أمراً حتى أنجزه بدقة وعناية. إنني أفوق في هذا أي نادل، وقد عرفت كيف أتصرف: على كل ما يقوله السادة أجيب بـ«نعم» و«هكذا بالضبط» و«ما تقوله عين الحقيقة». كنت أنهض عند طلوع

الـضوء وأمـسح الأرض، وأشـعل الموقـد، وأنظـف الـسماور، بحيث ما إن يستيقظ السادة حتـى يكـون كـل شيء لـدي معـد، وكنت طبعاً محبة للنظافة، حـسنة القـوام، جميلـة، رغـم جفـاف طبعي. كنت أحياناً أرثي لنفسي: لمـاذا يـضيع بهـائي واسـمي في عمل أسود كهذا؟ وكنـت أفكـر: ينبغـي أن أسـتغل أول فرصـة تحين. وكانت الفرصـة كامنـة في أن العقيـد وهـو بـدين بـشكل مرعب، لم يكن يـستطيع النظـر إلي بهـدوء. أمـا زوجتـه فكانـت ألمانية، بدينة أيضاً ومريـضة وتكـبره بعـشر سـنين. كـان قبيحـاً، ثقيلاً، قصير الساقين، أشبه بخنزير بري، وكانـت زوجتـه أقـبح وأسوأ منه. لاحظت أنه بدأ يلاطفنـي، ويجلـس معـي في المطـبخ ويعلمني التدخين. وعندما يلمح زوجته قادمة مـن الفنـاء يـولي الأدبار. كان يرسل الحاجـب إلى المدينـة لـشأن مزعـوم ويجلـس معي. لقد أضجرني حتى الموت، ولكننـي طبعـاً، كنـت أتظـاهر بالسرور، فأضحك له وأهـز سـاقي. كنـت أحـاول إلهابـه بكـل السبل، فما العمل.. الفقر قاتل وشعرة من ذنب الخنزير مكـسب كـما يقـال. ذات مـرة، في أحـد الأعيـاد، أتـى إلى المطـبخ بثيـاب الحفلات، بمعطـف ذي كتافيـات مذهبـة، مزنـر بحـزام أبـيض وكأنه برميل بيرة، يحمل قفازات جلديـة خفيفـة، وقـد انتفخـت

عنقه من الياقة المزررة حتى أصبحت بلون الفولاذ الأزرق، يفوح منه ما هب ودب من العطور، عيناه تلمعان، شارباه أسودان ثخينان، دخل قائلاً:

- سنذهب أنا وسيدتك إلى الكاتدرائية، امسحي لي الجزمة فالغبار يملأ الدنيا. لم أكد أصل إلى الفناء إلا وغطاني الغبار.

مد جزمته إلى المقعد فبدت كعمود ضخم، انحنيت كي أمسحها فأمسك بي من عنقي، ورمى المنديل عن رأسي وطوقني من صدري وحاول جري إلى الفرن. تخبطت ورفست ولكن لم أستطع الإفلات منه. كان يلفحني بحرارته، بحرارة وجهه الممتلئ بالدم. إنه يحاول إذن أن يتغلب علي، والإمساك بوجهي كي يقبلني.

- ماذا تفعل... السيدة آتية.. اذهب بحق المسيح.

- إذا أحببتني لن أبخل عليك بشيء.

- نعرف، نعرف هذه الوعود.

- لن أذهب، سأموت، إن لم تصفحي عني.

إلى آخر ذلك. هل أقول الحقيقة فيم فكرت عندها؟ كان يمكنني ببساطة أن أستسلم لإغراء كلماته، ولكن الحمد لله لم تجر أموره كما يشتهي. تحرش بي مرة أخرى، لكنني أفلت محطمة

الأضلاع، واحتدمت غيظاً حتى الموت، ثم.. هاهي السيدة نازلة من الطابق العلوي، متأنقة، صفراء كلها، منفوخة كجثة، تصدر نعيقاً لا ينقطع، ثوبها يخشخش على الدرج. أفلت منه، ووقفت حاسرة الرأس. اتجهت نحونا مباشرة فولى الأدبار، أما أنا فوقفت كالبلهاء لا أدري ماذا أفعل. وقفت في مواجهتي ممسكة بذيل ثوبها الحريري - أذكر الآن أنها كانت تستعد للقيام بزيارة فارتدت ثوباً حريرياً بنياً وقفازات بيضاء تصل حتى مرفقيها - وللحقيقة لم تقل أية كلمة له أو لي، ولكن عندما سافر العقيد إلى كييف طردتني.

جمعت متاعي وعدت إلى أخت زوجي (ظل فانيا يعيش عندها). بارحت ذلك المكان وبدأت أفكر من جديد. ذكائي يضيع هباء. لا أستطيع توفير شيء، ولا الزواج بشكل لائق، ولا الحصول على عمل خاص بي، ظلمني الرب! سوف أستجمع كل قواي مجدداً، ولأمت إن لم أحقق غايتي.

ينبغي أن أمتلك رأسمالي الخاص، فكرت، ثم وضعت ابني عند خياط كي يتعلم المهنة، أما أنا فعملت خادمة عند التاجر ساماخفالوف وظللت عنده سبع سنوات كاملة. من هنا بدأت صعودي.

حدد لي راتباً روبلين وربع. كان لديه خادمة أخرى غيري تدعى فيرا، وكنا نتناوب: يوماً أقدم الطعام أنا وتغسل هي الصحون، ويوماً تجهز هي المائدة وأغسل أنا. لم تكن أسرة التاجر كبيرة، رب البيت ماتفي إيفانيتش، وزوجته لوبوف إيفانا، وابنتان بالغتان، وصبيان. كان سيدنا رجلاً جاداً، قليل الكلام، لم نكن نراه، خلال الأيام العادية، في البيت أبداً، أما في الأعياد فكان يجلس في حجرته يقرأ الجرائد ويدخن. وكان زوجته امرأة بسيطة، طيبة، وهي مثلي أيضاً تنتمي لأسرة من صغار الكسبة. خطبت الابنتان آنا وكلاشا، حالما بدأت خدمتي، واحتفل بعرسيهما في عام واحد. لقد تزوجتا كلاهما من ضابطين. من هنا والحقيقة تقال، بدأت أوفر بعض النقود. إذ أن الضابطين كانا يمنحانني بقشيشاً كبيراً عند تقديم الشاي.. بل وعندما كنت أؤدي خدمة ما تافهة – كأن أحضر عيدان الثقاب، أو أناول أحدهما المعطف والحذاء – المهم بعد كل خدمة كهذه كنت أجد في يدي عشرين أو ثلاثين كوبيكاً..كانت خدمتنا الصادقة تعجب هذين الضابطين. ولكن فيرا، في الحقيقة كانت تظن نفسها أميرة: فهي قصيرة الخطا، ناعمة سريعة الزعل، حتى أقصى حد. ما أن يقول لها أحد كلمة لا تعجبها حتى تقطب

حاجبيها الكثيفين، وتـزم شـفتيها كـالكرزة ثـم تـرتعش وتهتـز. وتنفر الدموع على رموشها –جميلة رموشـها حقـاً، لم أر رموشـاً بطولها أبداً - ولكنني أذكى منها فعندما أرتدي قميـصي النـاعم المطرز ذا الكمين القـصيرين، وأضـفر شـعري وأربطـه بـشريطة سوداء حريرية، وألبس معطفي الأبيض، أصبح قبلة للنـاظرين. كانت فيرا تحشر جسدها دائماً في مشدات، بحيـث تفقـد القـدرة حتى على التمطي، وكانت رأسها بسبب هـذه المـشدات، تؤلمهـا حتى الغثيان. أما أنا فلـم أكن أدع هذه المشدات تلامس جـسدي ومع ذلك كنت حسنة القوام...عندما انتقل الضابطان إلى مدينـة أخرى بدأ ابنا السيد يعطيانني...

عندما بدأت الخدمة كان الابن الأكبر قـد أتـم العـشرين مـن عمره، أما الأصغر فدخل عامه الرابع عـشر. كـان هـذا الـصبي مشوهاً، كسيحاً، وكثيراً ما كانت تكسر قدمه أو يده. وقد شهدت هذا أكثر من مرة، وكانوا، عنـدما تكـسر يـده مـثلاً، يـأتون إليـه بطبيب على الفور، فيضمدها له بالشاش والقطن، ثم يصب عليها الجبس. وعندما يجف ويصبح كالخـشبة، وتتماثـل اليـد للـشفاء، يمزق الطبيب الجبيرة ويرفعها، تنظر إلى اليد فترى أنها التأمت. لم يكن يستطيع السير، ولذا كان يزحف، عـبر الأعتـاب والـدرج،

على مؤخرته، بل وكان يزحف إلى الحديقة قاطعاً كل الفناء. منظر يقطّع نياط القلب. كانت رأسه كبيرة مثل رأس أبيه، وسالفاه قبيحين، أحمرين كوبر الكلاب، ووجهه عريضاً شائخاً، ولكنه كان بنهم وشراهة يأكل السجق والشوكولاته والكعك والكاتو وكل ما تشتهيه نفسه. كانت قدماه ويداه دقيقة مثل قوائم الغنم، مكسرة كلها، مغطاة بالندوب. ظل أهله لوقت مديد لا يلبسونه سوى جلباب طويل. تعلم القواعد من معلمة في المدرسة الدينية كانت تأتيه إلى البيت. كان يدرس بجد، فذهنه وقاد، وكم كان يجيد العزف على الهارمونيكا. كان يعزف كأمهر العازفين ويغني أيضاً. صوته قوي مؤثر. وكان أحياناً يعلو ويعلو: «أنا راهب جميل...»، كثيراً ما كان يردد هذه الأغنية.

أما الابن الأكبر فكان سليماً ولكنه أحمق وغير صالح لأي عمل. أدخلوه مدارس عديدة فطرد منها كلها من دون أن يتعلم شيئاً. ما إن يحل الليل حتى ينسل إلى جهة ما ولا يعود حتى الفجر. ولكن فرائصه ترتعد من أمه، ولذا لم يكن يدخل عبر الباب الرئيسي مهما كلف الأمر. كنت أنفرد مساء وأنتظر نوم السادة، ثم أتسلل عبر الغرف وأفتح النافذة في غرفته وأعدو إلى مكاني. كان يخلع حذاءه في الفناء ويتسلق النافذة

حافياً من دون نأمة أو صوت. وفي اليوم التالي ينهض وكأنه لم يغادر البيت. ثم يدس لي في مكان خفي المبلغ اللازم. كنت أقبض منه بفرح هائل. وإذا يوماً دقت عنقه فهذا شأنه.. وفي الوقت نفسه بدأت أجني أرباحاً من الأخ الأصغر نيكانور ماتفييتش.

كنت أحقق أمنيتي ليلاً ونهاراً. ما إن انزرعت في دماغي فكرة أن أؤمن لنفسي وضعاً ميسوراً حتى تعززت قدماي في هذه الحياة. كنت أصون كل كوبيك، فللنقود أجنحة. حاول أن تفلتها من يدك للحظة! اضطهدت فيرا حتى كرهت حياتها في البيت. كان وجودها عموماً، إذا حكمت ضميري، غير ضروري هنا، وهذا ما قلته لسيدي مباشرة: إنني أستطيع خدمة البيت وحدي، وأرى من الأفضل أن تضيفوا إلى راتبي أي مبلغ تافه تريانه. وهكذا انفردت بالبيت وبدأت أدور كاللولب. لم أعد آخذ أجرتي عداً ونقداً، وإنما طلبت من سيدتي، عندما يتراكم لديها عشرون أو خمسة وعشرون روبلاً من أجرتي أن تذهب إلى البنك وتضعها فيها على اسمي. الملابس والأحذية كنت آخذها من سيدتي فما حاجتي للإنفاق؟ وهنا، لحسن حظي وقع ذلك المشوه، لسوء حظه، في حبي. سامحني يا رب...

كثيراً ما كنت أفكر: لعل بسببه عاقبني الـرب بـابني. كـان لا يغادر ذهني. الآن أقص عليكم ما فعل بنفسه: ينبغي أن ندرك أن ما حدث كان محزناً للغاية. كنت أنظر إليـه، إلى رأسـه الـضخم، فتتملكني الحسرة: «ماذا فعلت حتى تولد منعماً؟ مشوه ومع ذلك في أي غنى تعيش. أما ابني الجميل فلا يأكل أو يشرب في العيد ما تأكله وتشربه أنت في الأيام العادية «على الماشي». بدأت ألاحـظ أنه وقع في غرامي. كان لا يحيد ببصره عن وجهي، وكان قد بلـغ من العمر ستة عشر عاماً، وبدأ يرتدي بنطالاً وقميصاً، ونبت لـه شاربان أحمـران، ولكنـه ظـل قبيحـاً مكـرمش الوجـه، أخـضر العينين، عافانا الرب، وجهه عريض، أما جسده فعظـام عاريـة. ظن في البداية أن باستطاعته استمالتي: راح يتأنق ويـشتري بـذور عباد الشمس لي، ويسكب روحه في الهارمونيكا. وكنـت أسـتمع إليه. فعزفه جميل حقاً. ولكن عندما رأى أن الأمور لا تـسير كـما يشتهي هدأ وأصبح يستغرق في التفكير كثيراً. مرة كنت واقفة في الممر فرأيته يزحف عبر الفناء، حاملاً هارمونيكا ألمانية جديدة — كان حليقاً، ممشط الشعر، يرتدي قميصاً أزرق ذا ياقة مائلة عالية وثلاثة أزرار — رفع رأسه، وأجال بصره باحثاً عنـي، ثـم نعّـس عينيه وانثال صوته على موسيقا رقصة البولكا:

أسرعي، أسرعي
لنرقص البولكا معاً
في الرقص أجرؤ
أن أبوح لك بحبي

تظاهرت بأنني لم أره، وقذفت نحوه بالماء من طبق الغسيل، ولكن سرعان ما انتابني الخوف. الآن حتماً سيدقون عنقي، ولكنه زحف على الدرج ماسحاً الماء عن وجهه بيد، ساحباً الهارمونيكا بالأخرى، مخفضاً عينيه، وقال لي بتواضع مرتجفاً وقد ابيضّ كله:

- تبت يداك لقد ارتكبت إثماً يا ناستيا.

ولم يقل كلمة أخرى... إنه وديع حقاً.

كان يهزل في تلك الآونة ليس يوماً بعد يوم وإنما ساعة بعد ساعة: قال الطبيب إنه لن يكتب له العيش في هذه الدنيا، وأن السل لابد وأن يقضي عليه. صرت أقرف حتى من لمسه، ولكن يبدو أنه ليس متاحاً للإنسان الفقير أن يقرف، فالنقود ترغمه على فعل أي شيء. وهكذا راح يشتريني. ما إن تغفو الأسرة بعد الغداء حتى يناديني في الحال إلى الحديقة وإلى غرفته (كان يعيش في غرفة مستقلة في الأسفل كبيرة، دافئة، ولكنها مضجرة، تطل نوافذها على الفناء، سقفها واطئ وستائرها بنية عتيقة).

- اجلسي معي وسأعطيك نقوداً لقاء هذا. أنا لا أريد منك شيئاً. كل ما في الأمر هو أنني أحبك وأريدك أن تجلسي معي. عندما أكون وحدي أحس أن الجدران تنهشني.

قررت أن أجلس وأقبض. جمعت على هذا النحو خمسين روبلاً، وكان قد تجمع من أجرتي في البنك مع الفوائد أربعمائة روبل. فقلت لنفسي: آن أوان الانزلاق بهدوء من تحت النير. ولكن كان يعز علي الإقدام على ذلك، فلدي رغبة في العمل سنة أخرى، وادخار قليل من المال أيضاً. ثمة شيء مهم آخر، فقد حدثني ذات يوم عن حصالة خاصة به، جمع فيها، من المبالغ الصغيرة التي تنقده إياها أمه، مئتي روبل فهو مريض، يرقد في فراشه وحيداً، والأم تعطيه هذه النقود كي يتعزى بها، وكنت أفكر: اغفر لي يا رب هذا الإثم، ولكن أليس الأفضل أن آخذ أنا هذه النقود؟ فهو لا يحتاجها، إذ أنه سيموت قريباً على كل حال، أما أنا فسأحسن بها حياتي. وبدأت أترقب اللحظة المواتية كي أنفذ خطتي بذكاء. صرت، طبعاً أعامله برقة أكبر، وبدأت أكثر من الجلوس معه. كنت أدخل غرفته وأنا أنظر فيما حولي وكأنني أتسلل إليه خفية، ثم أغلق الباب وأقول هامسة:

- ها قد خطفت نفسي منهم، تعال نجلس قليلاً.

كنت أتصرف وكأنما بيننا موعد محدد، مفتعلة الارتباك والفرح بانفرادي به، وبعد ذلك أصطنع الضجر والشرود حتى يسألني:

- ناستيا، ما بك حزينة؟

- وهل تنقضي المصائب؟

ثم أتنهد صامتة أسند خدي بيدي، فيسأل:

- ماذا حدث؟

- أليس لدى الفقراء ما يكفي من الأحزان. من ذا الذي لديه وقت كي يهتم بهم؟ لا أريد أن أضجرك بمشاكلي. وسرعان ما يخمن قصدي، سبق وقلت أنه وقاد الذهن، كالأصحاء تماماً. أتيت إليه مرة – كان هذا في مثل آونتنا هذه، في آخر أيام الصوم – وكان الطقس مكفهراً رطباً ضبابياً، والأسرة نائمة بعد الغداء، ودخلت غرفته حاملة قطعة قماش كنت أخيطها. جلست قرب سريره، وما إن بدأت أتنهد وأفتعل الضجر مجدداً، كي يحرك دماغه، حتى نطق بنفسه. كان راقداً، كما أذكر، بقميص وردي مكوي، وبنطال أزرق، وجزمة جديدة ملمعة، مصالباً قدميه، ناظراً إلي من طرف عينيه. كان كما قميصه عريضين، وكما بنطاله أعرض، أما قدماه ويداه فمثل عيدان الثقاب. كانت رأسه كبيرة

ثقيلة، أما جسمه فضئيل للغاية، مما يبعث الاشمئزاز في الناظر إليه. كنت أحدق فيه وأفكر: غلام وله وجه شيخ. ومع ذلك كان في ملامحه شيء من الشباب – بسبب الحلاقة ربما – وكان كث الشاربين، (كان يحلق ذقنه كل يوم تقريباً، فلحيته تنبت بسرعة وكانت يداه مليئتين بالنمش وبشعر أحمر) كان راقداً، كما قلت، وقد مشط شعره إلى جانب، واستدار إلى الحائط، مداعباً الستائر.

قال لي فجأة:

- ناستيا!

فارتعشت.

- ماذا تريد يا نيكانور ماتفييتش؟

وتدحرج قلبي بشدة.

- أتعرفين أين تقبع حصالتي؟

- كلا يا نيكانور ماتفييتش، فليس بإمكاني معرفة هذا. ولم يكن لدي في أي يوم من الأيام أية نوايا سيئة تجاهك.

- انهضي واسحبي الدرج الأسفل من الخزانة، واخرجي منه الهارمونيكا القديمة، فالحصالة فيها، وأعطني إياها.

سحبت الدرج، ورفعت غطاء الهارمونيكا، فرأيت فيلاً من الصفيح مقمطاً بفروة، أحسسته مليئاً وثقيلاً، تناولته وأعطيته

إياه، أخذه وهزه فخشخشت النقود فيه، ثم وضعه بـالقرب منـه – طفل بريء والله – واستغرق في التفكـير. صـمت طـويلاً ثـم ضحك قائلاً:

- لقد رأيت الليلة يا ناستيا حلماً سعيداً، استيقظت منـه قبـل طلوع الضوء وظللت مبتهجـاً بـه طيلـة النهـار، حتـى الغـداء. انظري، لقد تأنقت لأجلك.

- أجل يا نيكانور ماتيفييتش، أنت دائماً حسن الهندام.

كنت لا أعي ما أقول فقد انتابني اضطراب شديد.

- ولكن على ما يبدو سأضطر للرحيـل إلى العـالم الآخـر، أي شاب وسيم سأكون هناك، لا يمكنك تصور ذلـك! وأحسـست بالشفقة نحوه.

- من الإثـم يا نيكانور ماتفييتش المـزاح بـأمور كهـذه، أنـا لا أفهم لماذا تقول لي كل هذا، ربما شـفاك الـرب. مـن الأفـضل أن تقص علي الحلم الذي رأيته...

ولكنه راح مجدداً يتكلم بالرموز ويضحك – أي حي أنا – ثم انتقل بلا مناسبة للحديث عن بقرتهم:

- قولي لأمي أن تبيعها بحق الـرب، لم يعـد لـدي قـدرة عـلى تحملها، أضجرتني حتى الموت. أرقـد في فـراشي وأنظـر طـوال

الوقت، عبر الفناء إلى السقيفة حيث تقف، فترد لي النظرة من خلال الشبك.

كان يقعقع بنقوده، وهو يتكلم، من دون أن ينظر إلي عيني، وكنت أسمعه من دون أن أفهم نصف ما يقول. كان يتحدث عن كل ما يجول بخاطره بخليط عجيب من الكلمات، ثم عيل صبري، فقريباً يحين ميعاد استيقاظ الأسرة، وعندها ينبغي علي تقديم السماور، وتفلت الفرصة مني، فقاطعته بمكر:

- كلا... من الأفضل أن تحدثني عن حلمك هل رأيتني فيه؟

كنت أريد أن أقول له كلمة طيبة وقد أصبت هدفي بدقة. فقد تناول الحصالة فجأة وأخرج مفتاحها من جيبه كي يفتحها ولكنه لم يستطع إدخاله في ثقب القفل، إذ كانت يداه ترتجفان. أخيراً فتحها وأفرغ ما فيها على حجره. كانت تحتوي، كما أذكر الآن، قطعتين ورقيتين وثماني قطع ذهبية، غرفها بيده وهمس لي بغتة:

- أتستطيعين تقبيلي ولو لمرة واحدة؟

أحسست بأطرافي تنفصل عني من القشعريرة، أما هو فبدا كالمجنون إذ راح يهمس لي ويزحف نحوي:

- ناستيا مرة واحدة فقط وليشهد الرب أني لن أطلب منك هذا مرة أخرى أبداً.

أجلت بصري فيما حولي – ليكن ما يكون – وقبلته فانكتمت أنفاسه، واختطف عنقي، وأمسك بشفتي، ولم يفلتني لدقيقة كاملة. ثم وضع النقود كلها في يدي واستدار إلى الحائط.

- اذهبي.

قفزت إلى غرفتي مباشرة، وضعت النقود في صندوق وأقفلته بالمفتاح. ثم اختطفت قطعة ليمون ورحت أدعك شفتيّ بها حتى ابيضتا. كنت خائفة جداً من أن يعديني بسله...

حسناً، ها قد انتهينا من هذه المسألة والحمد لله، ينبغي الآن أن أبدأ مشروعاً آخر أكبر، هو المشروع الذي كنت أجاهد لأجله طيلة الوقت.

لكنني كنت أحس في قرارة نفسي أن فضيحة ما ستقع. كنت أخشى ألا يدعونني أترك الخدمة، وأن يفلقني هو بحبه و«يتمرجل» عليّ بسبب هذه النقود... ولكن لم يحدث شيء من هذا. لم يتحرش بي، وعاد مهذباً، كما في السابق، وكأنه لم يكن شيء بيننا. بل أصبح أكثر تواضعاً ولم يعد يناديني إلى غرفته. لقد صان العهد إذن. عندها قلت لسيدي أنه آن الأوان كي أهتم بابني قليلاً. وأن أتحرر من أجله لبعض الوقت. ولكن سيديّ رفضا سماعي. هذا دون الحديث عن ذلك الكسيح. أشرت

أمامــه ذات مــرة إلى رغبتــي في تــرك الخدمــة، فــابيضّ جلــده، واستدار إلى الحائط قائلاً بهزء:

- لا يحق لك أن تفعلي ذلك. لقد جذبتني وعـودتني عليـك، انتظري قليلاً، فقريباً أموت، وإذا رحلت الآن سأشنق نفسي!

أي تواضع. آخ، يا لعينيك الوقحتين. بقيت من أجلـك وهـا أنت ذا تهددني. ولكن لا... لست كما تظنني. وبدأت أبحث عـن حجة أقوى. ولحسن الحظ ولدت سيدتي طفلـة، فاسـتأجروا لهـا مربية. افتعلت أنني لا أطيق العيش مع هـذه المربيـة، وللحقيقـة كانت عجوزاً شريرة وقحة، وكانت سيدتي نفـسها تخافهـا أيـضاً إضافة إلى أنها سكيرة – كانـت زجاجتهـا تقبـع باسـتمرار تحـت الـسرير – ولم تكـن تحتمـل أن يقـف أحـد إلى جانبهـا. وبـدأت تغتابني وتنشر الأقاويل عني وتحرض الأسرة عـلي: تـارة تـدعي أن البياضات ليست نظيفة، وتارة تقـول أننـي لا أحـسن تقـديم شيء... عنـدما أجيبهـا بكلمـة تـرتعش فرائـصها. وتـركض لتشكوني، وهي تشرق بدمعها، افتعالاً وليس من الغضب، ومع الأيام تفاقمت مشاكلي معها فقلت لسيدتي:

- اعفوني من الخدمة، فقد كرهت حياتي مـع هـذه الـشمطاء، وإذا ظللت معها سأنتحر.

كان ثمة بيت في شارع غلوفايا قد حظي بإعجابي. لم تمنعني سيدتي من ترك الخدمة ولكن عند الوداع، دعتني بحماس للعيش عندهم، أو، على الأقل، لزيارتهم في الأعياد والمناسبات.

«ينبغي أن تأتي دائماً بكل تأكيد، وأن تشرفي على أمور البيت بنفسك، فروحي لاتطمئن إلا لك، لقد أصبحت لي بمثابة الابنة».

طبعاً أعربت لها عن امتناني بما هب ودب من الكلام، وأغرقتها بالوعود، ثم انحنيت لها وانصرفت. وبدأت أخيراً، تبارك الرب، بتنفيذ مشروعي، اشتريت ذلك البيت وفتحت فيه حانة. وسار العمل فيها على أحسن وجه. كانت غلة الصندوق، عندما أحصيها مساءً، تبلغ كل يوم ثلاثين أو أربعين روبلاً. ففكرت بفتح دكان أيضاً تنسجم والحانة. كانت أخت زوجي قد تزوجت منذ زمن بعيد، من حارس يعمل في الصليب الأحمر، وقد تصادقت وإياه، إذ كان يدعوني دائماً بأمه الروحية: ذهبت إليه واستدنت منه مبلغاً صغيراً لشراء بعض الحاجيات، وبدأت تجارتي، وهنا أنهى فانيا تعلم الخياطة فرحت أستجدي النصح لدى الناس العارفين، أين أجد له عملاً، فكانوا يقولون لي:

كيف أين، والعمل يغلي لديك.

فعلاً سلمت فانيا الدكان، وانفردت أنا بالحانة، وهدرت الماكينة. طبعاً لم أعد أفكر بسخافات الماضي كلها. وإذا استجبت لما يمليه علي ضميري أقول أن ذلك القبيح قد رقد في الفراش بعد رحيلي ولم يقل لأحد كلمة واحدة. رقد كالميت حتى أن نفسه عافت الهارمونيكا. وعندما أصبحت حياتي جميلة، أتتني السلوقية، أم ذلك الصبي - هكذا كان أولادها يسمونها في البيت - بغتة وقالت لي:

- هناك إنسان يبلغك التحية، ويطلب بإلحاح أن يراك. هنا أحسست بالنار تشتعل في من الغضب والخزي. كم هو لطيف، بماذا حشا دماغه، وجد لنفسه صديقة، لم أطق صبراً وأجبت:

- لست بحاجة لتحياته، فلينظر إلى نفسه في المرآة، أما أنت أيتها الإبليسة الشمطاء، أليس من العار عليك أن تصبحي قوادة؟ أسمعت أم لا؟

خرست ووقفت محنية الظهر، تنظر إلي من تحت جبينها بعينين منفوختين، وتهز بقرعتها، وكأنها انسطلت من الحرارة أو الفودكا.

- آه منك يا عديمة الإحساس إنه لا يكف عن البكاء بسببك، مساء أمس ظل راقداً في الفراش طيلة الوقت، مشيحاً بوجهه إلى الحائط وهو يبكي بحرقة.

فقلت:

- وماذا علي أن أفعل! إن أمطر دمعاً، أليس مخزياً لأحمر الريش هذا أن ينتحب بسبب الآخرين، قبح الله وجهه من طفل كأن أحدا منع عنه المصاصة!

هكذا خيبت العجوز ولم أذهب، وقد شنق نفسه فعلاً فيما بعد. طبعاً وقتها ندمت لعدم ذهابي، ولكن لم يكن لدي فائض من الوقت أنفقه عليه. إذ بدأت الفضائح لدي في البيت واحدة تلو الأخرى.

أجرت من البيت غرفتين، واحدة لشرطي حارس، وهو رجل جاد ممتاز محب للنظام. كنيته تشايكين، والآخر لآنسة عاهرة، وهي فتاة بيضاء جميلة الوجه تدعى فينيا، كان يزورها مقاول اسمه خولين، وكان هو ينفق عليها. وقد سمحت لها بالسكن عندي معتمدة على هذا، وفجأة تخاصما فهجرها. ماذا أفعل؟ ليس لديها ما تدفعه فهي مدينة لي بثمانية روبلات.

- عليك يا آنسة أن تنتزعي المال من الرجال فبيتي ليس خاناً للسياح.

- سأحاول.

- ولكنني لا أراك تحاولين. فأنت لا تفارقين البيت. لا تعقدي الآمال على تشايكين.

- سأحاول، إن ضميري يؤنبني عندما أسمعك.

- آخ، قولي من فضلك أحقاً لديك ضمير؟

سأحاول، سأحاول. ولكن لم تبدر منها أية محاولة، بدأت تكثف من حومانها حول تشايكين، ولكن هذا كان يأبى حتى أن ينظر إليها. بعد ذلك لاحظت أنها شمرت عن ذراعيها وانتقلت إلى ابني. رحت أراقبه باستمرار فلاحظت أنه لا يفارقها، ثم قرر أن يخيط لنفسه جاكيتاً جديداً.

- كلا... بإمكانك الانتظار، فأنا أكسوك بما لا يلبسه أبناء الإقطاعيين. لديك جزمة وقبعة أيضاً، إنني أحرم نفسي من كل شيء، أضع كل كوبيك تحت سبعة أقفال، كي أؤمن لك ما تحتاجه.

- نعم، إنني حسن المظهر.

- وإذن هل أبيع البيت كرمى جمالك.

لاحظت أن تجارتي تسوء، وأن الخسائر والأخطاء في الحسابات بدأت تزداد، كنت أجلس وأمامي فنجان الشاي فلا أحس برغبة في شربه. بدأت أراقب فانيا. كنت أقبع في الحانة وأنصت إلى كل ما يجري في الدكان. كنت ألصق أذني بالحائط مختبئة عن الأنظار، وأصغي ولم أكن أسمع، كل يوم، سوى التنهدات والآهات. حذرته فقال لي:

- وما شأنك أنت؟ ربما كنت أريد الزواج منها.

- هذا ما كان ينقصك أيتها الأم، لم يعد لك شأن بابنك، نيتك هذه لاحظتها منذ زمن بعيد، ولكن لا.. لن يحدث هذا ما دمت حية.

- إنها مجنونة بحبي، أنت لا تستطيعين فهمها، فهي ناعمة، حيية.

- الحب جميل مع كل فاسقة، إنها، يا غبي، تضحك عليك، ثم إنها مصابة بالزهري، وفخذاها مليئان بالجراح.

تسمر في مكانه. كان يحدق إلى أرنبة أنفه صامتاً. فقلت لنفسي: الحمد لله أصبته في النقطة اللازمة... ولكنني مع ذلك فزعت حتى الموت: لقد علق الولد بها. ينبغي سحقها بقوة وبأسرع وقت. تبادلت النصح مع ابني الروحي وتشايكين: فكرّا، ماذا نفعل؟ فأجابا ببساطة: نحملها ونلقي بها وانتهت المسألة. ثم نسجنا الحيلة التالية: تصنعت أنني ذاهبة بزيارة، انصرفت وتسكعت قليلاً في الشوارع، في الساعة السادسة عندما تنتهي مناوبة تشايكين، عدت إلى البيت بهدوء، دفعت الباب فوجدته، كما توقعت، مقفولاً من الداخل، قرعته، لا أحد يجيب، قرعت باباً آخر وثالثاً ولكن لا أحد. كان تشايكين متربصاً في إحدى

الزوايا. ثم رحت أقرع النافذة حتى كاد الزجاج ينكسر، وفجأة سمعت حركة، إنه فانيا، كان أبيض كالكلس. ضربته على كتفه بكل قوتي ودخلت الحجرة مباشرة. أي وليمة فاخرة رأيت: زجاجات بيرة فارغة، نبيذ، سردين، سمكة مملحة كبيرة مقشرة، حمراء كالعقيق... كل هذا من الدكان، وكانت فينكا جالسة على كرسي، وقد ضفرت شعرها بشريطة زرقاء...وعندما رأتني قفزت. حدقت إلي بعينين متسعتين، وقد ازرقت شفتاها من الرعب. ظنت أنني سأنقض عليها وأضربها، ولكنني قلت ببساطة، رغم أنني، والحق يقال، كنت أتنفس بصعوبة:

- ماهذا الذي يحدث لديكما؟ حفلة؟ من هو المحتفى به؟ لماذا لا ترحبان بي ولا تضيفانني شيئاً.

صمت.

- لم لا تنطقان؟ لماذا أنت صامت يا بني؟ أي تاجر أنت يا عزيزي؟ هكذا إذن تطير نقودي التي أجمعها بدم قلبي؟!

فنفش ريشه وقال:

- لقد أصبحت إنساناً راشداً.

- هكذا، إذن، وأنا ماذا أفعل؟ هل أغادر بيتي بسبب أهوائك وكلبتك هذه؟ هذا ما تريده؟ إذن لقد ربيت حية في حجري.

فصرخ بي:

- لا تسيئي إليها، لقد كنت أنت نفسك شابة يوماً ما، وعليك أن تفهمي ما هو الحب.

عندما سمع تشايكين صراخه قفز إلى الغرفة، وحمله على كتفه دون كلمة، وأدخله المستودع وأقفل عليه (كان رجلاً قوياً للغاية، شمشون بلحمه ودمه) وقال لفينكا:

- يظنك الناس آنسة محترمة، أما أنا فأستطيع أن أصنع لك بطاقة صفراء لدى الحكومة، هل تريدين هذا؟ إذا كنت لا تريدين فاتركي الغرفة، بحيث لا نسمع نفساً من أنفاسك هنا.

أجهشت بالبكاء، فأضفت أنا:

- لتدفع لي ديوني أولاً، وإلا فلن أدعها تأخذ أياً من أمتعتها. ادفعي وإلا فضحتك في المدينة كلها.

رحلت ذلك المساء نفسه. بأية حنكة طردتها، وكم تلوت ونشجت وشرقت بدموعها، وكيف راحت تنتف شعرها، أفهم هذا فأحوالها صعبة للغاية. إلى أين تذهب؟ إذ ليس لها من ثروة سوى ما تلبسه على جسدها. ولكنها رحلت، أما فانيا فقد هدأ لبعض الوقت. خرج صباحاً من المستودع دون أن يتفوه بحرف. كان خائفاً جداً، وإحساسه بالذنب كان واضحاً، وبدأ يهتم بالعمل.

انتابني الفرح وسكن قلبي، ولكـن لفـترة قـصيرة فحـسب. إذ بـدأت النقود تطير مجدداً مـن الـصندوق، وراحـت تلـك العـاهرة ترسـل إلى الدكان بولد صغير فيعـود إليهـا محمـلاً بالعـسل والمربـى، كـان فانيـا يغدق عليها السكر والشاي والتبغ وكل ما يقع تحـت يديـه. تقـول لـه أريد منـديلاً فيعطيهـا، وهـل تمكـن مراقبتـه؟ بـل وأصـبح يكثـر مـن شرب النبيذ يوماً بعد يوم. وفي النهايـة هجـر الـدكان، ولم يعـد يعـيش في البيت تقريباً، كان يأتي ليأكل ويـشرب وهـذا وجـه الـضيف. كـان يـذهب إليهـا كـل مـساء، يـضع تحـت إبطـه زجاجـة و... إلى الأمـام سر... كنت أطير كالملسوعة مـن الحانـة إلى الـدكان ومـن الـدكان إلى الحانة، ولم أكن أجرؤ على قول كلمة له، فقد أصبح كالمجـنوب تمامـاً، كان فيما مضى وسيماً للغاية –مثلي أبيض الوجـه، نـاعماً كفتـاة، متـألق العينين، ذكـيهما، حـسن البنيـان، عـريض المنكبـين، هفهـاف الـشعر كستنائيه.. أما الآن فبوزه منفوخ وشـعره أشـعث، يتلـوى فـوق ياقتـه وعينـاه عكرتـان، ومظهـره رث وظهـره محنـي.. كـان يحـدق طـوال الوقت إلى أرنبة أنفه دون أن ينطق بحرف.

- لا تزعجيني بعد الآن، وإلا ارتكبت جريمة...

كان يأتيني مخموراً، والبصاق يسيل من فمه، يـضحك دونـما سبب، ثم يشرد ويغني على الهارمونيكا «الزمن الضائع» وتمتلـئ

عيناه بالدموع... ساءت أموري تماماً فرأيت أن من الضروري لي أن أتزوج بأسرع ما يمكن. ولحسن الحظ خطبني وقتها رجل أرمل من الضواحي، يدير دكاناً مثلي، كان كهلاً ولكنه ميسور الحال. أتى في الوقت المناسب، فهذا ما كنت أبحث عنه، قررت في البداية أن أستعلم عنه وعن حياته من أناس موثوقين. ولم أكن أرى في ذلك ما يضير، إذ ينبغي أن أحسم أمري، وأن أراه عن كثب في أقرب وقت (لم تر الخطابة أحدنا للآخر إلا مرة واحدة في الكنيسة). علي أن أجد ذريعة كي يزور أحدنا الآخر، وإقامة ما يشبه حفلة تعارف. زارني هو أولاً وقدم نفسه: «لاغوتين نيقولاي إيفانتيش صاحب دكان... يسعدني التعرف عليك». بدا لي إنساناً ممتازاً. صحيح أنه قصير القامة أشيب الشعر، ولكنه لطيف، هادئ، حسن الملبس، مهذب، كما عرفت أنه حريص على أمواله، ويقال إنه، في حياته كلها، لم يقرض أي إنسان كوبيكاً... بعد ذلك ذهبت أنا إليه بحجة تتعلق بالعمل... رأيت لديه قبواً ودكاناً للنبيذ وكل ما يتعلق به من شحم الخنزير ولحم السردين والسمك المملح. كان بيته صغيراً ولكنه نظيف ولامع كالثريا... النوافذ مغطاة بستائر، الزوايا مزروعة بالأزهار، والأرض ممسوحة بعناية. كل هذا رغم أنه أعزب. كان النظام

والترتيب يسودان الفناء أيضاً. كان يملك ثلاث بقرات وجـواد ومهرة لها من العمر ثلاث سنوات، قال إنه دفع له فيها خمسمئة روبل ولكنه رفض بيعها. ولقد عـشقت هـذه المهـرة، فكـم هـي جميلة. كان يضحك بهدوء، ويسير بخطى قصيرة، ويحـدثني عـن متابعته الدائمة لآخر نشرات الأسعار. قلت لنفسي:

كفاني تفكيراً، ينبغي أن أحسم الموضوع...

طبعاً عرضت كل هذا باختصار. أما ما كنـت أحسه في تلـك الفترة فلا يعلمه إلا الله. كنت أطير من الفرح. هاقد عثرت عـلى ضالتي أخـيراً، ووجـدت شريـك حيـاتي، ولكننـي كنـت ألـزم الصمت خائفة مرتجفة: وإذا ما انهارت آمـالي؟ وكـاد أن يحـدث هذا، كادت أن تضيع جهودي كلها سدى، وبـسبب مـاذا؟ آه لا أستطيع أن أستذكر ذلـك دون أن ينقـبض قلبـي، بـسبب ذلـك الكسيح نفسه وبسبب ابني العزيز. سارت أمـور خطبتنـا بهـدوء وخير، ونحن نظن أن إنساً أو جناً لم يدر بها، وإذا بالضاحية كلها تعـرف بمـشروعنا أنـا ونيقـولاي إيفـانيتش. وكانـت أسرة ساماخفالوف ممن سمع بالأمر طبعاً. أعتقد أن السلوقية هي من أشاع الخبر. فما كان من الكسيح إلا أن شنق نفسه. كأنه يقـول لي خذي. هددتك فلم تـصدقي، وهاأنـذا أفعلهـا نكايـة بـك. دق

مسماراً في الجدار فوق السرير، وربط به حبلاً، وأحكم شده ثم ألقى بنفسه من السرير. عملية غير معقدة ولا تتطلب ذكاء خارقاً. كنت واقفة ذات مرة عند الغسق في الدكان، أنضد بعض الأشياء، وفجأة سمعت صوت ارتطام مغاليق النوافذ في البيت، كاد قلبي يقفز من ضلوعي، ركضت فرأيت السلوقية واقفة بالعتبة.

- ماذا تريدين؟

- نيكانور ماتفييتش أعطاك عمره.

ثم زمجرت واستدارت عائدة إلى بيتها. أما أنا فلم أدرك، من الاضطراب، ماذا أفعل - كنت وكأنما سلقني الرعب – ألقيت شالي على كتفي ومضيت خلفها. كانت تركض وتتعثر وأنا أركض وراءها... مشهد فضائحي تماماً. كنت أركض دون أن أفهم شيئاً. كان ثمة فكرة واحدة فحسب تطن في جمجمتي: ضاع رأسي. وهل ما فعله مزحة؟ إلى أي درك من انعدام الضمير انحدر الناس! وعندما وصلت إلى هناك رأيت الناس محتشدين وكأنما نشب حريق. كان الباب مفتوحاً، على مصراعيه، الكل راغب بالدخول. والجميع فضوليون طبعاً، وأنا لحماقتي، دخلت أيضاً، ولكن شكراً لذاك الذي ضربني على رأسي. إذا تنبهت إلى

نفسي وقفلت عائدة. ربما كان هـذا مـا أنقـذني مـن مخالـب أسرة ذلك الطائر الذبيح.. إذ ربما تذكرني أحدهم - بـل وربـما رأتنـي السلوقية الحاقدة -: انظروا أيها السادة، هـاهي المتهمـة، هـاهي من سبب كل هذا. اسمحوا لنا باستجوابها... وكل شيء جـاهز. حاولي أن تفلتي بعدها. فأحياناً دون سـؤال أو جـواب، ودونـما ذنب يمسكون بالمرء من ذيلـه ويلقونـه في الكـيس.. وهـذه لـن تكون أول مرة، دفنوه وارتاح قلبي. تهيأت للعرس مـستعجلة في إنهاء هذه المسألة، وكنت أبيع كل ما أقدر على بيعه دون خـسارة. وفجأة نزلت عليّ مصيبة أخرى. كنت من غير مـصائب لا أكـاد أقف على قدمي من المشاغل، وكان الحريق يشويني - أتانا ذلـك العام حـر لا يطـاق، هـذا إضـافة إلى الغبـار والـريح الـساخنة، وعندنا خاصة، في شارع غلوفايا القريـب مـن الجبـال - فكيـف وقد وصلني هذا الخبر الجديد: نيقولاي إيفانيتش زعـلان منـي. أرسل إلي تلك الخطابة نفسه التـي عرفـت أحـدنا عـلى الآخـر - وهي كلبـة مـسعورة حـادة العينـين - ولعلهـا هـي نفـسها مـن وسـوس في أذني نيقـولاي إيفـانتيش - فـأخبرتني أنـه سـيؤجل العرس إلى أول أيلول - بحجـة أن لديـه مـشاغل كثـيرة - وأنـه ينصحني بأن أفكر بابني فانيا وأن أؤمـن لـه عمـلاً مـا في مكـان

آخر، لأنه لن يقبل بوجوده إلى جانبه في البيت مهما كلف الأمر. ونقلت لي قوله: صحيح أنه ابنك من لحمك ودمك ولكنه سيسبب لنا الإفلاس حتماً. وسوف لن يكف عن إزعاجي (طلبه مفهوم، فهو لم يعرف الصخب في حياته، ولم يخض أية مشاجرات، وهو يخشى القلاقل والانفعالات الحادة: فعندما ينفعل تختلط الأمور في رأسه ولا يستطيع قول كلمة) وطلب أن أتخلص منه. ولكن أين أذهب به، أي عمل أؤمنه له، وكيف أتخلص منه؟ فهو ولد عاق منذ نعومة أظفاره، وإذا ما عاش مع غيري فسوف ينتهي تماماً. ومع ذلك لابد من التخلص منه. فأنا نفسي لم أعد أستطيع التفاهم معه منذ أن تعرف على فينكا الكلبة... كأنها سحرته. في النهار يشخر وفي الليل يسكر، هكذا يمضي يومه... إنني عاجزة عن وصف المصائب التي مرت بي. لقد قوضني بحيث صرت أذوب كالشمعة، ولم أعد أستطيع الإمساك بالملعقة من ارتجاف يدي. كنت عندما يحل الظلام أجلس على المقعد أمام البيت أنتظر عودته، جزعة من أن يضربه فتيان الحي. مرة انتابني الهلع حتى الموت، إذ سمعت لغطاً وصراخاً، فظننت أنهم «يعتنون» به، ركضت إلى الحي كي أرى، ثم انعطفت ونظرت في الوادي....

استدعيت فانكا، بعد أن تلقيت قرار نيقولاي ايفانيتش، وقلت له: لقد احتملتك طويلاً يا بني، ولكن عزيمتك خارت تماماً، وضللت الدرب السوي وجرستني في البلد كلها. كنت تعيش في نعيم ورفاه، وها أنت ذا تصبح أفاقاً وسكيراً. إنك تفتقد تلك الموهبة التي أمتلكها أنا، كم من المرات وقعت، ومع ذلك كنت أنهض كل مرة من جديد. أما أنت فلا تستطيع حتى أن تكسب لنفسك شيئاً. انظر كيف اجترحت لنفسي أموالاً غير منقولة، وكيف آكل وأشرب مثل بقية خلق الله، ولم أهلك نفسي كما تفعل، وما ذلك إلا لأن عزيمتي كانت أقوى من كل شيء، أما أنت فكنت مبذراً وستظل.. آن أن تنزل عن ظهري..

ظل جالساً بصمت، ينقر غطاء الطاولة.

- مابك صامتاً؟ لا تنقر الغطاء، امتلك مثله أولاً وبعد ذلك انقره.. أجبني.

واصل الصمت، حانياً رأسه، ثم ارتعشت شفتاه:

- هل ستتزوجين؟

- لا أعرف بعد، وإذا ما تزوجت فسأتزوج رجلاً جيداً ولا يقبل بوجودك في البيت. فأنا لست فينكا، أو عاهرة من العاهرات.

قفز فجأة من مكانه وهو يهتز من قمة رأسه حتى أخمص قدميه:

- أنت لا تساوين قلامة ظفرها.

أيعجبكم هذا؟ قفز وبعق كالبعير ثم صفق الباب ومضى. هذا ما حدث، أما أنا، رغم أنني لست بكاءة، فقد شرقت دموعي، بكيت يوماً وآخر، وكلما تذكرت الكلمات التي قالها لي تنهمر دموعي مجدداً. كنت أبكي وشيء واحد لا يفارق ذهني: لن أغفر له إهانته أبداً، ولن أدعه يضع قدمه على عتبة البيت بعد الآن.. ولكنه لم يعد. كان يتناهى إلي أنه يقيم لدى عاهرته حفلات رقص وغناء، ومآدب، وأنه يعربد بنقود مسروقة، ليس هذا فحسب، بل وكان يهددني: سوف أجعلها تهدأ تماماً، سأترقب خروجها ذات مساء إلى مكان ما وأقتلها بحجر. وكان يسخر مني، فيرسل إلى الدكان بأحدهم لشراء الكعك والسمك المملح وغيره. كنت أرتعش حنقاً ولكنني أظل محافظة على رباطة جأشي وأرسل له ما طلبه. كنت جالسة ذات يوم في الدكان وإذا به يدخل مخموراً، لا وجه له، يحمل سمكة مملحة – صباحاً أتت طفلة واشترت له، بنقوده طبعاً، أربع سمكات – وألقى بها على طاولتي وصرخ:

- كيف يمكنك إرسال هذه الدناءة للزبائن. إنها كريهة الرائحة ولا تأكلها إلا الكلاب؟

راح يصرخ، نافخاً منخاره، باحثاً عن ذريعة أخرى، فقلت له:

- لا تزعق وتبعق هنا فلست من يصنع السمك، وإنما اشتريته في براميل. وإذ لم يعجبك فلا تجتره. خذ نقودك.

- وإذا أكلتها ومت؟

- قلت لك يا خنزير لا تصرخ.. بأي حق ترفع صوتك علي، هل أنت رئيسي؟ ينبغي عليك أن تتحدث بتهذيب. لا أن تندفع كالثور إلى محلات الآخرين.

وفجأة اختطف كفة الميزان ونخر:

- سأرى إذ ما ضربتك الآن، كيف سترفعين الأربعة.

وأطلق ساقيه للريح أما أنا فهويت على الأرض ولم أعد أقوى على القيام.

بعد ذلك بلغني أن فتياناً من الحي ضربوه، وأوصله حوذي إلي وهو على شفا الموت. كان سكران فاقد الوعي، رأسه تتأرجح وشعره متيبس من الدم والغبار. أما جزمته وساعته فقد انتزعتا منه، وأما جاكيته الجديد فكان مغطى بالوحول، وليس فيه بقعة سليمة ولو بحجم الكوبيك. ترددت طويلاً ثم استقبلته، بل

ودفعت للحوذي عنه، ولكنني في ذلـك اليـوم نفـسه، أرسـلت لنيقولاي إيفانيتش تحية وأكدت له أن بوسـعه الاطمئنـان، فقـد حسمت أمري مع ابني وسأطرده من دون رحمة عنـدما يـصحو. فرد عـلي التحيـة بمثلهـا قـائلاً: منتهـى الحكمـة، تقـبلي امتنـاني وتعاطفي... وحددنا للعرس موعداً بعد أسبوعين آه...

اقتربت حكايتي من نهايتها، إذ لم يعـد لـدي، في الحقيقـة، مـا أحكيه. ها أنذا أعيش مع زوجي بسلام ووئام – شيء نادر تماماً في عصرنا – وإنني لعـاجزة عـن وصـف الآلام التـي مـررت بهـا، وكيف وصلت إلى هذا النعيم، ولكن الرب كافأني حقاً. ها قد مر واحد وعشرون عاماً. وأنا وشيخي نعيش وكأننا في قلعة حصينة، واثقة من أنه لن يدع أحداً يومـاً يـسيء إلي. فهـو هـادئ بـالمظهر فحسب. ومع ذلك كنت أحس وجيفاً في القلب. وخاصة عندما حل الصيام الكبير. كنـت أفكـر: سـأموت الآن سـعيدة، هادئـة البال، وسيصلون على روحي في الكنيسة. ولكنني كنت أحن أكثر فأكثر إلى فانيا. عشرون عاماً مرت ولا خبر عنه. ربـما مـات منـذ زمن بعيد وأنا لا أعلم. كانت الشفقة تعتريني نحوه عندما أتذكر ذلك اليوم، حين أتوا به مضروباً، أذكر كيف سحبناه وأضجعناه على السرير، وكيف ظل نائماً كالميت طوال النهار. دخلت منصتة

إلى صوت أنفاسه: أحيّ هو أم ميت؟ كان راقداً في الغرفة ممزق الثياب، جريحاً، يشخر ويشهق، تفوح منه رائحة حموضة كريهة.. كنت أحدق إليه بحنان وإحساس بالخزي، فهو رغم كل شيء قطعة من لحمي ودمي. نظرت إليه ونظرت، وأنصت وخرجت. أي كآبة داهمتني. تعشيت رغماً عني، ثم رتبت الطاولة وأطفأت النور...ولكنني لم أستطع النوم. كان بدني كله يرتجف... وكانت ليلة ساطعة القمر. سمعت صوته...لقد استيقظ. كان لا يكف عن السعال والخروج إلى الفناء صافقاً الباب خلفه.

- مابك داخلاً خارجاً؟

- بطني يؤلمني.

أحسست بالقلق والحزن يخترمان صوته.

- اشرب زهورات.

ثم رقدت مرة أخرى، بل غفوت قليلاً. فجأة شعرت وأنا نائمة بشخص يتسلل إلى الغرفة. نهضت فرأيته أمامي:

- لا تجزعي يا أماه بحق المسيح.

وأجهش في البكاء. جلس على حافة فراشي، محتضناً كفيّ. مغرقاً إياهما بالقبل والدموع، مختنقاً بنحيبه. فلم أحتمل هذا، وانتفضت مبتعدة عنه. مؤسف طبعاً ولكن ليس بمقدوري

سلوك مسلك آخر. فمصيري متعلق بـه، وكـان هـو أيـضاً، كـما رأيت يدرك هذا جيداً.

- أستطيع الصفح عنك، ولـيس بإمكـاني فعـل شيء. ارحـل عني إلى أي مكان تريد ولكن بحيث لا أسمع عنك خبراً.

- ماما...لماذا تقتلينني كما قتلـت ذلـك الكـسيح... نيكـانور ماتفييتش؟

لم أناقشه، فهـو لا يعـي مـا يقـول، بكـى طـويلاً، ثـم نهـض وانصرف. وفي الصباح دخلت الغرفة التي بات فيها ليلته فلم أر أثراً له. إذن فقد انصرف باكراً لإحـساسه بـالخزي. وبعـد ذلـك اختفى وكأنما ابتلعه اليم. بلغني فيما بعد أنه يعيش في أحد أديـرة زادونـسك، وأنـه انتقـل بعـد ذلـك إلى تساريتـسين، وأنـه، كـما فهمت، حطم رأس أحدهم هنا...لماذا أفكر به.. إذ لا ينوبني من ذلك إلا وجع القلب. دق الماء يظل ماء.

أما ما قاله عن نيكانور ما تفييتش فليس سـوى حماقـة.. إذ لم أبتز منه مبلغاً ضخماً، ولم أسرق من جيبه شـيئاً، هـو نفـسه كـان يدرك قبحه، وكثيراً ما كانت الكآبة تنتابه، فيقول لي:

- ناستيا، القدر جعل مني كسيحاً، ومنحنـي طبعـاً جنونيـاً، وأحيانا يفترسني الحزن وكأنني مقدم على كارثة، وخاصة في حر

الصيف وغباره... لدرجة أشتهي معها الانتحار. سأموت، وسيدفنونني في مقبرة تشرنوسلابودسكايا وسيظل ذلك الغبار يتطاير عبر السور، فوق قبري إلى الأبد.

- ماذا تقول يا نيكانور ماتفييتش، ولم يحزنك هذا، فنحن لن نحس به.

- صحيح، ولكن المصيبة أننا نفكر بهذا ونحن أحياء.

كان الضجر مميتاً حقاً في بيت ساماخفالوف. ما إن يغفو الجميع بعد الغداء حتى تنفث الريح علينا ذلك الغبار، وقد شنق نفسه في يوم حار للغاية، وفي وقت ميت تماماً، إنها مدينة، للحق، مملة بشكل مرعب. منذ فترة وجيزة زرت مدينة تولا... لا مجال للمقارنة.

١٩١١

ضربة شمس

خرجا بعد الغداء من المطعم المضاء بـأنوار سـاطعة حـارة إلى سطح السقيفة وتوقفا عند الدرابزين. أغمضت عينيها وأسندت خدها إلى ظاهر كفها، وأفلتت ضحكة بسيطة فاتنـة – كـل شيء كان فاتناً في هذه المرأة الصغيرة – وقالت:

- أعتقد أنني سكرانة... من أين أتيت؟ قبل ثلاث ساعات لم أكن أعلم حتى بوجودك على الأرض. بل إنني لاأعرف مـن أي محطة صعدت. من سمارا؟ على كل الأمر سواء بالنسبة لي. أرأسي تدور أم المركب ينعطف بنا؟

امتد أمامهما سهل من العتمة والقناديل. كانت العتمة ترسـل إليهما ريحاً قوية طرية تلطم وجهيهما، أما الأضواء فكانت تهرول على الجوانب مبتعدة. كان المركب يرسم بحدة قوساً واسعة وهو يركض إلى محطة صغيرة.

أخذ الملازم يدها ورفعهـا إلى شـفتيه. كانـت يـدها الـصغيرة القوية تفوح بعبق بشرة لوحتهـا الـشمس. وتـسمر قلبـه بغبطـة

ووجيف عندما تخيل سمرة ومتانة جسدها، تحت هذا الثوب الرقيق، بعد شهر كامل من الرقاد تحت شمس الجنوب، على الرمل الساحلي الحار (قالت إنها قادمة من إنابا).

غمغم الملازم:

- هل ننزل؟

فسألت بدهشة:

- إلى أين؟

- إلى هذه المحطة.

- لماذا؟

فصمت... ومرة أخرى أرقدت كفها على خدها الحار.

- مجنون...

- فلننزل - كرر ببلادة - أرجوك.

- آه.. افعل ما يحلو لك.

وأشاحت بوجهها عنه.

ارتطم المركب المندفع بالمحطة ذات الضوء الخابي فكاد أن يقع أحدهما على الآخر. طوحت فوق رأسيهما نهاية حبل غليظ، ثم تراجعت إلى الوراء، فارت المياه بصخب، وهدرت الزوارق فركض الملازم كي يأخذ الأمتعة.

بعد دقيقة عبرا المكتب الغارق في النوم، وخرجا إلى الرمل العميق، وبصمت استقلا عربة (حنطور) مغطاة بالغبار. خيل إليهما أن هذه الدرب الصاعدة إلى الجبل، الطرية بفعل الغبار، الذاهبة بين قناديل قليلة معوجة، تمتد إلى ما لا نهاية، ولكن هاهما قد وصلا، وهاهما يذرعان الأرصفة، وهاهي ساحة ومنازل وبروج حراسة ودفء روائح هذه البلدة الليلة الصيفية تستقبلهما. توقف الحوذي قرب مدخل مضاء، ينهض خلف أبوابه المفتوحة درج خشبي قديم، صاعد بزاوية حادة. تناول خادم هرم غير حليق، يرتدي صداراً أحمر ومعطفاً، أمتعتهما بامتعاض، وسار أمامهما على قدمين مسحوقتين، دخلا حجرة كبيرة ولكنها خانقة بشكل مريع – كانت شمس النهار قد ألهبتها – تغطي نوافذها ستائر بيضاء مسدلة، وكان ثمة شمعتان على منضدة المرآة. ما إن دخلا وانصرف الخادم مغلقاً الباب خلفه حتى اندفع الملازم إليها وتوقفت أنفاسهما على قبلة مجنونة، ظلا لسنوات كثيرة يذكرانها: لم يعش أحد منهما مثل هذه اللحظة في عمره كله.

في العاشرة من صباح يوم مشمس، قائظ، سعيد، ممتزج بقرع أجراس الكنائس، وضجيج السوق في الساحة الممتدة أمام

الفندق، ورائحة القش والقطران، وبكل هذا الخليط الفواح لمدينة روسية نائية، رحلت المرأة الصغيرة التي لا اسم لها - لم تذكر له اسمها، وإنما كانت تطلق على نفسها مازحة اسم: المجهولة الرائعة - كان نومهما قصيراً ولكن صباحاً، عندما خرجا من خلف الحاجز القائم بمحاذاة السرير، واغتسلا بخمس دقائق وارتديا ملابسهما، كانت منتعشة كفتاة في السابعة عشرة. هل كانت مرتبكة؟ كلا، قليلاً جداً، وكالسابق كانت بسيطة، مرحة، ولكن علائم التعقل بدأت تظهر عليها...

- لا... لا يا عزيزي - قالت جواباً على طلبه بأن يرحلا معاً، لا، ينبغي عليك أن تبقى حتى السفينة القادمة. إذا ما رحلنا معاً فسوف يخرب كل شيء. وهذا ما سيضايقني للغاية. أقول كلمة شرف أنني لست أبداً كما يمكن لك أن تظنني. ما حدث لي لم يسبق له مثيل ولن يتكرر... ما حدث أشبه بالكسوف، أو بالضبط، كأن كلاً منا تلقى ضربة شمس..

وافقها الملازم بخفة، وبخفة وبسرور رافقها إلى المحطة فوصلا في اللحظة التي استعدت «الطائرة» الوردية فيها للمسير، وقبلها أمام الجميع على سطح السفينة، وبالكاد أفلح في القفز إلى السقالات التي بدأت تتراجع إلى الخلف.

وبخفة أيضاً ودعة عاد إلى الفندق. ولكـن شـيئاً مـا كـان قـد تغير، فالحجرة بدونها بدت مختلفة تماماً عـما كانـت عليـه معهـا. كانت ممتلئـة بهـا وفارغـة. شيء غريـب. كانـت تفـوح بعطرهـا الإنكليـزي الـشذي، وكـان فنجانهـا الـذي لم يفـرغ واقفـاً عـلى الصينية، أما هي فلم تعد موجودة هنـا...انقـبض قلـب المـلازم فجأة برقة، فدخن وذرع الحجرة مرات عديدة.

مغامرة عجيبة – قال لنفسه بـصوت مرتفـع وهـو يـضحك ويحس بالدمع يحوم حول عينيه «أقول كلمة شرف، إنني لـست أبداً كما يمكن لك أن تظنني...» ورحلت... امرأة خرقاء!

كان الحاجز مزاحاً والـسرير لم يرتـب بعـد. وكـان يحـس أنـه يفتقد القـوة للنظـر إلى هـذا الفـراش، فغطـاه بالحـاجز، وأغلـق النافذة كيلا يسمع أحاديث السوق وصريـر العربـات، وأسـدل الستائر البيضاء المنتفخة وجلس على الأريكة... هـاهي «مغـامرة السفر» قد انتهت، رحلت وربما تجلس الآن في صالون زجـاجي أبيض، أو على سطح المركب تنظر إلى النهـر الهائـل المتـألق تحـت الـشمس، وإلى المراكـب الأخـرى المعاكـسة، والبقـع الـضحلة الصفراء من النهر، وإلى الأفق المتلألئ للـماء والـسماء، وإلى آمـاد «الفولغا» اللامتناهية. هاقد ودعتها إلى آخر العمر، إلى الأبد.. إذ

أين يمكن أن نلتقي مرة أخرى؟ « لاأستطيع، لا أستطيع أن أسافر هكذا ببساطة إلى مدينتها، حيث تقيم وزوجها وابنتها ذات الثلاثة أعوام، وكل أسرتها عموماً وحيث تعيش حياتها اليومية» وبدت له هذه المدينة شديدة الخصوصية، سرية، وسحرية، وأذهلته فكرة أنها ستعيش في هذه المدينة حياتها العزلاء وهي تتذكره، تتذكر لقاءهما الخاطف العابر في حين أنه لن يراها أبداً. كلا، هذا مستحيل، هذا شيء بربري مناف للطبيعة والحقيقة –وأحس بالألم وبخواء كل حياته المقبلة بدونها، وتملكه الرعب والقنوط.

ما هذه اللعنة؟ نهض وراح يذرع الغرفة مرة أخرى محاولاً ألا ينظر إلى الفراش القابع خلف الحاجز «ما هذا الذي يحدث لي؟ ما الذي يميزها، بل ماذا حدث عموماً؟ فعلاً كأنها ضربة شمس، المهم الآن كيف أستطيع قضاء يوم كامل بدونها في هذه البقعة النائية؟

كان مايزال يذكرها كلها بأدق خصائصها، يذكر رائحة بشرتها الملفوحة بالشمس، وثوبها الخفيف، وجسدها النضر المتين، ورنين صوتها الحيي المرح البسيط.. كان الإحساس باللذة المستقاة لتوها من بهائها الأنثوي ما يزال ينبض فيه بشكل غير

عادي، غير أن ما كان يشغله الآن إحساس آخر جديد، هو ذلك الإحساس الغريب الغامض الذي لم يكن يتوقع أبداً أن ينبثق في ذاته، عندما انخرط، البارحة في تلك الصحبة المسلية لا أكثر – كما كان يظن – والذي لا يستطيع الآن أن يحدثها عنه «أبداً لن أستطيع أن أحدثها عنه. ما العمل؟ وكيف أقضي هذا النهار الطويل مع هذه الذكريات وهذا العذاب الذي لا يفارقه، في بلدة نسيها الرب، ترقد فوق الفولغا نفسها، التي حملت مركبها الوردي».

كان من الضروري أن ينقذ نفسه بطريقة ما، أن ينشغل ويتسلى عنها، أن يذهب إلى مكان من الأمكنة. اعتمر صدارته بتصميم، وتناول عصاه، وعبر الممر الفارغ بسرعة ومهمازاه يخشخشان، وانزلق على الدرج المنحدرة بحدة إلى المدخل... إلى أين يذهب؟ كان يقف عند المدخل حوذي شاب يرتدي معطفاً حسن التفصيل، ويدخن سيجارته بهدوء. نظر الملازم إليه بذهول واستغراب: كيف يمكن لامرئ الجلوس والتدخين هكذا بدعة، وعموماً كيف يمكن للإنسان أن يكون بسيطاً، خالي البال، لا مبالياً. «لعل لا أحد سواي في المدينة كلها يحس بهذه التعاسة الفظيعة» واتجه إلى السوق.

كان السوق قد بدأ يقفر. فمشى على القذارة الرطبة، بين العربات المحملة بالخيار، بين الصحون والجرار والنساء الجالسات على الأرض اللواتي كن ينادينه بأصوات متقاطعة، حاملات الجرار بأيديهن وهن يقرعنها بأصابعهن، لإظهار متانتها، أما الرجال فقد أصموه وهم يصرخون به «خيار أفضل صنف يا سيدي الكريم». كان كل هذا يبدو له أخرق، غبياً بحيث أنه ركض من السوق مبتعداً. ذهب إلى الكاتدرائية حيث كان المصلون يغنون بصوت جهوري، فرح واثق، وبإحساس من يؤدي واجبه، ثم تمشى طويلاً في حديقة صغيرة قائظة، مشعثة، عند منحدر جبلي، فوق رحابة النهر الفولاذية، الساطعة اللامتناهية. كانت أزرار وكتافيتا سترته قد سخنتا بحيث لا يمكن مسهما، أما إطار سدارته فكان مبتلاً كله من الداخل بالعرق، وكان وجهه مضطرماً... عاد إلى الفندق، ودلف بلذة إلى المطعم الكبير الفارغ المبترد، في الطابق السفلي، وبلذة أيضاً خلع السدارة وجلس إلى طاولة صغيرة قرب نافذة مفتوحة، كان يأتي منها الوهج، ولكن مع ذلك، كان يصاحبه نسيم رقيق، وطلب حساءً بارداً مع الثلج... كان كل شيء حسناً، وكان ثمة سعادة لا متناهية وفرح عظيم في كل ما يحيط به. حتى في هذا القيظ، وروائح السوق، وهذه البلدة المجهولة والفندق العتيق

النائي، ولكن، في الوقت نفسه، كان القلب يتمزق. احتسى عدة أقداح من الفودكا متمززاً بخيار مخلل وخس، وأحس أن بمقدوره الموت غداً، دونما تفكير، فيما لو أمكن استعادتها بمعجزة وقضاء نهار آخر معها، كي يبوح لها، فقط كي يبوح ويبرهن ويقنعها أنه بألم وفرح يحبها... لم البرهنة. ولم الإقناع؟ كان يجهل الجواب ولكن كان هذا بالنسبة له أهم من الحياة نفسها.

أفلتت أعصابي تماماً — قال وهو يصب قدح الفودكا الخامس. أبعد الحساء من أمامه، وطلب قهوة ثم راح يدخن بتوتر مفكراً: ما الذي ينبغي علي عمله، كيف أتخلص من هذا الحب الخاطف المباغت؟ ولكن التخلص منه غير ممكن — كان يحس هذا بقوة — نهض فجأة ومرة أخرى تناول السدارة والعصا، وسأل أين يقع مبنى البريد، وتوجه مسرعاً إلى هناك، وفي رأسه جملة جاهزة لبرقية: حياتي منذ الآن وإلى الأبد حتى القبر، ملك لك، تحت سلطتك». ولكن عندما بلغ البناء الهرم ذي الجدران السميكة، حيث يقع مركز البرق. توقف مذعوراً: كان يعرف مدينتها، ويعرف أنها متزوجة ولها طفلة في الثالثة من عمرها، ولكنه لم يكن يعرف كنيتها واسمها. لقد سألها عدة مرات عن ذلك البارحة، عند الغداء وفي الفندق وكانت في كل مرة تضحك قائلة:

- ولماذا تريد أن تعرف من أنا وما هو اسمي؟

على الزاوية قرب البريد، كان ثمة واجهة لمحل تصوير فوتوغرافي. حدق طويلاً إلى صورة ضابط، يرتدي معطفاً ذا كتافيتين غزيرتي الوبر، جاحظ العينين، ضيق الجبهة، ذي سالفين جميلين بشكل مدهش، وصدر عريض للغاية مزين بالنياشين... كم يبدو مرعباً ووحشياً كل ما هو يومي وعادي عندما يكون القلب مصعوقاً، أجل إنه مصعوق – لقد فهم هذا الآن - «بضربة الشمس» المرعبة تلك، وبحب وسعادة كبيرين لدرجة الإفراط؟ نظر إلى صورة لزوجين شابين، فتى يرتدي معطفاً طويلاً وربطة عنق بيضاء، بتسريحة على شكل قنفذ، وقف نافخاً صدره، واضعاً يده تحت يد فتاة بإكليل العرس، ثم نقل بصره إلى صورة بنت جميلة، جريئة، تعتمر سدارة مدرسية مائلة. أحس بالحسد يضنيه وهو يرمق هؤلاء المجهولين السعداء، وراح يتملى الشارع بعينين متوترتين.

إلى أين أذهب؟ ماذا أفعل؟

كان الشارع خاوياً تماماً، وكانت البيوت – بيوت تجار كلها - متشابهة: بيضاء، مزدوجة الطوابق، تحيط بها حدائق واسعة، وكانت تبدو كأنها ليس فيها روح حية واحدة. كان ثمة غبار

كثيف أبيض يغطي الرصيف ويبهر البصر، ملفعاً بشمس حارة، لاهبة، بهيجة وغير مجدية. وكان الشارع، عند الأفق، يتحدب مستنداً إلى قاع السماء الرمادية الصافية. كان هذا يتسم بملمح جنوبي يذكر بسيفاستوبول وكيرتش وإنابا، وكان غير محتمل على الإطلاق. ضيق الملازم عينيه من الضوء، مخفضاً رأسه ناظراً إلى ما بين قدميه، ثم قفل عائداً وهو يترنح، إذ تعثر عندما علق أحد المهمازين بالآخر.

عاد إلى الفندق محطماً من التعب، وكأنه قطع مسيرة هائلة في تركستان أو الصحراء. استجمع آخر قواه ودخل الحجرة الكبيرة الخاوية. كانت الحجرة قد رتبت فاختفت آخر آثارها. لم يكن هناك سوى دبوس شعرها الذي نسيته على المنضدة. خلع سترته ونظر إلى صورته في المرآة: كان وجهه وجه ضابط عادي، وكان رمادياً من لفح الشمس، ذا شاربين ضاربين إلى البياض أحرقتهما الشمس، وعينين ببياض مائل إلى الزرقة، وقد بدتا، من لفح الشمس، أكثر بياضاً، كما علت وجهه تعابير مستوفزة مجنونة، أما قميصه الأبيض الرقيق ذو الياقة الصلبة المنشاة، فكان يضفي عليه شباباً تعيساً إلى حد عميق. اضطجع في السرير على ظهره. واضعاً جزمته على طرفه. كانت النوافذ مفتوحة، والستائر مسدلة، وكان

النسيم، بين حين وآخر ينفخها، نافثاً في الغرفة سخونة الأسطحة الحديدية المحماة، وكل عالم الفولغا الثري بالضوء المقفر والصامت الآن. رقد عاقداً يديه تحت رأسه، محدقاً بثبات إلى أمامه. ثم كز على أسنانه وأرخى جفنيه وأحس بالدمع ينحدر من تحتهما إلى خديه و...غفا. وعندما فتح عينيه مجدداً، كان لشمس المساء لون البرتقال. سكن النسيم، وكانت الغرفة جافة وخانقة كالفرن... وتذكر البارحة وصباح اليوم وكأنهما مرا منذ عشر سنوات.

نهض ببطء، وببطء اغتسل ورفع الستائر، ثم قرع الجرس وطلب السماور والحساب، وشرب الشاي بالليمون متمهلاً. بعد ذلك طلب إحضار حوذي وإخراج الأمتعة، وعندما جلس في العربة، على مقعدها الأحمر الملفوح، منح الخادم خمس روبلات كاملة. قال الحوذي وهو يمسك بالعنان:

- أعتقد يا سيدي أنني أتيت بك إلى هنا ليلاً أيضاً.

كانت السماء فوق الفولغا، عندما انحدرا إلى المحطة، ملفعة بليل صيفي أزرق، وكانت أضواء كثيرة مختلفة الألوان منثورة على النهر، وأضواء أخرى معلقة على صواري المركب المقترب.

أوصلتك في الوقت المحدد بالضبط – قال الحوذي متملقاً. فنقده الملازم خمس روبلات أيضاً، وتناول البطاقة ودخل

المحطة.. كان ينبعث من جسر الركوب، كما في الأمس قرع خفيف، وانتاب رأسه دوار بسيط من اهتزاز السطح تحت قدميه، وبعد ذلك انفلت الحبل، وضج الماء الفاتر المندفع إلى الأمام تحت عجلات المركب المتقهقر إلى الوراء... وأحس بألفة جميلة غير عادية في زحام المركب المضاء كله، الفواح بروائح المطبخ.

بعد دقيقة انطلق المركب نحو الشمال، إلى حيث ذهب البارحة صباحاً بها. كان السحر المعتم الصيفي ينطفئ بعيداً في الأفق، مغبشاً وناعساً، متمازج الألوان، منعكساً في النهر الذي ظل، في بقع منه، مضاء بالرقرقة المتموجة في البعد تحته، تحت هذا السحر، وسبحت الأضواء وسبحت، متراجعة، مبددة، في العتمة المحيطة.

جلس الملازم تحت سقيفة على سطح المركب، وهو يحس بأنه قد تقدم في السن عشر سنوات.

١٩٢٥

الأنفاس الخفيفة

نهض في المقبرة، فوق حدبة غضار طري، صليب جديد من خشب البلوط متين، ثقيل، أملس.

إنه نيسان بنهاراته الرمادية. كانت شواهد هذه المقبرة الريفية الواسعة تتراءى من بعيد، عبر الأشجار العارية، وكانت الريح الباردة تصفر وتصفر في إكليل الزهور الخزفي الراقد عند قدم الصليب.

أما الصليب نفسه فكان يحمل إطاراً خزفياً نافراً، كبيراً إلى حد ما. يضم بدوره صورة فوتوغرافية لتلميذة ذات عينين فرحتين ومتألقتين بشكل مدهش.

إنها أوليا ميشيرسكايا.

لم تكن في صغرها، تتميز بشيء عن حشد الصداري المدرسية البنية، إذ ماذا كان يمكن القول عنها سوى أنها واحدة من البنات اللطيفات السعيدات، سوى أنها طفلة موهوبة، ولكن

مشاكسة وعديمة الاكتراث بتلك النصائح التي كانت تقدمها مربية الصف لها؟

غير أنها، فيما بعد، بدأت تتفتح وتنمو لا بالأيام وإنما بالساعات. عندما بلغت الرابعة عشرة تكون لديها خصر نحيل وساقان رشيقتان ثم بالإضافة إلى هذا نهد لها صدر جميل، وارتسمت لديها كل تلك الأشكال التي تعجز الكلمة البشرية عن وصف سحرها، وفي الخامسة عشرة ذاع صيتها كحسناء. بأي أناة كانت رفيقاتها يسرحن شعورهن، وبأي حرص كن يراعين نظافتهن ورصانة حركاتهم!! أما هي فلم تكن تخشى شيئاً: لا بقع الحبر على أصابعها، ولا احمرار الوجه، ولا تشعث الشعر، ولا انكشاف الركبة عندما تقع وهي راكضة.

لقد أتاها، خفية ودونما عناية أو جهد، كل ما كان يميزها في العامين الأخيرين عن المدرسة كلها: الحسن والأناقة والخفة وألق العينين الساطع. لم يكن ثمة فتاة ترقص في الحفلات كأوليا ميشيرسكايا، ولم يكن أحد يتزلج على الثلج مثلها، كما لم تغازل بنية في الحفلات مثلما غوزلت، ولم تحب الصفوف الدنيا أحداً مثلما أحبتها. هكذا وبشكل غير ملحوظ أصبحت فتاة، وبشكل ملحوظ أيضاً توطد مجدها المدرسي، وبدأت الأقاويل تصفها

بــالطيش، وبأنهــا لا تــستطيع العــيش دون معجبــين. وكانــت الشائعات تردد أيضاً أن التلميذ شينـشين واقـع في هواهـا حتـى الجنون، وأنها هي أيضاً تحبه، ولكنهـا ظلـت تتقلـب في علاقتهـا معه حتى حاول الانتحار.

لقد كانت أوليـا ميـشيرسكايا في شـتائها الأخـير، كـما كـانوا يردوون في المدرسة، مجنونة من المرح. كان ذلـك الـشتاء ثلجيـاً، مشمساً صقيعياً، وكانت الشمس تنزلـق في وقـت مبكـر خلـف بستان الشوح العالي التابع للمدرسة، ولقد ظل الطقس صـافياً، مشعاً، واعداً بالشمس والصقيع وبالنزهات في شارع الكاتدرائية، وبالتزلج في حديقة المدينة. وبالأماسي الوردية والموسيقى، وبتلك الجموع المنزلقة إلى كل الأطراف في ساحة التزلج والتي كانت أوليا ميشيرسكايا تبدو أسعدها وأخلاها بالاً.

ذات مــرة في الاســتراحة الكــبرى، عنــدما كانــت منطلقــة كالنسمة في قاعة الاجتماعـات، هاربـة، مـن تلميـذات الـصف الأول اللواتي كن يطاردنها وهن يزعقن ببهجة، استدعيت، عـلى غير انتظار، إلى المديرة، فتوقفت عن عدوها مطلقة تنهيدة واحدة عميقة، ثم، بحركة أنثوية سريعة مألوفة رتبت شـعرها وشـدت الصدرية إلى كتفيها، وركضت بعينـين ملتمعتـين نحـو الأعـلى،

كانت المديرة – وهي امرأة لم تفارقها علائم الصبا، غير أن الشيب علاها – تجلس خلف مكتبها، تحت صورة القيصر، ويداها منهمكتان بحياكة الصوف. قالت بالفرنسية دون أن ترفع عينيها عن صوفها:

- أهلاً يا مدموزيل ميشيرسكايا، للأسف ليست هذه المرة الأولى التي أضطر فيها لاستدعائك من أجل الحديث معك فيما يتعلق بسلوكك.

فأجابت ميشيرسكايا، وهي تقترب من المكتب، ناظرة إلى المديرة بوضوح وحيوية ولكن دونما أي تعبير على الوجه:

- إنني مصغية يا مدام.

ثم جلست بخفة ورشاقة لا يتقنها أحد سواها.

فقالت المديرة وهي تشد الخيط، مدورة شلة الصوف على الأرض اللامعة.

- أنا متأكدة، للأسف، من أنك ستسيئين الإصغاء إلي.

كانت ميشيرسكايا تنظر إلى شلة الصوف بفضول.

رفعت المديرة عينيها ثم أردفت:

- لا أريد تكرار ما قلته مراراً: كما لا أريد إطالة الحديث معك.

كانت ميشيرسكايا معجبة للغاية بهذه الغرفة الكبيرة النظيفة بشكل خارق، المفعمة بدفء الموقد الصقيل، الفواحة بعطر أزهار السوسن الموضوعة على المكتب. ألقت نظرة على القيصر الشاب، المرسوم بكل قامته وسط قاعة فاخرة، وعلى المفرق المستقيم الممتد عبر شعر المديرة الحليبي المتموج برهافة، وصمتت منتظرة.

قالت المديرة بلهجة متعددة المعاني، يشوبها انزعاج خفي:

- أنت لم تعودي بنتاً صغيرة.

فأجابت ميشيرسكايا ببساطة ومرح:

- أجل يا مدام.

ولكن المديرة تابعت بلهجة حملت مزيداً من المعاني، وقد أخذ وجهها المربد بالتورد:

- ولكنك لم تصبحي امرأة بعد، فلم هذه التسريحة؟ إنها تسريحة امرأة.

رددت ميشيرسكايا، وهي تلامس بيديها الاثنتين شعرها المصفوف بعناية:

- لست مذنبة يا مدام في أنني أملك شعراً جميلاً.

- هكذا إذن: لست مذنبة في التسريحة، ولا في هذه المشابك الباهظة الثمن، لست مذنبة في أنك تقودين والديك إلى الإفلاس بشرائك أحذية بعشرين روبلاً: لكنني أكرر لك: أنت تنسين تماماً أنك ما تزالين تلميذة.

وهنا قاطعتها ميشيرسكايا فجأة، باحترام، ودون أن تفقد هدوءها وبساطتها:

- عفواً يا مدام أنت مخطئة فأنا امرأة، أتعرفين من هو المذنب في هذا؟ إنه صديق أبي وجاره أخوك ألكسي ميخايلوفيتش مالوتين. لقد حدث ذلك، في القرية، الصيف الفائت...

بعد هذا الحوار بشهر، قام ضابط قوزاقي، قبيح وذو مظهر دهماوي، لا يملك أي قاسم مشترك والوسط الذي كانت تنتمي إليه أوليا ميشيرسكايا، بإطلاق النار عليها فوق رصيف المحطة، وسط حشد كبير قدم لتوه مع القطار الواصل، عندها تأكد تماماً اعتراف أوليا ميشيرسكايا المذهل للمديرة: فقد أعلن الضابط للمحقق الجنائي أن ميشيرسكايا كانت قد أغوته وأقامت علاقة قرب حميم معه، مقسمة أنها ستكون زوجة له، ولكنها في المحطة، يوم القتل، حيث كانت تودعه وهو مسافر إلى نوفوتشيركاسك، قالت له فجأة بأنها لا تحبه. بل وأنها لم تكن

تنوي ذلك أبداً، وأن كـل أحاديثهـا عـن الـزواج لم تكـن سـوى سخرية به. ثم أرته تلك الصفحة من مذكراتها التي تتحدث فيها عن مالوتين.

قال الضابط:

- لقد ركضت بعيني فوق السطور ثم أطلقت النار عليهـا في الحال وهي تتمشى على الرصيف منتظـرة انتهـائي مـن القـراءة. هاهو دفتر مذكراتها اقرؤوا ما كتبته في العاشر من تموز الماضي.

جاء في الدفتر مايلي:

«الساعة الآن الثانية ليلاً. لقد نمت بعمق، لكنني سرعان مـا استيقظت. اليوم أصبحت امرأة»!! بعد رحيل أبي وأمـي وتوليـا إلى المدينة بقيت وحدي!! تنزهـت صـباحاً في الحديقـة. وجبـت الحقل والغابة كما لم أفعل ذلك في حياتي. ثـم تغـديت بمفـردي، وعزفت بعـد ذلـك، سـاعة كاملـة. كـان يـراودني، تحـت تـأثير الموسيقى إحساس بأنني سأعيش أبـداً، وبـأنني سـأكون أسـعد الناس. ثم غفوت في مكتب والدي. وفي الساعة الرابعة أيقظتني كاتيا كي تعلمني بمجيء ألكسي ميخايلوفيتش. فرحت به جداً، وكان من دواعي سروري أن أستقبله وأسليه. لقـد أتـى في عربـة يجرها حصانان جميلان للغاية، مكثا طـوال الوقـت عنـد أسـفل

الدرج. توقف عندنا لأن المطر كان يهطل، ولأنه كان يريد الانتظار حتى المساء، إلى أن تجف الدرب قليلاً، ولقد أبدى أسفه لغياب أبي وكان جذلاً، وعاملني كما يليق بفارس ومازحني كثيراً مردداً بأنه واقع في حبي منذ زمن بعيد. عندما تنزهنا في الحديقة بعد تناول الشاي، أصبح الطقس رائعاً من جديد، ولمعت الشمس عبر الحديقة المبتلة كلها، رغم البرد الذي حل. كان يسير إلى جانبي ممسكاً بيدي وهو يقول بأنه فاوست برفقة مارغريت. كان له من العمر خمسة وستون عاماً، لكنه مايزال وسيماً للغاية حسن اللباس – لم يعجبني فيه فقط أنه أتى إلينا بمعطف من طراز بائد –وكانت تفوح منه رائحة كولونيا إنكليزية. أما عيناه فكانتا شابتين للغاية وسوداوين، وأما لحيته فكانت فضية تماماً ومفروقة إلى ذؤابتين جميلتين طويلتين. عند تناول الشاي جلسنا في الشرفة الزجاجية ثم شعرت بنفسي متوعكة، فتمددت على الأريكة. أما هو فكان يدخن، ثم جلس إلى جانبي راح يلاطفني بعباراته الدمثة، وبعدها بدأ يحدق إلى يدي ويلثمها. غطيت وجهي بمنديلي الحريري...فطبع بضع قبلات على شفتي عبر المنديل... إنني لا أفهم كيف أمكن لهذا أن يحدث، ولم أكن أتصور نفسي أبداً، هكذا، الآن ليس أمامي

سوى مخرج وحيد... إذ أنني أحس تجاهه بتقزز لا يمكنني العيش معه».

أصبحت المدينة خلال نيسان هذا نظيفة، جافة، وابيضت أحجارها، وصار من الممتع التنزه فيها. كان ثمة امرأة صغيرة القد ترتدي ثياب الحداد وقفازين جلديين أسودين، وتحمل مظلة من الخشب الأسود، تعبر كل أحد بعد القداس، شارع الكاتدرائية متجهة إلى مخرج المدينة. كانت تقطع الساحة القذرة التي تتوسط الطريق العام، والمكتظة بكثير من ورشات الحدادة الملفعة بهباب الفحم، وحيث تهب نسائم الحقول النقية. بعد ذلك تمشي فيما بين الدير الرجالي والسجن، حيث تنحني السماء الغائمة، ويمتد حقل ربيعي رمادي، ومن ثم تمضي وسط البرك بمحاذاة جدار الدير، وتنعطف نحو اليسار حيث يطالعها ما يشبه حديقة كبيرة واطئة، محاطة بسور أبيض كتب على بوابته «مثوى أم الرب». كانت المرأة الصغيرة ترسم شارة الصليب باقتضاب، ثم تمضي كعادتها في الممشى الرئيسي وعندما تبلغ المقعد المواجه للصليب البلوطي، تجلس في الريح، وفي برد الربيع، ساعة أو اثنتين إلى أن تتجمد قدماها في الحذاء الخفيف، ويداها في القفازات الجلدية. كانت تحس أحياناً وهي تنصت إلى الطيور الربيعية، التي تغني برقة حتى

في البرد، وإلى صفير الـريح في الإكليـل الخـزفي، أن باسـتطاعتها التخلي عن نصف حياتها مقابـل ألا تـرى أمامهـا هـذا الإكليـل الميت، هذه الحدبة وهذا الصليب البلوطي!! إذ هل يعقل أن ترقد هنا تلك التي تلمـع عيناهـا، مـن الـصورة الخزفيـة النـافرة عـلى الصليب بألق الخلود؟ وكيف يمكن الربط مـا بـين هـذه النظـرة الصافية، وذلك الشيء المرعب المقترن باسم أوليا ميـشيرسكايا؟ ولكن المرأة الصغيرة كانت سعيدة في أعماقها، كـأي إنـسان نـذر نفسه لحلـم ما جامح. كانت هـذه المـرأة هـي مربيـة صـف أوليـا ميشيرسكايا، لقد كانت عانساً فارقها الشباب، تعيش منـذ زمـن بعيد على وهم ما، يحل لديها محـل الواقـع. كـان ذلـك الـوهم في البداية أخاً لها فقيراً، ملازماً ثانياً لا يتميز بشيء. لقد ربطت كـل روحها به، وبمستقبله الذي يبدو لها لسبب مـا، لامعـاً. وعنـدما قتل بالقرب من موكدين، بدأت تقنع نفسها بأنها كادحة فكريـة. ثم أسرها موت أوليا ميشيرسكايا بحلم جديد. وأصبحت أوليـا الآن موضوعاً لأفكارها ومشاعرها الراسخة. إنها تزور قبرها في كل عيد، وتجلس هناك ساعات من دون أن تخفض بـصرها عـن الصليب البلوطي، مستدعية في ذاكرتها وجه أوليا الصغير الممتع في النعش بين الزهور، وتلك الكلمات التـي سـمعتها ذات مـرة،

ففــي أحــد الأيــام، أثنــاء الاســتراحة الكــبرى، كانــت أوليــا ميشيرسكايا تقول بعجلـة لـصديقتها الحميمـة سـوبوتينا، تلـك الفتاة الطويلة البدينة وهما تتمشيان في حديقة المدرسة:

- قرأت في كتـاب أبي – فلديـه الكثـير مـن الكتـب القديمـة المضحكة – عن الخصال التي ينبغي على المرأة أن تتحلى بهـا كـي تكون حسناء... ولقد ذكـر الكتـاب خـصالاً كثـيرة لم أحفظهـا كلها... طبعاً ينبغي عليها أن تتحلى بعينين سـوداوين كـالقطران المغـلي، أقـسم بـالله، هـذا مـا كـان مكتوبـاً: كـالقطران المغـلي. وبرموش سـوداء كالليـل، ووجنتـين متـوردتين برقـة، وخـصر نحيل، ويدين أطول من المعتاد، أتفهمـين، أطـول مـن المعتـاد.. وقدمين صغيرتين، وصدر كبـير إلى حـد معقـول، وربلـة سـاق مستديرة بدقة، وركبة بلون المحار، وكتفين مائلين. لقد حفظـت هذا كله غيباً إذ أنه الحقيقة عينها، ولكـن أتعـرفين مـا هـي أهـم خصلة؟ إنها الأنفاس الخفيفة!! وهـي موجـودة لـديّ. اسـمعي كيف أتنفس... إنها موجودة لدي حقاً أليس كذلك؟

والآن ها هي الأنفاس الخفيفة تتبدد من جديـد في العـالم، في هذي السماء الغائمة، وهذا النسيم الربيعي البارد.

١٩١٦

الماشي المعتمة

في يوم خريفي بارد وغائم، تهادت على إحدى الطرق الكبيرة في منطقة تولا، المغطاة بماء المطر، المخرمة بعديد من الخطوط العميقة السوداء، وبالقرب من بيت ريفي طويل، يضم في آن معاً محطة بريد حكومية، ونزلاً خاصاً يمكن الاستراحة أو المبيت فيه، وتناول الغداء أو طلب السماور، تهادت عربة ملطخة بالوحول، ذات غطاء نصف مرفوع، يجرها ثلاثة جياد بسيطة إلى حد ما، بذيول صلّبها الطين. احتل مقعد العربة الأمامي رجل قوي البنية يرتدي عباءة صوفية محزومة جيداً، ذو وجه جدي متجهم، ولحية خفيفة بلون القطران، وهو عموماً يشبه لصاً عتيقاً، أما في العربة فقد جلس عسكري عجوز، رهيف القامة، بقبعة عسكرية كبيرة، ومعطف رمادي ذي ياقة من الفرو منتصبة. كان شارباه أشيبين، رغم سواد حاجبيه، متصلين بسالفين أبيضين مثلهما. كانت لحيته حليقة، وكان بمظهره

الخارجي يشبه إلى حد بعيد ألكساندر الثاني. هذا التشبه كان سائداً للغاية بين العسكريين في زمن حكمه. كانت نظرته متسائلة. صارمة، وفي الوقت نفسه متعبة.

عندما توقفت الجياد ألقى من العربة بقدم ترتدي جزمة عسكرية ذات ساق ملساء، ثم قفز، ويداه عبر القفازين الجلديين تمسكان بأذيال معطفه، إلى درج البيت.

صرخ الحوذي من مقعده بخشونة:

- إلى اليسار يا صاحب السعادة.

فانحنى ذاك قليلاً وهو يعبر البوابة، لطول قامته، ثم مضى إلى اليسار. باتجاه النزل.

كان النزل دافئاً جافاً ومرتباً. وكان ثمة أيقونة مذهبة تحتل الزاوية اليسرى، وتحتها نهضت طاولة مغطاة بغطاء نظيف خشن، وخلف الطاولة كان هناك كراس منظفة بعناية، وفرن مطبخي يشغل الزاوية اليمنى الأبعد، يشع ببياض طازج، وفي الناحية الأقرب كان يمتد ما يشبه الأريكة، مغطى بستائر منقطة وقد حشر طرفه في خاصرة الفرن. ومن باب الفرن كانت تفوح رائحة الحساء العذبة: رائحة الكرنب المسلوق ولحم البقر وورق الغار.

ألقى المسافر بمعطفه إلى الكرسي، فبدت قامته في السترة والجزمة أكثر رشاقة. بعد ذلك خلع القفازين والقبعة، وبحركة متعبة مرر يده النحيلة على رأسه. كان شعره الأشيب ذو الوبر الناعم على الصدغين يتجعد بالقرب من زاويتي عينيه، وكان وجهه المتطاول الجميل ذو العينين السوداوين، يحفظ آثار حصبة خفيفة. لم يكن في المنزل أحد. فهتف بانزعاج فاتحاً أحد الأبواب:

- هيه... من هنا؟

وعقب ذلك في الحال أتت امرأة سوداء الشعر سوداء الحاجبين، ذات جمال لا يتناسب وسنها، تشبه غجرية كهلة، يعلو شفتها العليا وخديها زغب قاتم. كانت تسير بخفة رغم سمنتها وثدييها الضخمين تحت الكنزة الحمراء، وبطنها المثلث، كما لدى الإوز، تحت تنورتها الصوفية السوداء.

- أهلاً وسهلاً يا صاحب السعادة، بم تأمرون: بتقديم الطعام أم السماور؟

ألقى المسافر نظرة خاطفة إلى كتفيها المستديرين وقدميها الخفيفتين في الحذاء الأحمر التتري المهترئ، وأجاب بتقطع ودون اكتراث:

- السماور.. أنت صاحبة المنزل أم خادمة فيه؟

- صاحبته يا صاحب السعادة.

- إذن فأنت تديرينه بنفسك؟

- بالضبط، أديره بنفسي.

- لماذا؟ هل أنت أرملة كي تديريه بنفسك؟

- لست أرملة يا صاحب السعادة، ولكن ينبغي العيش بشكل ما. كما أنني أحب تدبير أموري بنفسي.

- هكذا إذن، شيء حسن. ما ألطف نزلك وما أنظفه.

كانت المرأة لا تكف طوال الوقت عن النظر إليه بفضول مضيقة عينيها.

- وأحب النظافة أيضاً. إذ أنني ترعرعت بين السادة، فكيف لا أحسن تدبير شؤوني بما يبعث على الاحترام يا نيقولاي الكسييفتتيش.

استقام بسرعة وفتح عينيه على سعتهما واحمر.

- ناديجدا، هذا أنت؟

- نعم أنا يا نيقولاي ألكسييفتتيش.

قال وهو يقتعد كرسياً دون أن يفارقها ببصره:

- يا إلهي...يا إلهي.. من يخطر على باله شيء كهذا، كم سنة مرت دون أن نلتقي؟ خمس وثلاثون سنة.

- ثلاثون يا نيقولاي ألكسييفتتيش. عمري الآن ثمانية وأربعون عاماً أما أنت فستبلغ الستين على ما أذكر.

- تقريباً.. يا إلهي ما أغرب هذا.

- وما الغرابة فيه يا سيدي؟

- كل شيء.. كل شيء.. كيف لا تفهمينني؟

اختفى تعبه وشروده، فنهض، وبخطوات ثابتة راح يذرع الغرفة محدقاً إلى الأرض، ثم توقف وقد احمر عبر الشيب وقال:

- لا أعرف عنك شيئاً منذ تلك الأيام. كيف وصلت إلى هنا؟ لِمَ لمْ تبقي عند السادة؟

- لقد سرحني السادة بعدك.

- وأين عشت بعد ذلك؟

- حديث طويل يا سيدي.

- قلت إنك لم تتزوجي؟

- لا... لم أتزوج.

- ولماذا؟ لديك من الجمال مايكفي.

- لم أستطع الإقدام على ذلك.

- لماذا لم تستطيعي؟ ما الذي تريدين قوله؟

- كيف أشرح لك. أنت تذكر كم كنت أحبك.

فاحمر حتى الدمع، ثم تجهم، وعاد يذرع الغرفة، ثم غمغم:

- كل شيء يمضي يا عزيزتي: الحب والشباب وكل شيء... كل شيء. حكاية مبتذلة وعادية. مع السنين كل الأشياء تمضي، وكما ذكر في سفر أيوب: «.. مثل مياه عبرت تذكرها».

- كل حسبما يعطيه الرب يا نيقولاي ألكسييفتيش. الشباب يمضي لدى الجميع أما الحب فمسألة أخرى.

رفع رأسه وتوقف ثم أطلق ضحكة جريحة:

- ولكن ليس بمقدورك أن تحبيني طوال العمر!

- لقد قدرت. وعلى الزمن الذي مر كنت أحيا بشيء واحد. كنت أعرف أنك لم تعد ذلك الإنسان الذي كنته فيما مضى، وأن كل شيء بالنسبة لي كان ينطوي في العدم. ولكن فات أوان العتاب الآن. لقد هجرتني بقسوة حقاً. كم من المرات أردت الانتحار من الإهانة وحدها، دون الحديث عما عداها. كان ثمة وقت يا نيقولاي ألكسييفيتش كنت أناديك فيه «نيقولاينكا» وأنت.. أتذكر كيف كنت تناديني؟ ثم أضافت بابتسامة ماكرة:

- طوال الوقت كنت تقرأ لي أشعاراً عن «المماشي المعتمة».

قال وهو يهز برأسه:

- آه كم كنت جميلة وحارة، وكم كنت رائعة، أي قامة وأي عينين، أتذكرين كيف كان الجميع يحدقون فيك؟

- أذكر يا سيدي، وأنت أيضاً كنت وسيماً للغاية. ولك أنت بذلت جمالي وحرارتي. كيف يمكن نسيان هذا!؟

- آه... كل شيء يمضي.. كل شيء ينسى.

- كل شيء يمضي، أجل، ولكن ليس كل شيء ينسى.

استدار مقترباً من النافذة وقال:

- انصرفي... انصرفي من فضلك.

ثم تناول منديله مغطياً به عينيه وأضاف بسرعة:

- لو أن الرب فحسب يسامحني. فأنت على ما يبدو لي سامحتني.

اقتربت من الباب وتوقفت:

- كلا يا نيقولاي ألكسييفيتش، لم أسامحك، وبما أن الحديث قد مس مشاعرنا سأقول لك بلا مواربة: لم أكن لأستطيع الصفح عنك أبداً. لم يكن لدي أعز منك في الأرض كلها في ذلك الوقت، ولم يكن لدي بعده. ولهذا لا يمكنني الصفح عنك. ولكن ما الذي يمكننا تذكره، فالموتى لا يغادرون القبور.

أجاب مبتعداً عن النافذة بوجه مكفهر:

- أجل... أجل.. لا داعي لكل هذا. مري بتقديم الجياد. سأقول لك شيئاً واحداً: لم أكن سعيداً في حياتي أبداً. اعذريني إذا ما جرحت كبرياءك، ولكنني سأقول لك بصراحة: لقد أحببت زوجتي حتى الجنون، ولكنها خانتني وهجرتني بشكل أكثر إذلالاً من هجري لك. وعبدت ابني.. أي آمال لم أعلقها عليه عندما كان ينمو ويشب. لكنه تحول إلى وغد مبذار وقح، بلا قلب ولا شرف ولا ضمير «إنها الحكاية العادية المبتذلة نفسها» تركتك بعافية يا صديقتي العزيزة. أعتقد أنني أضعت بفقدك أغلى ما كنت أملكه في الحياة.

اقتربت منه، قبلت يده وقبل يدها.

- مري بتقديم الجياد.

وعندما تابعت العربة سيرها كان يفكر مقطباً: «أجل كم كانت رائعة، وباهرة لدرجة السحر» ثم تذكر بخزي كلماته الأخيرة وكيف قبّل يدها، وفي الحال أحس بالخزي لشعوره بالخزي «أليس حقاً أنها منحتني أجمل لحظات عمري».

بدت الشمس، عند الغروب، ممتقعة شاحبة، كان الحوذي يسوط الجياد كي تعدو، منحرفا باستمرار عن الأخاديد

السوداء، منتقياً أقلها وحلا. كان هو الآخر يفكر بشيء ما، ثم قال أخيراً بجدية خشنة:

لقد رافقتنا، يا صاحب السعادة، ببصرها من النافذة عندما رحلنا. لعلكم تعرفونها منذ زمن بعيد؟

- أجل يا كليم.

- إنها مستودع من الذكاء. يقال إن ثروتها في ازدياد مستمر. إنها تمارس الربا.

- هذا لا يعني شيئاً.

- كيف لا يعني؟ من ذا الذي لا يريد العيش بشكل أفضل؟ إذا كنت تعمل بضمير حي فليس من ضرر. يقال إنها عادلة في هذه المسألة. ولكنها صارمة أيضاً. إذا لم تسدد في الوقت المحدد فلا تلم إلا نفسك.

- أجل.. أجل لا تلم إلا نفسك... حث الجياد من فضلك وإلا تأخرنا عن القطار.

كانت الشمس الواطئة الصفراء، تضيء الحقول النارية، وكانت الجياد تنهب البرك. كان يحدق إلى الحدوات اللامعة محركاً حاجبيه الأسودين وهو يفكر:

«أجل... لا تلم إلا نفسك... أجل طبعاً.. أجمل اللحظات وليس أجملها فحسب وإنما أكثرها سحراً.. أزهر حولنا العليق الأحمر وامتدت المماشي المعتمة عبر الزيزفون» ولكن يا إلهي ما الذي كان سيحدث فيما بعد؟ ماذا لو أنني لم أهجرها؟

أي هراء؟! ناديجدا هذه، صاحبة النزل تكون زوجتي وربة بيتي في بطرسبورغ وأم أطفالي؟!

ثم أغلق عينيه وأخذ يهز رأسه.

١٩٣٨

خريف بارد

في حزيران العام الماضي حل علينا ضيفاً في الضيعة. لقد كان بالنسبة لنا دائماً واحداً منا. كان أبوه المرحوم صديق وجار أبي. وفي الخامس من حزيران اغتيل فرديناند في سارايفو(*). في صباح اليوم السادس عشر أتتنا الجرائد من البريد، خرج أبي من مكتبه حاملاً جريدة موسكوفية مسائية، ودخل غرفة الطعام حيث كنا، أنا وأمي جالستين نتناول الشاي وقال:

- إيه يا صديقتيّ، إنها الحرب، لقد اغتالوا ولي العهد النمسوي في سارايفو. إنها الحرب.

في عيد بطرس أتى إلينا كثير من الناس – فقد كان عيد تسمية أبي(**) - وعند الغداء أعلنت خطبتي له. ولكن في التاسع عشر من حزيران أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا.

(*) فرديناند هو ولي العهد النمسوي الذي كان اغتياله الذريعة المباشرة لنشوب الحرب العالمية الأولى. (المترجم).

(**) عيد التسمية: عيد شخصي يحتفل به من كان يحمل اسم قديس ما في يوم ذلك القديس. (المترجم).

في أيلول قدم إلينا ليوم واحد فقط. لقد أتى كي يودعنا في طريقه إلى الجبهة (الجميع كان يعتقد في ذلك الوقت أن الحرب ستنتهي بسرعة، ولذا أجلنا العرس إلى الربيع) وحلت ليلة الوداع.

بعد العشاء تم، حسب العادة، تقديم السماور. قال أبي ناظراً إلى زجاج النافذة المعروق من بخار السماور:

- خريف بارد ومبكر بشكل مدهش.

كنا جالسين، ذلك المساء بصمت، من دون أن نتبادل سوى كلمات قليلة، هادئة بشكل مفرط، وغير ذات أهمية، متكتمين عن أفكارنا ومشاعرنا الدفينة. وكانت جملة أبي عن الخريف بسيطة أيضاً بشكل مصطنع. دنوت من باب الشرفة، ومسحت الزجاج بمنديل. كانت النجوم الجليدية الصافية تتألق في الحديقة، وفي السماء السوداء، بحدة وسطوع. كان أبي يدخن مستلقياً على أريكة، محدقاً بوجوم إلى المصباح الحار المعلق فوق الطاولة، أما أمي فكانت تخيط تحت ضوئه، مرتدية نظاراتها، كيساً صغيراً من الحرير – كنا نعرف أي كيس هو – وكان هذا مبعثاً للرقة والرعب. سأل أبي:

- إذن فأنت تريد الرحيل صباحاً وليس بعد الإفطار؟

- أجل إذا سمحتم لي، سأرحل صباحاً. إنه شيء محزن ولكنني لم أنظم أمور البيت كلها بعد.

تنهد أبي:

- كما تشاء يا عزيزي. آن أوان النوم لي ولماما. سنرافقك غداً بكل تأكيد.

نهضت أمي ورسمت شارة الصليب على ابنها المقبل. فانحنى إلى يدها ثم إلى يد أبي. وعندما أصبحنا وحدنا مكثنا قليلاً أيضاً في غرفة الطعام. لقد عن على بالي التنجيم بورق اللعب. أما هو فكان يذرع الغرفة صامتاً من زاوية إلى أخرى، ثم سألني:

- ألا نتنزه قليلاً؟

تعاظمت الكآبة في روحي، وبلا مبالاة استجبت لدعوته:

- حسناً...

واصل التفكير بشيء ما، وهو يرتدي معطفه في الممر، ثم تذكر، بضحكة رقيقة، أشعار فيت:

كم هو بارد هذا الخريف.

ارتد شالك وعباءتك.

- ليس لدي عباءة، وماذا بعد ذلك؟

لا أذكر. أعتقد أنها تستمر هكذا:

انظر إلى الصنوبر المسودّ
كأنما حريق قد شب.
- أي حريق؟
- بزوغ القمر طبعاً. ثمة فتنة قروية خريفية في هذه الأشعار:
«ارتد شالك وعباءتك...» إنه زمن أجدادنا وجداتنا. آه يا إلهي.. يا إلهي.
- ما بك؟
- لا شيء يا عزيزتي. شيء محزن مع هذا.. محزن ولطيف. إني أحبك جداً جداً.

بعد أن ارتدينا معاطفنا عبرنا غرفة الطعام إلى الشرفة ثم نزلنا إلى الحديقة. كان الجو، في البداية، معتماً، بحيث أنني تمسكت بكم معطفه. بعد ذلك بدأت ترتسم على خلفية من سماء مضاءة، أغصان سوداء مرصعة بنجوم تتألق مثل أحجار كريمة. توقف واستدار إلى البيت قائلاً:

- انظري كيف تلمع النوافذ بضوء الخريف، إذا ظللت حياً لن يبارح هذا المساء ذاكرتي إلى الأبد.

نظرت، فضمني بشالي السويسري إليه. أزحت المنديل عن وجهي، وابتعدت برأسي قليلاً كي يقبلني. حدق إلى وجهي، بين قبلتين، وقال:

- كم تشع عيناك، ألا تحسين بالبرد؟ الهواء شتائي تماماً. أنت لن تنسيني فوراً إذا ما قتلت. أليس كذلك؟

ففكرت: «وماذا لو قتل فعلاً؟ وهل من المعقول أنني سأنساه بسرعة؟ إذ كل شيء في نهاية الأمر يُنسى»؟ أجبته حالاً وأنا أحس بالخوف من أفكاري:

- لاتقل هذا، فأنا لن أعيش بعد موتك.

سكت قليلاً، ثم قال ببطء:

- سوف أنتظرك فيما إذا قتلوني. فعيشي وتمتعي بدنياك، ثم تعالي إلي.

فبكيت بمرارة...

في الصباح رحل. علقت أمي على عنقه ذلك الكيس القاتل، الذي خاطته له مساء. كان يضم أيقونة صغيرة ذهبية، كتلك التي كان يحملها أبوها وجدها في الحرب، ثم رسمنا عليه شارة الصليب بيأس محموم، ورحنا ننظر إليه مبتعداً، واقفين على الدرج بتلك البلادة التي تصيب المرء عادة عندما يودع أحداً ما في فراق طويل، بحيث لا يحس إلا بفصام مدهش بينه وبين الصباح الفرح، المشمس، المشع بصقيع يغطي العشب. دخلنا البيت الفارغ وذرعت الغرفة عاقدة يدي خلف ظهري، لا أدري ما أفعل بنفسي. أأنوح أم أغني بأعلى صوتي.

- قتلوه – أي كلمة غريبة – بعد شهر في غاليسيا. وها قد مضى على ذلك ثلاثون عاماً كاملة.

ولقد رأيت الكثير الكثير في هذه الأعوام التي تبدو طويلة عندما نفكر بها بتأن، مقلبين في الذاكرة كل ذلك الشيء الساحر، الغامض العصي على القلب والعقل، والذي يدعى الماضي. في ربيع سنة ١٩١٨ عندما لم يعد أبي وأمي بين الأحياء انتقلت إلى موسكو، واستأجرت قبواً عند تاجرة في سوق سمولينسك. كانت تسخر دائماً بقولها: « كيف الأحوال يا ذات الجلال»؟ اشتغلت أنا أيضاً بالتجارة، فكنت أبيع كما يفعل كثيرون غيري الجنود ذوي القبعات الفرائية والمعاطف المفتوحة ما تبقى لدي من متاع: خاتم أو صليب، ياقة من الفرو بدأ العث يقرضها. هنا وأنا أبيع في زاوية من زوايا شارع «أربات» والسوق التقيت بعسكري كهل متقاعد نادر المثال وذي نفس رائعة. سرعان ما تزوجته ورحلت معه في نيسان إلى كاترينودار. ورحل معنا ابن أخته، وهو فتى في السابعة عشرة من عمره، كان يحاول الوصول إلى المتطوعين أيضاً منذ أسبوعين. رحلنا، أنا بخف من الليف مثل فلاحة، وهو في معطف قوزاقي مهترئ، ولحية مطلقة سوداء يخالطها بعض الشيب. أقمنا في الدون وكوبان أكثر من

عـامين. وشـتاءً في العاصـفة، أبحرنـا مـع حـشد لا يحـصى مـن المهاجرين من نوفوراسيسك إلى تركيـا، وأثنـاء سـفرنا في البحـر مات زوجي بالتيفوس. ولم يبق لـدي مـن أقربـاء في العـالم كلـه سوى ثلاثة: ابن أخـت زوجـي، وزوجتـه الـشابة وابنـة لهـما لا يتجاوز عمرها سبعة أشهر. ولكن ابن الأخـت وزوجتـه أبحـرا بعد فترة وجيزة إلى القرم، إلى البارون فرانغل، تاركين الطفلة بين يدي. وهناك ضاعوا من دون أثر. أما أنـا فقـد عـشت طـويلاً في القسطنطينية، واشتغلت لإطعام نفسي والطفلـة بـأعمال سـوداء وقاسية للغاية. بعد ذلك جبت مثـل كثـيرين غـيري عديـداً مـن البلدان: بلغاريا، الصرب، تـشيكوسلوفاكيا، بلجيكـا، بـاريس، نيس... كبرت الطفلة وظلت في باريس، لقـد أصـبحت فرنـسية تمامـاً، وجميلـة جـداً، ولا مباليـة بي. بـدأت تعمـل في مخـزن للـشكولاتة بـالقرب مـن مـادلين، وكانـت بيـديها النـاعمتين وأظافرها الفـضية تلـف العلـب بـورق لمـاع وتربطهـا بـشرائط ذهبية. أما أنا فواصلت العيش في نيس معتمـدة عـلى مـا يرسـله الرب... لقد زرت نـيس للمـرة الأولى عـام ١٩١٢ ولم يـراودني التفكير قط، في تلك الأيام السعيدة، فـيما يمكـن أن تكونـه هـذه المدينة بالنسبة لي يوماً ما؟

وهكذا عشت بعد موته، رغم أنني تهورت في وقت مضى وقلت له أنني لن أعيش بعده. لكنني، عندما أسترجع حياتي التي عشتها منذ ذلك اليوم، أسأل نفسي دائماً: ما الذي كان في حياتي، وأجيب: «لا شيء سوى ذلك المساء الخريفي البارد. أمن المعقول أنه كان يوماً ما؟ مع ذلك لقد كان. وهذا كل ما كان في حياتي. وما عداه وهم وخيال. وإنني أؤمن، أؤمن بحرارة أنه ينتظرني في مكان ما، بذلك الحب نفسه والشباب، كما في تلك الليلة: "عيشي وتمتعي بدنياك ثم تعالي إليّ»".

ها قد عشت وتمتعت بدنياي، وها آنذا آتية.

٣ أيار - ١٩٤٤

قصة حب صغيرة

التقينا ذلك المساء في المحطة.

كانت تنتظر أحداً ما بشرود.

جاء القطار وأغرق رصيف المحطة بوابل من البشر. كانت الغابة تفوح ، بعد المطر برائحة الفحم الحجري. وكان هناك عدد كبير من معارفنا بحيث أننا بالكاد كنا نفلح في الانحناء لهم جميعاً. لكن من كانت تبحث عنه بقلق لم يأت.

أقلع القطار فوقفت محدقة، بعينيها الزرقاوين المفتوحتين على سعتهما، إلى عرباته التي كانت تلمع على طول الرصيف. كانت هناك، في النوافذ والساحات وفي كل مكان وجوه ووجوه. ولكن الوجه الذي تريده لم يكن موجوداً. أخيراً غابت جدران العربات عن الأنظار، وبرقت المصدات الخلفية، وبدأ القطار يصفر ويتقلص منطلقاً بين الغابات الخضراء. وعلى

الرصيف الخاوي راحت خطوط طويلة من مـاء المطـر، الأزرق زرقة السماء التي يعكسها، تلمع برهافة.

امتد الرصيف في الظل، فقـد كانـت الـشمس تختبـئ خلـف سقيفته، من ورائنا، وأما البيوت الريفية المنثورة في الغابة أمامنـا فكان زجاجها يضيء ويتلألأ بمرح. من مكان ما انثـال صـوت الغرامفون مضطرباً، ومن مكـان آخـر انبعـث ضـجيج كـرات الكروكيت وزعيق طفولي.. قالت باقتـضاب دون أن تنظـر إلي: «لنتمش قليلاً» فذهبت معها.

عنـدما خرجنـا مـن المحطـة ضربـت أعيننـا شـمس المـساء الساطعة، ولكن سرعان ما دخلنا غابة ظليلة. وقد سرنا طويلاً في مماشـيها الرطبـة اللطيفـة، عـلى جـذور أعـشابها ومـسالكها الموطـوءة الطريـة، بمحـاذاة درب قـذرة، بـين أشـجار الحـور الخـضراء وأحـراش الفـستق الكثيفـة، التـي كانـت تلامـسنا بأوراقها المخملية. كانت تسير أمـامي وكنـت أنظـر إلى تنورتهـا وهي تلتف على سـاقيها، وإلى كنزتهـا ذات الخطـوط المتقاطعـة وضفيرتها الثخينة. كانت تنحني تحت الأغـصان، منتقيـة بخفـة المواطئ الجافة.

سألتني من دون أن تلتفت:

- بماذا تفكر؟

- بحذائك... بأن كعبه ليس فرنسياً. فأنا لا أثق بامرأة تقف على كعب فرنسي.

- وهل تثق بي؟

- أثق!

انتهت الدرب، ووجدنا أنفسنا في الشمس، على أكمة مكشوفة. توقفت والتفتت:

- ما ألطفك! تسير ولا تنبس بحرف. لقد انبثقت لدي موجة مفاجئة من الرقة نحوك.

فأجبت بتحفظ:

- شكراً. هذا يحدث أحياناً عندما يعترينا الأسى.

فتحت عينيها على سعتهما:

- عندما يعترينا الأسى؟ أي أسى؟

- ولكنني أعرف أنك كنت تنتظرين ذلك الذي لم يأت، وأعرف أنك ستقترحين علي الآن أن أسابقك.

- حزرت، هل ترغب بذلك؟

اقتربت منها، وأمسكت بيديها، ثم جذبتها قليلاً إلي، فانحنت إلى الخلف وهي تغمغم:

- لا.. لا تفعل بحق الله.

ثم، بعد لحظة صمت، انتزعت يديها بحركة حاذقة، وأمسكت تنورتها، وركضت من الأكمة نحو البرك.

كانت هنا، على اليمين واليسار، وديان مكتظة بالشجر، وأمامنا، كانت تقبع وهدة عريضة، مغطاة بصفوف من القش المحصود، ممتدة كلها تقريباً في الظل. عندما وصلت إلى البرك توقفت على حدود الظل، تحت لمعان الشمس الواطئة. ثم بعد أن تركتني أقترب إلى مسافة خطوة منها، قفزت عبر ساقية ونزلت إلى الوهدة، فقفزت وراءها، وفجأة تساقط من السماء هسيس خفيف سريع وجاف، وعلى الرابية يساراً، هبط قوس قزح خفيف غائم.

زعقت مسرعة في ركضها على المرج المتلألئ تحت المطر:

- مطر!

كان النصف الآخر من المرج، المضاء بالشمس، يهتز ويلمع في شبكة زجاجية تتألق كالذهب.

كان ثمة قطرات مبعثرة من المطر تتساقط بسرعة وصخب. وكان واضحاً للعين كيف كانت القطرات تهوي من السماء الزرقاء المرحة، من الغيمة الدخناء العالية، مثل إبر طويلة...

وشيئاً فشيئاً بدأ تألقها يخفت، وقوس قزح ينطفئ، واختفى الهسيس في الحال.

وصلت إلى كومة قش، وارتمت عليها ضاحكة. كان صدرها يعلو ويهبط باندفاع، وكان شعرها يلمع بقطرات الماء.

أخذت يدي قائلة:

- أنصت إلى قلبي كيف يخفق.

احتضنتها، وانحنيت إلى شفتيها نصف المفتوحتين. فلم تقاوم. لكنها سرعان ما أبعدتني، مشيحة عني بوجهها المتورد. كانت تعض على عشبة يابسة، محدقة إلى الأفق بعينين ملتمعتين:

- هذه أول وآخر مرة. حسناً؟

- حسناً.

ثم حدقت فيّ بتمعن:

- هل تحبني ولو قليلاً؟ كم يبهجني الجلوس معك، وكم أحس بالسعادة! لا تغر عليّ من أحد. أما كوني انتظرت رجلاً آخر فليس لهذا أدنى علاقة بنا.. صحيح أنه خطيبي رسمياً، وأنني سأصبح قريباً الكونتيسة المامون...لماذا؟ لا أدري.... لأنني ببساطة أخافه.

مدت إليّ يديها كي تنهض، فقبلتهما الواحدة تلو الأخرى.

- والآن لنذهب.

- إلى أين؟

- نتمشى في المرج قليلاً.

أنهضتها، فرسمت ابتسامة حيية خاطفة. ثم أصلحت تسريحة شعرها بحركة أنثوية عذبة، وتنشقت طزاجة المرج بعمق... كانت الغابة ترسل، من هنا وهناك، غناء أصماً، مكتوماً لطيور الوقواق، مؤكدة عمقها وهدوءها بعد المطر، وعالياً، في السماء، كانت الغيوم الدخناء الدافئة تتهادى بحوافها القانية المذهبة.

أضعنا طريق العودة، ولكنها اهتدت بسرعة إلى أين وكيف ينبغي المضي. وقادتني بثقة. ثم روت لي، استجابة لطلبي، قصتها باختصار قلق وبالإشارات. وعندما أنهتها صمتت طويلاً.

حل في الغابة غسق الشمال. كانت الغابة، الصامتة، المعتمة، ممتدة على عديد من الفراسخ حولنا. وكانت هذه المنطقة الغابية برمتها مستغرقة الآن في انتظار حزين هادئ لحلول الليل. الضوء الرهيف يذوب مغالباً النعاس، والبحيرة الصغيرة، الآخذة في التحول إلى مستنقع، والتي سرنا على ضفتها، ماتزال

تلمع بين الشجر. ولكنها، هي الآن أيضاً، ذاوية وكئيبة كما الغابة.

تحركت الغيوم ممتزجة بعتمة الغابة، وتسمر الهواء الناعس الدافئ، سكران بأريج عشب المستنقعات وأشجار الصنوبر. وخبت الجنادب المضيئة بزمردها الذهبي تحت الشجيرات الغافية على بوحها الخفي... انعطفنا عن البحيرة، اختصاراً للطريق، إلى ممشى طويل واسع بين صنوبرات دهرية. ثم، بعد أن ميزنا الدرب بصعوبة، عبرنا الرمل العميق إلى فسحة معشبة، وفجأة خفق شيء ما في صنوبرة جافة كثيفة، وانبثقت كالوتد بومة كبيرة برأس ضخمة، وانقذفت نحونا - حتى إنني استطعت رؤية سروالها الريش الرمادي – ثم حلقت بجناحيها العريضين الدائريين مبتعدة عنا. وبعد أن توقفت للحظة ورسمت قوساً في الهواء بصمت، هوت إلى أسفل، وانسابت غارقة في العتمة والشجر.

قالت وهي تهز كتفيها:

- فأل سيء.

ابتسمت، فكررت ببساطة وإصرار:

- أؤكد لك أنه فأل سيء.

- وماذا سيحدث؟

- آه... لا أدري؟ وبالمناسبة لم يعد يهمني شيء. فالأيام التي قضيتها معك، وهذا المساء خاصة، لن تبارح ذاكرتي أبداً... ودعني قبل أن نفترق...

ومن دون أن تتم جملتها احتضنتني، وبكآبة ورقة حدقت في وجهي وقبلت عينيّ.. مضينا عبر الفسحة على ضوء مصباح السكة الحديدية الأخضر المتألق خلف الأشجار. لقد حل الظلام تماماً. بدأ المطر يهمس للغابة بهدوء. وعندما ركضنا إلى شرفة البيت، تحت السقيفة القماشية، إلى مائدة الشاي المضاءة بشموع تظللها السواتر، كان المطر ينهمر مثل الماء من القرب.

نفضنا الأوساخ عن ثيابنا، وروينا، بافتعال، قصة ضياعنا وبحثنا عن الطريق، ثم صمتنا فجأة: فمن زاوية الشرفة المعتمة، من الأرجوحة، نهض رجل طويل للغاية، ناحل وعريض المنكبين، يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، بجمجمة عارية، ولحية سوداء رائعة، وعينين ملتمعتين. ارتبك الشيخ أما هي فامتقعت. صافحت كفه الكبيرة، وقلت له مازحاً:

- يا إلهي كم أنت طويل! بمقدورك أن تصبح فارساً من فرسان القرون الوسطى.

فسأل بحيوية:

- ماذا؟ ربما. أنا الكونت المامون.

عثروا لي على مظلة ضخمة عتيقة، وأغرقوني بالنصائح عن أفضل الطرق، ثم نزلت درجات الشرفة المبتلة في العتمة المطبقة. أما هي فوقفت على العتبة، في مثلث مضاء من سرادق قماشية، وعندما وصلت إلى شجرة خوخ قالت لي دون أن ترفع صوتها:

- وداعاً.

كانت هذه آخر كلمة سمعتها منها.

-٢-

كتبت لي بعد أربعة أشهر من ذلك اليوم:

«عزيزي لا تؤاخذني لكوني اختفيت من دون أن أعلمك. كان أقوى مني بألف مرة. لقد فقدت إرادتي، وأفلت تلك اللحظة الرهيبة التي كان يمكنني فيها قطع علاقتي به. والآن لم يعد لدي أي أمل تقريباً في اللقاء بك. وكيف نلتقي؟ أعتقد أنني لا أخدع نفسي أبداً فيما يتعلق بمشاعرك. إذ لم يكن هذا بالنسبة لك سوى قصة حب صغيرة مباغتة. ومع ذلك أقسم لك: إذا كنت قد أحببت في حياتي أحداً فهو أنت...

هذا الحب الذي نسج له الناس ملايين الأغاني ما هو؟ ربما لم يكن الأمر متعلقاً بالحب ذاته. قرأت منذ فترة وجيزة، في رسالة لكاتب ميت، مايلي: «الحب هو أن نريد ما هو غير موجود وما لن يوجد أبداً». أجل. أجل، ما لن يوجد أبداً. ومع هذا فقد أحببتك وما زلت.

أذكرك كثيراً عند الغسق. ففي الغسق ودع أحدنا الآخر. وفي الغسق أكتب لك رسالتي الأولى هذه، ولعلها الأخيرة. أكتب لك والرب وحده يعلم من أين: من الألب، من فندق جليدي فارغ يطاول الغيوم، في مساء تشريني. أصابه السل وأنا بلا ضمير أهزأ بحياته. فأنا لا أرغمه على البقاء في الألب، وفي أردأ أوقات السنة فحسب، وإنما أجرجره بين البحيرات والجبال في أكثر الأيام ضباباً وقبحاً. هو الآن مطيع لي.

إنه يصمت أياماً بطولها، وتلتمع عيناه، لكنه يطيعني. ولقد سار معي إلى هنا صامتاً أيضاً. عندما دخلنا هذا المكان، تأوهت خادمة الفندق التي تقضي الليل هنا، في المطبخ، في الأيام الأخيرة من حياتها الفلاحية البسيطة. أقول تأوهت من الدهشة: يا لكما من ضيفين! ربما لأنه كان شاحباً وهائلاً كالموت.

أتيت إلى هنا من أجلك. كي أفكر بك، وأتذكرك في الهدوء وانعدام الأمل.

بأي بهاء وأي وجوم تـزرق هـذه البقـاع في أواخـر الخريـف، ممتدة الواحدة إثر الأخرى إلى الجبال. السماء واطئة، معلقـة دون اكتراث فوق البحيرات، وهـذه ترقـد سـاكنة بلونهـا الرصـاصي العاتم، مسفوحة بين جبال يلفها ضباب أزرق. عندما أنظـر إلى هذه السماء الغائمة أرغب بالاختفاء في ضبابها، أو قضاء الليل في فندق جبلي خال... أدفع نصف حياتي ثمناً لأن تكون هنا معي.

رحلنا من المدينة صباحاً، على سفينة، وبعد الظهر سرنـا نحـو الجبل. كم هي كئيبة تلك الطرق. كان ثمة، على حواف الوديـان والمنحدرات، غابة واطئة، وسنانة، مبعثرة، ببخل تلقـي أوراقهـا الصفراء الضئيلة. وكانت تطل علينا بين حـين وآخـر، مـن بـين الأشجار وجوه بليدة مدهـشة لأبقـار حمـراء ضـخمة، ويتنـاهى إلينا صفير زقزقة العصافير، يطلقه الرعاة الفتيان وهـم يجمعـون الحطب من الأحراش. كنـا نرتفـع، في الـسكون العميـق، أكثـر فأكثر، ومن الجبال، من الجروف المزرقة بغابات الـصنوبر، كـان الشتاء ينحـدر بدخانـه الرمـادي. وعنـدما كنـا نتوقـف لنلـتقط أنفاسنا كنت أحدق طويلاً إلى الوديـان اللازورديـة التـي تلـوح بخفوت عبر الأشجار، بعيداً في القاع. عندها كان بإمكاننا سماع سقوط كل ورقة، والأحراش المبتلة وهي تبكي بهدوء..بهـدوء..

صادفنا بالقرب من نفق ذي فوهة سوداء تلوح عبر الضباب، ضيعة صغيرة مؤلفة من خمسة أو ستة بيوت متداعية، تغفو على حافة منحدر. لم نستطع صعود المرتفع الصعب، عبر عوارض السكة القذرة اللزجة، إلا بكثير من البطء والأناة. وسرعان ما لم يبق من الضيعة، في الأسفل، سوى بقعة صغيرة، وفاحت الجبال برطوبة ثلج الخريف.

هنا توقف واقترح العودة.

لكنني رفضت نكاية به. فقال:

- فكرة خرقاء.

ثم وجم قليلاً وتابع السير.

كان الضباب يتكاثف ويظلم، وكنا نمضي إلى لقائه، مارين بمحاذاة فوهة النفق السوداء المدخنة الرنانة – كانت تضخم كل صوت يأتيها – واجتزنا الجسر القائم، بشكل عمودي تقريباً، فوق أخدود لا قرار له، يتعالى منه الدخان.. وعندما كان رفيقي المكره يتخلف عني يغرق لتوه في الضباب، وحين ينادي أحدنا الآخر كانت أصواتنا تبدو صماء غريبة.

ذات مرة ناداني – كان يسير خلفي دائماً – وعندما توقفت اقترب مني ماداً يده وقال متلعثماً:

- تلطفي ومدي يدك إلى كمي وشدي الصديري.

عندها أحسست بالشفقة نحوه. أدرك هو هذا فأخفض عينيه وأردف:

- ثم... فلنذهب إلى مكان دافئ. ونمارس عملاً ما. الأمر صعب جداً هكذا. إنه جحيم وليس رحلة عرس.

- ينبغي علينا أن نفترق.

صمت. ثم غمغم محركاً حاجبيه:

- صعب هذا...

- سأتكفل بكل ما ينبغي عمله. لا تجرؤ على التخاذي ضحية لحبك الأخرق.

قال محدقاً إلي بعناد:

- أستطيع فعل أي شيء، إذ ليس لدي ما أفقده.

فاستدرت ومضيت.

كانت السكة الرطبة، المغطاة بثلج ذائب، تركض صاعدة إلى الأعلى، وكانت أشجار السرو والصنوبر تسير بمحاذاة الجروف. كان من الممكن في الغسق والضباب، الإحساس ببقعها البنفسجية دون تمييزها. وكانت مملكة الغيوم، التي تفتقد

أدنى علامة من علائم الحياة، تحوم بهدوئها الثقيل فوق هذه الجبال العابسة. فجأة، انبعث حفيف ما من سروة هرمة تقف على حافة الطريق. أتذكر البومة؟ هنا بالضبط تذكرتها، وقررت إثر ذلك الكتابة لك من دون إبطاء، لم يكن هناك بومة طبعاً، وإنما هو عصفور دوري - يبدو لي أنه أصغر الطيور على الأرض - رمادي اللون، رفرف من كم السروة الرطب المدخن وحط على الدرب، ثم طار بهدوء إلى الجرف الذي على يسارنا، وابتلعه الضباب.

أتتصور مساءً كهذا؟ جدران حرش الصنوبر السوداء، ثلج رطب ممتقع على طول الطريق، هاويات مدخنة تحوم فيها ظلمة من قار كثيف، والعصفور مطمئن البال، لا يزعجه ليل الشتاء الجبلي. فهو يستطيع قضاءه أينما اتفق، مسلماً نفسه لحماية ما علوية، أما أنا فلا أؤمن بهذه الحماية.

الآن آوي إلى النوم في هذه الحجرة الخالية الباردة، العابقة برائحة الصنوبر. سأتخيل، عندما أطفئ النار، أنني أحلق فوق السحاب في مملكة الموت الحقيقية. هاهو راقد في الحجرة المجاورة، يسعل بصمت. إنه ليس إنساناً بل نعش متحرك. أكرهه من أعماق روحي. إذا ما التقينا، وكنت حرة طليقة،

فسأقبل يديك من الفرح. وافعل وقتها بي ما تشاء. لا.. بل هـذا ما سيكون.

-٣-

وصلتني هذه الرسالة بعـد مـدة لا يعرفهـا إلا الـرب. فقـد حولت من موسـكو إلى القريـة. وبعـد أن رقـدت هنـاك ثلاثـة أشهر تسكعت في الجنوب. ولم أستلمها إلا في بدايـة آذار، قبـل أن أغادر القرم. لقد لامست قلبي وأقلقتني بشكل مرعب.

ولكن بم أجيبها، وماذا أفعـل؟ فكـرت طـويلاً، ولم أصـل، فليصفح عني الرب، إلا إلى قرار وحيد:

«فلأطف أنا أيضاً بالجبال على الخيول».

كان الضباب يلفح جبال القرم أيـضاً. ولكـن كـان الوقـت ربيعاً، وكان عمري ثمانية وعشرين عاماً.

شربت في لايلو، في حانة قذرة تقف على حافة أخدود، نبيذاً أحمر حامضاً، منتظراً إعداد العربة. كان كـل مـا حـولي، خلـف نافذة الحانة، غارقاً في سديم تطوحه الريح... أخرجت الرسـالة وأعدت قراءتها فخفق قلبي.

«آه يا عزيزتي، يا رائعتي، ولكن ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟»
كان الجو في الحانة خانقاً، فخرجت إلى الهواء.

تورد الضباب وذاب، وانتشر الضياء والدفء في الأعالي السديمية، ولاح في السماء، عبر دخان الغيوم، شيء ما فرح، ناعم، وراح ينمو ويتسع. فجأة تألقت الزرقة... ينبغي أن أكتب لها...بكل تأكيد! ولكن ماذا أكتب؟ وإلى أين؟

لمعت، فوق الخلاء الجبلي المحيط بي، قبة لازوردية. ولكن الصخور المسننة ظلت تدخن طويلاً فوق الأخاديد، حتى التمعت الشمس أخيراً. عندها لم يبق من الضباب أثر. انفتحت السماء فوق الجبال بكل رحابتها، وبعيداً في الأفق، اخضرت السفوح المتموجة في الهواء النقي. هبت من الشمال نسمة ناعمة عليلة، فمضيت سكران بها إلى الجروف، لألقي نظرة أخرى إلى البحر.

هبط مني ظل دخاني عملاق ذو هالة قزحية على البخار الناعم الكثيف الذي يملأ الجرف. كانت سهول الغيم المتكاثف، المخدد، اللامتناهية، بلاداً كاملة من تلال بيضاء رخوة، تنتشر أمام عيني، وبدلاً من الأهوية التي لا قاع لها والصخور، بدلاً من السواحل والخلجان، امتدت أمامي هذه

السهول حتى الأفق، طبقة معلقة فوق البحر، لا يحيط بها نظر. وأحسست بكل قوة روحي، بكل حزني وفرحي - حزني بسبب تلك التي أحببتها وفرحي العفوي بالشباب والربيع - تغادرني وتذهب إلى هناك، إلى الأفق، خلف الطرف الجنوبي من طبقة الغيوم، حيث كان البحر يلمع شريطاً طويلاً ساطعاً.

أعلن الجرس، برنين السفر الرتيب، عن بدء الرحلة الطويلة، وعن انقضاء الماضي، وولادة حياة جديدة تنتظرني. كان مركبي عربة بريد قديمة، تجرها ثلاثة جياد. اتخذ الحوذي التتري مقعده بالقرب من الحقائب المربوطة، وتعالى وقع الحوافر منسجماً وبكاء الأجراس الذي لا ينقطع، وامتد أمامنا شريط الدرب اللامتناهي.. تلفت وحدقت طويلاً إلى نواجذ الصخور الرمادية النائية في زرقة السماء الصافية، وكانت العربة تمضي تحت وقع الحوافر ورنين الأجراس، أسفل فأسفل وأعمق فأعمق في وديان غابية بديعة، بعيداً بعيداً عن المنعطف السابح في السماء. كان هدوء الأيام الربيعية الأولى الشفاف، وبهاء الزرقة الشاحبة، والشجر العاري الأسود، وأوراق العام الفائت البنية الراقدة بين الشجيرات، وبراعم البنفسج والسوسن البري يخيمان هنا، في هذه البقاع الجبلية الصامتة.

وكانت المنحدرات الجبلية قد بدأت تخضر لتوها طارحة تعبها من الثلج والصقيع. وكان الهواء هنا طرياً وصافياً كالبلور، كما يكون أول الربيع.

تبدى لي عندها أنه لا يحتاج الإنسان من الحياة إلى شيء إلا لهذا الربيع وحلم السعادة.

في نهاية آذار. بعدما وصلت إلى قريتي الشمالية، تلقيت برقية مفاجئة، أتتني بالبريد، عبر موسكو، من جنيف:

«تلبية لرغبة المرحومة، أعلمكم بأنها توفيت في ١٧ آذار. المامون».

١٩٠٩

حفلة لا تنسى

لم تكن حفلة عيد الميلاد التي شهدتها موسكو لتختلف عن غيرها من الحفلات، ولكن كل ماضمته بدا لي، ذاك المساء، مميزاً وخاصاً: الحشد البشري ذو الثياب الأنيقة الذي كان يتعاظم مع حلول منتصف الليل، الصخب المسكر لحركة الجمهور على الأدراج، تزاحم الراقصين في القاعة المضاءة بثريات كريستالية محجرة، دوي الأبواق الموسيقية التي كانت تصاحب الكورس، مرحبة بالضيوف، مغطية بضجيجها كل شيء.

وقفت طويلاً في الحشد، عند أبواب القاعة، مركزاً انتباهي، منتظراً حلول موعد قدومها، فقد قالت لي من العشية أنها ستأتي في الثانية عشرة. كنت شارداً للغاية، بحيث أن الداخلين إلى القاعة، والخارجين منها، هاربين من حرها الخانق، كانوا يصدمونني باستمرار. كنت، ضمن هذا القيظ الاحتفالي، والقلق الذي انتظرها به، مقرراً أن أقول لها كلمة أخيرة،

حاسمة، أحس بكل ما في يحترق: الفراك، والصدار وظهر القميص والياقة والشعر المسرح الأملس. جبيني المغطى بالعرق فحسب كان بارداً كالجليد، وكنت أحس ببرودته، وبعظمه بل وببياضه أيضاً، هذا البياض الذي لابد أن يشبه، فوق العينين السوداوين الحادتين، بياض القبور. كان كل شيء يزداد حدة فيّ، فأنا مريض بحبها منذ زمن بعيد، وكنت أخاف على نحو غامض، وكأنني مسحور، جسدها العارم وشعرها الرائع، وشفتيها المكتنزتين، ورنين صوتها، وأنفاسها. كنت أخافها، وأنا الشاب القوي ذو الثلاثين عاماً، والضابط الذي استقال لتوه. فجأة نظرت برعب إلى الساعة، تبين أنها تمام الثانية عشرة، فاندفعت إلى الأسفل، عبر الدرج، معاكساً الجمهور الصاعد من القاعة السفلى، التي كان يهب منها برد صقيعي اخترق كل جسدي عبر الفراك – لم أتعود خفته ورقته أبداً بعد المعطف العسكري – ركضت، غير آبه بالحشد، بسرعة فائقة وانسياب لين، ومع ذلك تأخرت: كانت تقف وسط القادمين الجدد الذين كانوا يخلعون معاطفهم، في فستان أسود من الدانتيلا، عارية الكتفين، وقد لفت شعرها العالي ذا التسريحة الاحتفالية بمنديل أورنبرغي، وعيناها تلمعان من تحته دون تعبير عن شيء.

أزاحت المنديل، ومدت لي يدها ذات القفاز الأبيض الطويل الممتد حتى كوعها بصمت كي أقبلها، وأنا، من الرعب لامست القفاز بشفتي فحسب، فأمسكت بذيل ثوبها، ولفت يدها حول كتفي بصمت، وبصمت أيضاً صعدنا الدرج وأنا أقودها ككائن مقدس. ثم سألتها، لسبب غير مفهوم، بشفتين جافتين:

- هل ترقصين هذه الأيام؟

فأجابت مضيقة عينيها، ناظرة من فوق رؤوس الصاعدين أمامنا، باقتضاب مبالغ:

- كلا.

عندما دخلنا القاعة ظلت واقفة قرب الباب، مستمرة في الصمت وكأنني غير موجود. لم أستطع ضبط نفسي، خفت ألا تتاح لي فرصة أخرى، فرحت، فجأة، أقول كل ما كنت أعد نفسي لقوله طوال المساء. كنت أتحدث بحرارة وإلحاح، ولكن بصوت هامس ووجه جامد كيلا يلاحظ أحد حرارة حديثي. أما هي فكانت لفرحتي تسمعني باهتمام من دون أن تقاطعني، متفرجة على الراقصين وهي تلوح بمروحة من ريش النعام الأدخن.

- أعلم — قلت بوجه جامد وأنا أزداد حرارة وسرعة، معذباً في إخفاء تلك الابتسامة المرتعشة على شفتي من فرط السعادة

لكونها تسمعني بصبر واحتمال، إذن فهي تتظاهر فحسب بأنها مشغولة بتأمل الراقصين – أعلم – قلت وأنا لا أصدق كلماتي – أنني لا أستطيع أن آمل بشيء... فأنت اليوم مثلاً رفضت أن أمر لمرافقتك.

وهنا قالت بلا اكتراث ومن دون أن تنظر إليّ:

- الحوذي يعرف الطريق إلى هنا جيداً.

اعتبرت هذا مجرد مزحة وواصلت بإلحاح:

- أجل، أنا لا أنتظر منك شيئاً، يكفيني أنني واقف إلى جانبك.. تكفيني تلك السعادة الضئيلة في أن أبوح لك أخيراً بكل مشاعري الحبيسة في صدري... هذا وحده – غمغمت ماسحاً جبيني المتجلد، من دون أن أزيح بصري عن رموشها الطويلة الملطخة بذرات البودرة، وثغرها – هذا وحده فقط...

رفرفت، بين الراقصين، فتاة مرحة حمراء الشعر، راكضة صوبنا، تحمل آخر باقة لديها من السوسن في سلة مجدولة، فنظرت من دون تفكير إلى النمش الذي يملأ وجهها، ووضعت بسرعة في السلة، خمسين روبلاً من غير أن آخذ الباقة. ابتسمت الفتاة بلطف وانحنت ثم ركضت مبتعدة.

أردت متابعة حديثي لكنها سبقتني. هاقد نطقت أخيراً:

- كم أضجرتني هذه الدمية الحمقاء، لا يخلو احتفال منها.

قالت هذا وهي تواصل التلويح بمروحتها على وجهي، خافقة الهواء الدافئ عليها، ناظرة إلى حسناء شقراء، تراقص ضابطاً جيورجياً، مقتربين منا مع غيرهما من الراقصين، ثم أردفت:

- مؤسف أنك لم تأخذ السوسن، كان بودي أن أحتفظ به كذكرى عن هذه الحفلة.. ولكن مع ذلك لن أنساها أبداً.

تنفست بصعوبة من البهجة، وغمغمت، بصعوبة أيضاً، مخفضاً بصري:

- لن تنسيها؟

فأدارت رأسها نحوي قليلاً:

- أجل، لقد سمعت اعترافك هذا أكثر من مرة، ولكنك الآن حزت، كما عبرت أنت، على هذه «السعادة الضئيلة» بالبوح أخيراً «بكل مشاعرك» تجاهي. سوف لن أنسى هذه الحفلة لأنني أنا أيضاً كرهتك «بكل مشاعري» أنت وحبك البهيج هذا. قد يبدو أنه ما من حب رائع يدغدغ القلب كحبك

هذا، لكنه يصبح فوق طاقتي على الاحتمال عندما لا أستطيع مبادلتك إياه. أنت تظن أنني أحب رجلاً آخر، وأنني لهذا «باردة وعديمة الرحمة» تجاهك. أجل أنا عاشقة. أتعرف من هو معشوقي؟ إنه زوجي الذي تحتقره، صحيح أنه أكبر مني سناً بمرتين، وأنه السكير الأول في كل الفوج، وأنه قرمزي دائماً من الشرب، وفظ كضابط صف، وأنه لا يفارق تلك العاهرة المجرية، لكنني مع ذلك أعشقه.

انحنيت لها ورأسي تدور، وانسحبت ببطء، عبر الحشد، إلى فسحة الدرج، مفكراً بأنه لم يبق أمامي سوى الانتحار بعد هذا الموقف المخزي. كان علي في الحشد أن أتجاوز رجلاً كهلاً، وقف بلا حراك على قدميه المتباعدتين، عاقداً يديه خلف ظهره، ممسكاً بقبعته، ضخماً فظ المظهر، يرتدي فراكاً عريضاً بالياً، تعلو رأسه تسريحة فلاحية. وفي اللحظة نفسها مرت به فتاة نحيلة طويلة تحمل بيدها المهتزة قليلاً مروحة صدفية مفتوحة، ترتدي فستاناً أحمر زاهياً، غطت فمها بالمروحة وقالت بصوت ميت مبهم النبرات: «غداً في الرابعة» ثم اختفت في الحشد متوردة الوجه. ظل واقفاً بثبات على قدميه، ملوحاً خلف ظهره بالقبعة، ثم أطلق ضحكة رضا عن النفس وغطى عينيه، علامة

أنه سمعها. فتقدمت منه بحدة وتسمرت من حسد مسعور وقلت بصوت متقطع، مثل رجل فضائحي عريق:

- أيها السيد اللطيف، إنني أشمئز منك بشكل فظيع.

فرفع حاجبيه مندهشاً:

- مابك ومن حضرتك...؟

قاطعته منفعلاً:

- الآن أعلمك من أنا، ولكن بودي أولاً أن أقول لك إنك جلف وإنني أدعوك للمبارزة.

فحرك قدميه واستقام:

- أنت سكران أم مجنون؟

تدخل الناس وفرقوا بيننا، فألقيت في وجهه ببطاقتي ومضيت عبر الدرج إلى الأسفل. لاهثاً، باحتفالية مسرحية تليق بمجنون.

طبعاً لم تأت من طرفه أية دعوة مماثلة للمبارزة.

١٩٤٧

غرام الأحدب

تلقى الأحدب رسالة غرامية مغفلة تدعوه إلى لقاء:

«انتظر يوم السبت، الخامس من نيسان، الساعة السابعة مساء في الحديقة الواقعة على ساحة الكاتدرائية، أنا شابة غنية عزباء، إضافة إلى أنني – لماذا أخفي هذا – أعرفك منذ زمن بعيد وأحبك، أحب نظرتك الأبية الحزينة، وجبينك النبيل الذكي، ووحدتك... وآمل أنك أنت أيضاً ستجد فيّ توأم روحك... علاماتي: طقم إنكليزي رمادي، مظلة حريرية ليلكية في اليد اليسرى، وباقة من البنفسج في اليمنى....»

كم أذهلته الرسالة وكم انتظر قدوم السبت. أول رسالة غرامية على مدى حياته كلها. وفي السبت ذهب إلى الحلاق، واشترى قفازات جديدة (ليلكية) وربطة عنق جديدة أيضاً (رمادية ذات شرارات حمراء تنسجم ولون الطقم)، وقد عقد ربطة العنق هذه، بأصابعه الدقيقة الباردة المرتعشة، وحلها ألف

مرة وهو يرتدي طقمه أمـام المـرآة، وعلـت وجنتيـه، بجلـدهما الرقيق، حمرة جميلة، واسودت عيناه الرائعتان.. وبعـد أن انتهـى من زينتـه جلـس عـلى الأريكـة، مثـل ضـيف غريـب في شـقته الخاصة، وبدأ ينتظر حلول الموعد الرهيب.

وأخيراً دقت الساعة في قاعة الطعام، معلنة، بجديـة مخيفـة، السادسة والنصف. انتفض واقفاً، وبرزانة وروية ارتـدى قبعتـه الربيعية في الممر، وحمل عصاه، وخرج مـن دون إسراع. لكنـه لم يستطع، عندما أصبح في الشارع، ضبط أعصابه، فمضى بقدميه الطويلتين الدقيقتين يحث خطاه، مفعما بـالكبر المتحـدي الـذي تضفيه عليه الحدبة، غير أنه كان مأخوذاً بذلك الرعـب النـاعم الذي نتتظر به السعادة. عندما دخل الحديقة القائمة قرب مبنـى الكاتدرائية مسرعاً تجمد بغتة في أرضه: فقد أتـت إلى لقائـه، في الضوء الوردي لشفق الربيع، وبخطوات رصينة طويلـة، امـرأة ترتدي طقـماً رماديـاً وقبعـة بديعـة، تـشبه القبعـات الرجاليـة، وتحمل مظلة في يدها اليـسرى وباقـة مـن البنفـسج في اليمنـى، وكانت.... حدباء مثله.

ثمة من يقسو على الإنسان بلا رحمة.

١٩٣٠

سوخادول

-١-

كانت ناتاليا تدهشنا دائماً بتعلقها بسوخادول.

هي أخت أبينا بالرضاعة، شبت معه في بيت واحد، وعاشت معنا في لونيفا ثمانية أعوام كاملة. عاشت معنا كواحدة منا وليس كأمة سابقة أو خادمة بسيطة. وخلال هذه الأعوام الثمانية ارتاحت، على حد تعبيرها، من سوخادول ومن كل ما سبب لها الألم. ولكن ليس عبثاً، يقول المثل، مهما أطعمت الذئب يظل يرنو ببصره إلى الغابة: فبعد أن ربتنا وأشرفت على العناية بنا، عادت مجدداً إلى سوخادول. أذكر نتفاً من أحاديثنا الطفولية معها:

ـ أأنت يتيمة يا ناتاليا؟

ـ يتيمة، مثل أسيادي تماماً. فجدتكم آنا غريفون الناعمة فارقتنا باكراً مثل أبي وأمي.

ـ ومما ماتا باكراً؟..

ـ أتاهما الموت فماتا..

ـ ولكن مم باكراً؟

ـ هكذا شاء الرب، أبي أرسله السادة إلى الجندية لذنب ارتكبه، وأمي انقصف عمرها بسبب الديوك الهندية، أنا طبعاً لا أذكر شيئاً، ولكن الخدم يقولون: «كانت أمي مسؤولة عن الطيور، وكان لديها من الديوك الهندية مالا يحصى. وقد أدركها البرد وهي ترعى، وأهلكها عن آخرها، هرعت أمي إليها، وعندما وصلت ورأت ما حل بها، فارقتها الروح من الرعب.

ـ ولماذا لم تتزوجي؟

ـ لم يكبر خطيبي بعد.

ـ لا ...أجيبي بلا مزاح.

ـ يقولون إن السيدة عمتكم حظرت الزواج علي ولهذا ينادون هذه العبدة الفقيرة التي تقف أمامكم، يا آنسة.

ـ ولكن أي آنسة أنت.

ـ آنسة بكل معنى الكلمة... - أجابت ناتاليا بضحكة رقيقة، مقطبة شفتيها وهي تمسحها بيدها الشائخة – فأنا أخت أركادي بيتروفيتش بالرضاعة، أي عمتكم الثانية...

كنا ننمو ونزداد اهتماماً بما يقال في بيتنا عن سوخادول، وصرنا نفهم أكثر فأكثر ما غمض علينا فيما مضى، وبدأت ملامح الحياة السوخادولية الغريبة تزداد حدة ووضوحاً.

كنا نحس أن ناتاليا، التي عاشت نصف عمرها مع أبينا حياة واحدة تقريباً، هي بحق واحدة منا، نحن سلالة خروشوف العريقة!! وها قد تبين أن هؤلاء السادة قد أرسلوا أباها إلى الجندية، وأحيطت أمها بجو من الرعب بحيث أن قلبها انخلع لدى رؤية الديوك الهالكة.

ـ حقاً – قالت ناتاليا – وكيف لا يقع إنسان ميتاً بسبب حادث كهذا؟ فربما نفاها السادة إلى ما هو أبعد من موجاي.

وفيما بعد اطلعنا على سمة من سمات سوخادول أكثر غرابة: علمنا أنه لم يكن هناك أبسط وأطيب من سادة سوخادول "في الكون كله"، ولكن علمنا أيضاً أنه لم يكن "أحر منهم". وعلمنا أن البيت القديم في سوخادول كان معتماً ومكفهراً. وأن جدنا المجنون بيتر كيريليتش قتل في هذا البيت من قبل غيرفاسكا ابنه اللا شرعي وصديق والدنا وابن عم ناتاليا. وعلمنا أيضاً أن العمة تونيا، التي كانت تعيش في واحد من أكواخ الخدم العتيقة المحيطة بالبيت المتهاوي، والتي كانت

تعزف ببهجة على البيانو، ذي الأنين والصرير من الشيخوخة، رقصة الإيكاسيز، فقدت عقلها منذ زمن بعيد – بسبب قصة حب تعسة –، وعلمنا أن الجنون قد أصابا ناتاليا أيضاً في يوم ما. وأنها منذ كانت طفلة وقعت في حب العم المرحوم بيتر كيريلتش، وظلت تحبه إلى آخر حياتها، أما هو فقد أرسلها إلى المنفى في ضيعة شوسكي... أحلامنا المضطربة عن سوخادول كانت مفهومة، فهي بالنسبة لنا نصيب تذكاري شاعري للماضي، وبالنسبة لنتاليا؟...إنها من قال ذات مرة بحرقة، وكأنها تجيب على فكرة خطرت إلى ذهنها:

ـ وماذا!!.. في سوخادول كنا نجلس خلف الطاولة والسياط في أيدينا. مجرد التذكير بذلك يرعبني.

ـ تقصدين العصي؟... سألناها نحن.

ـ كلها واحد.

ـ ولماذا؟

ـ تحسباً لأي مشاجرة.

ـ وهل كنتم كلكم في سوخادول تتشاجرون.

ـ فليحفظنا الرب، لم يكن يمر يوم من دون حرب، حارين كلهم كانوا، من البارود الصافي.

كنا نذوب سروراً لدى سماعنا هذه الكلمات فينظر أحـدنا إلى الآخر ببهجة. وظللنا لوقت طويـل نتخيـل البـستان الـشاسع، والبيت الكبير ذا الجدران المبنية من جذوع البلوط، التي يعلوها سقف من القش مسودّ بفعل الـزمن، والغـداء في صـالون هـذا البيت: الجميع جالسون إلى الطاولـة، الجميـع يـأكلون ملقيـين بالعظام إلى الأرض لكلاب الصيد، وكل منهم ينظر إلى الآخر، بطرف عينه، ولدى كل منهم سـوط قـابع عـلى ركبتـه، ولكننـا ندرك جيداً أن هذه السياط كانت مصدر رضا للآخرين ولكـن ليس لناتاليا، ومع ذلك فقد غادرت لونيفـا إلى سـوخادول، إلى منبع ذكرياتها القاتمة، لم يكن لديها هناك ما هو خـاص بهـا، ولا أهل، وراحت تخدم في سوخادول ليس سـيدتها الـسابقة العمـة تونيا، وإنما أرملة المرحوم بيتروفيتش، كلافديا ماركوفنا. كل مـا في الأمر أن ناتاليا لم تكن تستطيع العيش خارج هذا البيت.

ما العمل، هي العادة – كانت تردد بتواضع – فأينما تـذهب الإبرة يذهب الخيط معها. وهدوء نفسك في مسقط رأسـك. ولم تكن هي وحدها مـن أدمـن التعلـق بـسوخادول، فكـل أهـالي سوخادول الآخرين كانوا شغفين بالذكريات وأنصاراً متقـدين لسوخادول.

كانت العمة تونيا تعيش في فقر مدقع. حرمتها سوخادول من السعادة والعقل وكل ملمح إنساني، ولكنها، رغم كل محاولات أبي لإقناعها، لم تكن تسمح لنفسها حتى بالتفكير في مغادرة عشها الحبيب والسكن في لونيفا.

ـ من الأفضل أن أضرب الجبل بحجر!!..

كان أبي خالي البال. وكان يبدو لنا أن ليس ثمة ما يتعلق به. ولكن أسى عميقاً كان يفوح من أحاديثه عن سوخادول. لقد رحل عن سوخادول منذ زمن بعيد ليستقر في لونيفا التي تملكها جدتنا أولغا كيريلوفنا، ولكنه ظل يتشكى حتى وفاته.

ـ فرد واحد بقي من عائلة خروشوف في كل الدنيا، وهو لا يقطن سوخادول!!

كان، بعد أن ينطق هذه الكلمات يستغرق في التفكير محدقاً في النوافذ والحقول، ثم فجأة يتناول الغيتار، راسماً ابتسامة ساخرة، ويردف بتلك اللهجة الصادقة نفسها التي تحسر فيها على سوخادول قبل لحظة.

ـ وما الذي يعجبك في سوخادول.. فلتذهب إلى الجحيم.

ولكن روحه كانت مع ذلك سوخادولية، لا فكاك لها من أسر الذكريات، وسلطة السهب وحياتها الرتيبة، وتلك السلالة

العريقة التي صهرت القرية والخدم والسادة في كل واحد. صحيح أننا، نحن عائلة خروشوف العريقة، مذكورون في الكتاب السادس، وكان لدينا عديد من الأجداد الأسطوريين المشاهير المتحررين من دم بلطيقي ودم أمراء تتار، ولكن دم آل خروشوف امتزج بدماء الخدم والضيعة منذ قرون عديدة. من منح بيتر كيريلتش الحياة؟... تختلف الروايات في هذا. من كان والد غيرفاسكا، قاتله؟.. منذ سني حياتنا الأولى كنا نسمع أنه بيتر كيريليتش.. من أين يأتي ذلك الاختلاف الحاد في الطباع بين أبي وعمي؟... في هذا أيضاً تختلف الروايات. كانت ناتاليا أخت أبي بالرضاعة وقد تبادل وغيرفاسكا الصلبان...آن الأوان، ومنذ زمن بعيد، لآل خروشوف أن ينظروا للضيعة والخدم كبضعة من أهلهم.

في الحنين إلى سوخادول، وفي إغراء قدمها عشنا طويلاً أنا وأختي. كان الخدم والضيعة والبيت في سوخادول يشكلون أسرة واحدة.. وكان أجدادنا الأول هم من يدير هذه الأسرة، وقد ظل ذلك محسوساً حتى في الأجيال التالية لهم. إن حياة الأسرة والقبيلة والعشيرة عميقة الأغوار معقدة، سرية، وإلى حد ما مرعبة، ولكنها قوية بسبب عمقها المعتم هذا، وسيرها

وماضيها. لم تكن سوخادول أغنى من أي قبيلة من قبائل السهب البشكيرية بآثارها المكتوبة وغيرها. ففي روسيا يستعاض عنها بالسير الشفوية، والسيرة والأغنية هما سم الروح السلافية!! كان خدمنا السابقون كسالى ولعين بالأحلام، فأنّا لنفوسهم أن ترتاح في بيت غير بيتنا؟.. لم يبق من سادة سوخادول سوى والدنا. أول لغة نطقنا بها كانت سوخادولية، والحكايات الأولى والأغاني الأولى التي لامست قلوبنا كانت سوخادولية أيضاً. كان يرويها أو يغنيها لنا أبي و ناتاليا. وهل يمكن لأحد أن يغني مثل أبي، وهو تلميذ الخدم، بمثل هذا الحزن الشفاف، والعتاب الرقيق، والوجد الرخيّ، عن "سيدته المخلصة المدللة"؟ وهل يمكن لأحد أن يقص القصص مثل ناتاليا؟ ومن كان أقرب إلينا من فلاحي سوخادول؟

كانت المشاحنات والشجارات سمة مميزة لآل خروشوف منذ أقدم العصور، مثلها في ذلك مثل أي أسرة تعيش عزلاء متلاصقة لزمن طويل. في طفولتنا حدثت مشاجرة كبيرة بين سوخادول ولونيفا، بحيث أن أبي ظل عشر سنوات لا يطأ بقدمه عتبة بيته الحبيب. هكذا لم نزر صغاراً سوخادول حتى

ولا بشكل عابر. ذهبنا إلى هناك مرة واحدة فقط ونحن مسافرون إلى زادونسك. ولكن الأحلام أحياناً تكون أقوى من اليقظة، وظللنا نذكر بغموض، ولكن بقوة، ذلك اليوم الصيفي الطويل، وتلك الحقول المتماوجة، والدرب العريض الخاوي، الذي أسرنا بسعته وامتداده وجذوع صفصافه المجوفة. نذكر خلية نحل كانت معلقة على شجرة صفصاف بعيدة عن الطريق، موغلة في حقول القمح، خلية متروكة لرعاية الرب في عراء الحقول، على قارعة درب خاو. ونذكر المنعطف العريض في أسفل الهضبة، والمرعى الشاسع العاري، الذي تحدق فيه أكواخ فقيرة مدخنة، وصفرة الوديان الصخرية الغائرة خلف الأكواخ، وبياض الأحجار المدورة، والحصى المستلقية في قيعانها.. أول حدث أرعبنا كان أيضاً سوخادولياً: عندما قتل غيرفاسكا جدنا. وكنا كلما سمعنا حكاية هذه الجريمة نتخيل إلى ما لا نهاية تلك الوديان الصفراء الممتدة من المجهول. كان يبدو لنا أن غيرفاسكا هرب عبرها بعد ما ارتكب فعلته المرعبة "وغاض في أعماق البحر كمفتاح حديدي".

كان فلاحو سوخادول يزورون لونيفا، ولكن ليس لغايات كغايات الخدم، وإنما لأن الأرض هنا أوسع، ولكنهم كانوا

يدخلون بيتنا مثلما في سوخادول. كانوا ينحنون لأبي ويقبلون يده، ثم، بعد أن ينفضوا شعورهم، يتبادلون القبل في الشفاه ثلاثاً وإياه وناتاليا وإيانا. كانوا يجلبون معهم كهدية عسلاً وبيضاً ومناشف مطرزة، وكنا، نحن من شب في الحقول، مرهفين تجاه الروائح، شرهين إليها، كشرهنا للأغاني والسير. علقت في ذاكرتنا إلى الأبد تلك الرائحة المميزة اللطيفة القنبية، التي كنا نشمها في تبادل القبل مع فلاحي سوخادول، ورائحة القرية السهبية العتيقة التي تفوح من هداياهم: العسل يفوح برائحة زهور الحقل وخلايا النحل البلوطية المعتفنة، والمناشف تفوح برائحة الحظائر والأكواخ العابقة بالدخان، الأكواخ القائمة منذ زمن الأجداد... لم يكن فلاحو سوخادول يقصون علينا شيئاً، ولم يكن لديهم أية سيرة تروى، فمقابرهم تقبع بلا شواهد وأسماء، وحيواتهم كلها متشابهة، مملة، لا تترك خلفها أي أثر، ولم تكن من ثمرة لتعبهم وكدهم سوى الخبز البسيط الذي يؤكل. كانوا يحفرون الينابيع في المجرى الصخري لنهر كامنيكا الذي جف منذ زمن بعيد: لكن لا يمكن تعليق الآمال على الينابيع، لأنها تجف هي أيضاً، وكانوا يبنون المساكن، ولكنها لا تدوم طويلاً، إذ تكفي شرارة واحدة حتى تحترق عن

آخرها.. إذن ما الذي كان يشدنا جميعاً إلى المرعى العاري والأكواخ والوديان وضيعة سوخادول المفلسة؟...

-٢-

لم يقيض لنا الذهاب إلى الضيعة التي أنجبت ناتاليا، الضيعة التي استحوزت على حياتها كلها، والضيعة التي سمعنا الكثير عنها، إلا في آخر سني المراهقة.

أذكر، كما لو أن هذا حدث البارحة، كيف انفلت علينا وابل من المطر، تصاحبه رعود مصمّة، وأفاع سريعة مبهرة من البرق، عندما اقتربنا من سوخادول، وكيف انزلقت غيمة سوداء ليلكية إلى الشمال الغربي، مغطية بمهابة نصف السماء، وبدت خضرة حقول القمح تحت ظلها الضخم شاحبة، مسطحة، ميتة، وبدا العشب الندي على حافة الدرب الكبير طازجاً إلى حد لا يصدق، وخيل لنا أن الخيول المبتلة قد ضمرت فجأة، وهي تضرب الأرض بحوافرها فتلمع حدواتها، وكانت عربتنا وهي تمخر الطين المزرق، تطلق صريراً ممتزجاً بصوت الماء.. وفجأة، عند المنعطف المؤدي إلى سوخادول، رأينا قامة غريبة الهيئة، في ثوب طويل وغطاء

رأس، تقف في حقل الجودار، ليس واضحاً أهي لشيخ أم امـرأة عجوز، تضرب بقرة رقطاء بلا قرنين بعود يـابس. مـع اقترابنـا ازداد العود اليـابس نـشاطا، فهربـت البقـرة إلى الطريـق وهـي تلـوح بـذيلها. هتفـت العجـوز بكلمـة مـا واتجهـت إلى بيتنـا، وعندما اقتربت منا مدت إلينا وجههـا الممتقـع. قبلنـا العجـوز وقد انتابنا الرعب من مرأى عينيها المجنونتين السوداوين، ومن ملمس أنفها البارد المدبب، ورائحة الكوخ الثقيلة. ترى أليست هذه هي الغولة بشحمها ولحمها؟.. كانت تعلو رأسها قلنـسوة مصنوعة من خرقة قذرة، ولم يكن يستر جسدها العـاري سـوى ثوب ممزق، مبتل حتـى الخـصر، لا يغطـي ثـدييها الأعجفـين. كانت تصرخ وكأننا صم، أو كأنها تريد أن تصب عتاباً غاضـباً. وفهمنا من صراخها أنها العمة تونيا.

زعقت كلافديا ماركوفنا – وهي امرأة بدينة قـصيرة القامـة، ذات لحية صغيرة شائبة، وعينين متألقتين بشكل غـير عـادي – بمرح كتلميذة. كانت جالسة عند النافذة المفتوحـة في بيـت ذي درجين كبيرين، وفي يديها جورب منـسوج، رافعـة نظارتهـا إلى جبينها، محدقة إلى المرعى المندغم بالفناء. انحنـت ناتاليـا، وقـد علت شفتيها ابتسامة هادئة، وهي تقـف عـلى الـدرج الأيمـن.

كانت تقف موزعة النفس، ملفوحة بالشمس، ترتدي حذاء من الخيش، وتنورة صوفية حمراء، وقميصاً رمادياً ذا قصة واسعة حول عنقها القائمة المجعدة. نظرت إلى هذه العنق، وإلى عظام كتفيها الناحلة، وعينيها المتعبتين الحزينتين، وفكرت (على ما أذكر) أنها هي من شب مع والدنا، منذ زمن بعيد، وهنا بالضبط، في هذا البيت البلوطي الذي بناه الجد، والذي التهمته النيران مرات عديدة، فلم يبق منه سوى هذه القباحة، ولم يبق من حديقته سوى عوسجات متفرقة، وبضع شجرات من الحور والبتول، ولم يبق من أبنية الخدمة فيه سوى كوخ ومخزن للحبوب، ومستودع مبني من الطين، وحجرة تبريد غطاها نبات الشيح. فاحت رائحة السماور وانتشرت الأسئلة، وبدأت تظهر تلال من أواني المربى الكريستالية التي لها من العمر قرون، وملاعق صغيرة ذهبية رقيقة مثل ورق الورد، وكعك محلى احتفظ به خصيصاً للضيوف. احتدم الحديث بألفة ودودة بعد ذلك الخصام الطويل، فذهبنا نحن نتسكع بين الغرف باحثين عن شرفة أو مخرج إلى الحديقة. كان كل شيء مسوداً من الزمن، وكان فظاً منظر هذه الغرف الواطئة الخاوية، التي ظلت سائرة على نظام جدي، والتي بنيت من بقايا أشجاره هو. في

زاوية من زوايا غرفة الخدمة كان ثمة أيقونة مسودة كبيرة للقديس ميركوري سمولينسكي، هو نفسه ذلك الذي تحفظ خوذته وحذاؤه الحديديان في محراب كاتدرائية سمولينسك العريقة. سمعنا أن ميركوري كان بطلاً شهيراً، دعته الأم الإلهية الهادية أوديغيتريا لإنقاذ منطقة سمولينسك من التتار، وبعد أن أهلك هذا القديس التتار، وفرق جموعهم، غفا فقطع الأعداء رأسه، وعندها تناول رأسه بيديه وأتى إلى بوابة المدينة كي يرى ما حدث.. وكم هو مرعب أن تنظر إلى صورة إنسان مقطوع الرأس، يحمل رأسه الميتة في إحدى يديه، وفي الأخرى يمسك بأيقونة الأم الهادية. كانت هذه الصورة كما يقال، هي الأيقونة المقدسة لجدي، وقد مرت بعديد من الحرائق الفظيعة، ولفحتها النيران، فأطّرت بإطار ثخين من الفضة، وسجلت على ظهرها شجرة النسب لآل خروشوف. وتماماً، وكأنها في توافق مع هذه الصورة، تدلت من الأبواب مزاليج حديدية ثقيلة، وكانت ألواح الأرضية الخشبية في الصالون عريضة للغاية، قاتمة وزلقة، والنوافذ ضيقة وذات أطر ترفع وتخفض. مضينا إلى حجرة الضيوف، عبر الصالون الذي هو نسخة مصغرة عن ذلك الصالون الذي كان آل خروشوف يجلسون فيه إلى الطاولة

والسياط في أيـديهم، وهنـا في حجـرة الـضيوف، عـلى الـشرفة المقابلة للباب، كان يقف، في وقت مضى، البيـانو الـذي كانـت تعـزف عليـه العمـة تونيـا، والتـي وقعـت في هـوى الـضابط فويتكيفتيش، بيتر بيرتـوفيتش، وفـيما يـلي ذلـك كانـت أبـواب حجرة الأرائك وعنبر الفحم تكشر عن أعماقها، تلـك الأعـماق التي كان الجد يجد فيها في وقت ما، ملجأ وطمأنينة.

كان المساء متجهماً وفي السحب المحلقة فوق أطراف البستان المقلوعة أشجاره، خلف المجرش شبه العاري، والحور الفـضي، كـان الـبرق يلمـع مـضيئاً، للحظـة، الجبـال الغائمـة الورديـة المذهبة.. يبدو أن وابل المطر لم يصل بعد إلى غابة تروشـين التـي كانت تظلم بالتدريج، بعيداً خلـف البـستان، عـلى المنحـدرات وراء الوديان. من هنـاك كانـت تتنـاهى رائحـة شـجر البلـوط الخضراء، الدافئة، الممتزجة برائحـة العـشب والهـواء الرطـب، العليل، الـراكض عـبر هامـات شـجر البتـول، أو مـا تبقـى في الممـشى مـن شـجر البتـول، وشـجيرات القـريص العاليـة، والحـشائش الطفيليـة، والعواسـج المحيطـة بالـشرفة، وكـان الصمت العميق للمساء والسهب، وروسيا النائيـة يغطـي كـل شيء...

- تفضلوا لشرب الشاي – هتف بنا صوت خفيض.

كانت هي، شريكة وشاهدة تلك الحياة وراويتها الرئيسية، ناتاليا، ومن خلفها كان ثمة شخص يحدق بعينين مجنونتين، منحنياً قليلاً، ينزلق بمهابة عبر الحقل المعتم الأملس. إنها سيدتها. كانت القلنسوة ما تزال على رأسها، ولكنها استبدلت بثوبها الممزق فستانا عتيق الطراز، وألقت على كتفيها بشال ذهبي كالح من الحرير.

ـ أين أنتم يا أطفالي؟*

هتفت متكلفة الابتسام، وكان صوتها واضحاً وحاداً، مثل صوت الببغاء، عندما انبثق بشكل غريب في الغرف الخاوية المعتمة.

-٣-

كانت ضيعة سوخادول المفلسة آسرة تماماً مثل ناتاليا، مثل بساطتها الفلاحية، وروحها البائسة الرائعة التي كونتها سوخادول.

(*) بالفرنسية في الأصل.

كانت حجرة الضيوف العتيقة ذات الأرضية الملتوية تفوح بالياسمين، وكانت الشرفة المهترئة، قد تلونت بالأزرق الرمادي بفعل الزمن، وكنا نضطر، عندما نريد الخروج منها، للقفز، إذ لم يكن لها درج، وكانت غارقة في القريص والبيلسان والبجيل وفي الأيام القائظة، عندما كانت الشمس تشويها، والأبواب الزجاجية الهابطة تفتح، والبريق المرح للزجاج يمتد إلى المرآة البيضوية، على الحائط، في مواجهة الباب، كانت تنبثق في ذاكرتنا صورة بيانو العمة تونيا الذي كان يقف، في وقت مضى، تحت هذه المرآة. كانت، في وقت من الأوقات، تعزف عليه، محدقة إلى النوتات الصفراء ذات العناوين المكتوبة بخط جميل، وكان «هو» يقف خلفها، معتمداً بيده اليسرى على خصره، مقطباً حاجبيه، ضاغطاً على أسنانه. وكان ثمة فراشات مدهشة – موشاة بأردية مزهرة، وفساتين يابانية، ووشاحات مخملية ليلكية، ضاربة إلى السواد – تطير إلى حجرة الضيوف. وقبل السفر خبط إحداها بكفه حانقاً، وكانت تقف بلا حراك على غطاء البيانو، فلم يبق منها سوى غبار فضي. ولكن عندما مسحت خادمة حمقاء، بعد عدة أيام، هذا الغبار، أصابت الهستريا العمة تونيا. كنا نخرج من غرفة الضيوف إلى الشرفة،

ونجلس على الألواح الدافئة، ونستغرق في التفكير. كانت الريح، وهي تركض، عبر البستان، تحمل إلينا الخشخشة الحريرية لأشجار البتول ذات الجذوع البيضاء، الناعمة، المرقطة بالسواد، والأغصان الخضراء الفارغة، كانت الريح توحوح، وتضج، وتهرب من الحقول، والعصافير الصفارية، الخضراء، المذهبة، تزعق بحدة وفرح، وهي تنطلق كالوتر فوق الأزاهير البيضاء، لاحقة بالغربان الثرثارة، المعششة بأعداد هائلة في المداخن المتهدمة، والسقائف المعتمة، حيث تفوح رائحة القرميد العتيق. وكان الضوء الذهبي يسقط عبر الكوى الضيقة على أكوام الرماد خطوطاً، خطوطاً. سكنت الريح، وانزلق النحل شبه نائم بين الزهور، قرب الشرفة منجزاً عمله بتؤدة، وفي السكون كان يتناهى إلى السمع فحسب، لعثمة أوراق الحور الفضية، رتيبة متتابعة، مثل رذاذ مطري لا ينقطع... كنا نتسكع في البستان ونمضي إلى أبعد الأماكن المحيطة، وهناك في تلك الأماكن المتصلة بحقول القمح، وفي حمام الجد ذي السقف المتهاوي، في ذلك الحمام نفسه الذي أخفت فيه ناتاليا مرآة بيتر بتروفتيش المسروقة، كان يعيش قطيع من الأرانب البيضاء. بأي خفة كانت تتقافز على العتبة، وبأي غرابة كانت

تحرك شواربها، وشفاهها المشقوقة، وتحدج بأطراف عيونها المتباعدة، الجاحظة، السياط الطويلة، والحشائش، وعواسج القريص التي كانت تغطي شجرات الكرز!!...وفي المجرش المفتوح كانت تعيش بومة كبيرة، قابعة على العارضة، منتقية أعتم الأمكنة، ناصبة أذنيها، مغلقة عينيها الصفراوين العمياوين. كان منظرها وحشياً، شيطانياً. انحدرت الشمس في البعيد خلف الحديقة، غارقة في بحر من القمح، وحل المساء مسالماً وواضحاً، ووقوق وقواق في غابة تروشين، ومن مكان ما تناهى، عبر المروج، بوح حزين لناي الراعي الشيخ ستوبا.. كانت البومة قابعة تنتظر الليل. في الليل يغفو كل شيء: الحقول والقرى وسوخادول، ولم تكن البومة تفعل سوى أن تتأوه وتبكي، كانت تحوم بلا صوت فوق المجرش وعبر الحديقة، ثم طارت إلى كوخ العمة تونيا، وحطت بخفة على سطحه، وراحت تزعق بألم... أفاقت العمة من نومها، على المقعد قرب الموقد، وهي تهمس متنهدة:

ـــ يا يسوع اللطيف ارفق بي.

كان الذباب يطن وسنان ساخطاً، وهو يحوم تحت سقف الكوخ المعتم الحار. لابد من شيء يوقظه كل ليلة: تارة توقظه

البقرة وهي تحك جلدها على حائط الكوخ، وتارة جرذ يـركض على مفاتيح البيانو التي ترن بشكل متقطع، ويقع عنها على قطع الأواني الخزفية التي ركنتهـا العمـة في الزاويـة بعنايـة، مـصدراً ضجيجاً، وتارة ثالثة القط الأسود ذو العينين الخضراوين وهـو يقفز إلى الكوخ بكسل، عائداً في وقت متأخر، وتارة رابعة تلـك البومـة نفـسها التـي تطـير إلى هنـا بزعيقهـا المنبـئ بالمـصائب، فتتغلب العمة على نعاسها، وتطرد الـذباب المتسلل في الظلمـة إلى عينيها، وتـنهض متجولـة بـين الـدكك، ثـم تـصفق البـاب خارجة إلى العتبة، وتقـذف كـيفما اتفـق إلى الأعـلى، إلى الـسماء الصافية بعصا، فتهوي البومة من السقف، مخشخشة بجناحيها، ضاغطة القش بهما، وتغـوص في العتمـة. إنهـا تلامـس الأرض تقريبـاً، ثـم تطـير بانـسياب إلى المجـرش، وترتفـع وتحـط عـلى سطحه، ومن جديـد يتنـاهى إلى البيـت بكاؤهـا. كانـت واقفـة وكأنها تـستعيد ذكـرى مـا، فجـأة تطلـق صراخـاً يـشبه صراخ الدهشة، ثم تعود إلى الصمت، ومرة أخـرى، بـشكل مباغـت، تبدأ بالتأوه والـصفير والقهقهـة بـشكل هـستيري ومـن جديـد تصمت لتنفجر تارة ثالثة بالأنين والعويل والشهيق. أما الليـالي المظلمة الدافئة، ذات الغيوم الليلكيـة، فكانـت هادئـة هادئـة..

وكانت لعثمة الحور الوسنان تنبثق نعسة، والبرق يلمع بحذر فوق غابة تروشين المعتمة، ورائحة شجر البلوط الدافئة الجافة تفعم المكان، وبالقرب من الغابة، فوق حقول الشوفان، على فسحة في السماء بين الغيوم، كان برج العقرب على شكل مثلث مضيء، يلمع مثل شاهدة القبر.

كنا نعود في وقت متأخر إلى البيت، ونصعد الدرج بحذر، بعد أن نكون قد تنشقنا الندى، وطزاجة السهب، وأزهار الحقول وأعشابها، وندخل الردهة المظلمة، وغالباً ما كنا نصادف ناتاليا وهي تصلي قبالة أيقونة ميركوري. كانت تقف أمامها حافية ضئيلة، ضامة يديها وهي تهمس وترسم شارة الصليب، وتنحني لها، للأيقونة الملفعة بالظلام. كانت تفعل هذا ببساطة وكأنها تجالس صديقاً عزيزاً، بسيطاً طيباً ولطيفاً مثلها. كنا نناديها بصوت خافت:

- ناتاليا!!..

فترد بصوت خافت أيضاً وببساطة – قاطعة صلاتها:

- نعم.

- لماذا لم تنامي حتى الآن؟

- سنشبع نوماً في القبر.

كنا نجلس على الدكة، بعد أن نفتح النافذة، أما هي فكانت تقف ضامة يديها. كانت البروق تلمع بشكل غامض، مضيئة الغرف المعتمة، وسمّانة ما تتخبط بعيداً في السهب الندية، وأوزة مستيقظة تزعق عند البركة بقلق وترقب.

- كنتم تتنزهون؟

- أجل...

- مازلتم فتياناً. عندما كنا في سنكم كنا نتسكع طوال الليل، من الغسق إلى الشفق.

- كانت الحياة جميلة في الماضي؟..

- أجل جميلة...

وحل صمت طويل، ثم تسأل أختي:

- لماذا تنعق البومة يا عمة؟

- فليأخذها الشيطان! حتى البندقية لا تفزعها. شيء مرعب. طوال الوقت توحي إلي بوقوع مصيبة. إنها لا تنفك تخيف الآنسة، وهي "خويفة" حتى الموت...

- وكيف مرضت؟

- شيء واضح.. ظلت تبكي وتحزن.. ثم بدأت تصلي.. وكل يوم تزداد ضراوة معنا نحن الخادمات، وغضباً على أشقائها.

وتذكرنا السياط فسألناها:

- لم تكونوا تعيشون بإخاء إذن؟

- بأي إخاء!!.. وخاصة هنا، بعد أن مرضت ومات الجد، وشب السادة الفتيان، وتزوج المرحوم بيتر بيرتوفتيش، كانوا جميعاً ملتهبين كالبارود الخالص.

- وهل كانوا يضربون الخدم كثيراً؟

- لم تكن لدينا هذه العادة. مرة أذنبت فلم يفعل بيتر بيتروفييش سوى أن أمر بجز شعري بمقص الغنم، وأن ألبس رداء من الخيش، وأرسل إلى ضيعة نائية.

- وما كان ذنبك؟

نادراً ما كانت تجيب على هذا السؤال مباشرة وبسرعة. كانت ناتاليا تحدثنا عن ذلك أحياناً بصراحة وحرقة، ولكنها، أحياناً، أخرى، كانت تتلعثم وتستغرق في التفكير، ثم تتنهد بخفة، فنفهم من صوتها، من دون أن نرى وجهها في العتمة، أنها تضحك بأسى:

- هكذا أذنبت... ولكنني بحت لكم بذلك.. كنت فتاة حمقاء.. عن الخطيئة والرزء غنى البلبل في الحديقة... كان ذنبي ذنب الصبا...

- اقرأي لنا يا عمة هذه الأشعار حتى النهاية...

فارتبكت ناتاليا...

- هذه ليست أشعاراً وإنما أغنية. إنني لا أذكرها الآن..

- غير صحيح... غير صحيح...

- عفواً.. اسمحوا لي...

ثم تلت بسرعة:

- «كم غنى عن الخطيئة»...أو «عن الخطيئة والرزء غنى البلبل في الحديقة أغنية يائسة.. ولم يدع الحمقاء تنام في الليلة الدامسة..».

غالبت أختي نفسها وسألتها:

- وهل كنت مغرمة كثيرا بعمي؟

فهمست نتاليا ببلادة واقتضاب:

- كثيراً.

- وهل تذكرين اسمه دائماً في صلاتك؟

- دائماً.

- يقال أنك غبت عن الوعي عندما نفيت إلى ضيعة سوشكا.

- أجل فنحن الخادمات رقيقات للغاية، حساسات تجاه العقوبة... ولا يمكن مقارنتنا في ذلك مع الفلاح التافه الذي أرسلت إليه.. عندما أخذني يفسي بودوليا تبلدت من الرعب ووقع الكارثة... وفي المدينة كدت أختنق من وضعي الجديد. وعندما وصلت إلى السهب، أحسست بالرقة والشفقة تنتابني، ثم صادفني في طريقنا ضابط يشبه عمكم فناديته وغبت عن الوعي!!.. وعندما ثبت إلى رشدي، وأنا راقدة في العربة، رحت أفكر كم أن وضعي حسن الآن، وكأنني في مملكة السماء!!

- هل كان صارماً؟

- لا أراكم الله!!

- ومع ذلك كانت العمة ذات طبع خاص للغاية أليس كذلك؟

- العمة... العمة... سأقول لكم: لقد أخذناها حتى إلى القس. يا إلهي كم تحملنا بسببها. كان يمكنها أن تعيش كما

يعيش الآخرون ولكن لا... تملكها الكبرياء حتى جنت.. كم أحبها فوتيكيفيتش!! أما هي فلا يعجبها العجب!!

- والجد؟

الجد؟ لقد كان ضعيف العقل. ومعه أيضاً حدثت أحداث كثيرة. الجميع كانوا في ذلك الوقت مضطرمي الطباع.. ومع ذلك لم يكن أسيادنا السابقون يشمئزون منا نحن الخدم، كان يصدف أن يعاقب أبوكم غيرفاسكا صباحاً – وهذا ما كان يلزمه – وفي المساء تراهما في الفناء يمرحان ويعزفان على البالالايكا...

- قولي لنا.. هل كان فويتكفيتش وسيماً؟..

- لا أريد الكذب.. لا لم يكن وسيماً. كان له وجه مغولي. ولكن كان جاداً ثابت الرأي. كان طوال الوقت يقرأ لها الأشعار، ويفزعها بقوله: سأموت وآتي لأخذك..

- والجد أيضاً جنّ من الحب؟

- لقد جن بحب جدتكم. هذه مسألة أخرى يا آنسة. كان بيتنا قاتماً كئيباً أراحنا الله منه. اسمعوا مني هذه الكلمات الغبية... وراحت ناتاليا تروي علينا، بهمس متأن قصة طويلة، طويلة.

-٤-

كان أبو جدنا، إذا صدقنا ما ترويه السيرة، إنساناً غنياً، ولم ينقل من كورسك إلى سوخادول إلا بعد أن شاخ. لم يكن يحب هذه الأنحاء بغاباتها ومتاهاتها. يقول المثل: «في الماضي كانت الغابات تغطي كل شيء...» والناس الذين كانوا يسافرون على دروبنا، كانوا يجتازون غابات كثيفة. وفي الغابات أيضاً كان يضيع نهر كامنيكا، وتضيع معه الهضاب التي يجري بينها، والقرى وسوخادول والحقول المرتفعة فيما حولها، ولكن الصورة كانت مختلفة في زمن الجد: أمداء شبه سهبية، منحدرات جبلية عارية، والحقول مغطاة بالشوفان والجودار والحنطة السوداء، والدروب تحيطها أشجار صفصاف كبيرة جوفاء، وهضبة سوخادول مكسوة بحصى أملس. لم يبق من الغابات سوى غابة تروشين، وبقيت الحديقة الرائعة طبعاً: ممشى عريض تحف به سبعون شجرة فارعة من أشجار البتول، وعديد من أشجار الكرز الغارقة في القريص، وعواسج توت العليق الوسنانة، والأكاسيا، والليلك، وحرج كامل من الحور الفضي في المحيط، ممتزج بحقول القمح. وكان يغطي البيت

سطح من القش، ثخين، قاتم، مرصوص، وكان يطل على فناء تحيط به، من جانبه، غرف عديدة مخصصة للخدم وشؤون الخدمات، وخلف الفناء امتد مرعى أخضر لا نهاية له، وقرية كبيرة، خالية البال والوفاض.

مثل سادتها تماماً – قالت ناتاليا – فالسادة أيضاً كانوا خالي البال، قنوعين، وقد تقاسم سيميون كيريليتش، أخو جدكم، الأرض وإيانا، وأخذ لنفسه الحصة الأكبر والأفضل، والإقطاعية التي وهبها لنا القيصر، وأخذنا نحن شويكا وسوخادول وأربعمئة نفس هرب نصفها.

توفي الجد بيتر كيريليتش عندما كان له من العمر خمسة وأربعون عاماً. وكان والدنا كثيراً ما يردد أن جدنا جن بعد أن كان نائماً على بساط في الحديقة، تحت شجرة تفاح، وفجأة هبت عاصفة قوية وانهمر وابل من التفاح عليه. أما الخدم، كما تقول ناتاليا، فقد فسروا خبل الجد على نحو آخر: لقد جن بيتركيريليتش بسبب هيامه الحزين بالجدة الحسناء التي ماتت. ويقال إن رعداً رهيباً قد دوى فوق سوخادول، قبيل مساء ذلك اليوم. وواصل بيتر كيريليتش ذو الشعر الأسود، والظهر المحني، والعينين السوداوين الحاميتين اليقظتين، الشبيه قليلاً

بالعمة تونيا، حياته في جنـون هـادئ. سـابقاً، حـسب كلـمات ناتاليا، لم يكونوا يعرفون مـاذا يفعلـون بـالنقود. وهـاهو الجـد يتسكع في البيـت، بجزمتـه الطريـة وقميـصه الفـاقع الألـوان، بانتباه وصمت ويدس في شـق جـذع بلوطـة مـا، وهـو يتلفـت حوله، بضع قطع ذهبية.

هذا من أجل تونيا وبائنتها – كان يغمغم عندما يمسكون به – وهذا آمن مكان، يا أصدقائي، آمن مكان.. ولكن إرادتكم فوق كل شيء.. إذا كنتم لا ترغبون في ذلك، فلن أفعلها مرة أخرى.

وكان يدس النقود في جذوع الأشـجار مـرات ومـرات بعـد ذلـك. وكـان إضـافة إلى ذلـك يغـير أمـاكن الأثـاث في غرفـة الضيوف، منتظراً قدوم أحد ما، رغم أن جيرانه لم يكونوا يأتون إلى سوخادول أبداً. وكان يتـشكى مـن الجـوع، ويحـضر لنفـسه أطباق التورو، فكان يدق البـصل الأخـضر في صـحن خـشبي بخراقة، ويفت الخبز فوقه، ويصب عليه كفاساً كثيفاً، ذا رغوة، ثم يرش كمية هائلة من الملح الرطب الضخم الحبيبات، بحيث يصبح التورو مراً لا يقوى امرؤ على أكله. وعندما تسكن الحيـاة في البيت بعد الغداء، ويذهب كل إلى زاويته المفـضلة للقيلولـة، لم يكن يعرف إلى أين يذهب. فقد كان ينام، وهو الوحيد، قلـيلاً

حتى في الليل، ولم يكن يحتمل الوحدة، فيبدأ بالتسلل إلى غرف النوم، والممرات، وحجرة الخادمات، وينادي النائمين بحذر.

- هل أنت نائم يا أركاش؟..تانيوشا أنائمة أنت؟..

وعندما يتلقى جواباً غاضباً «حل عنا بحق الرب يا أبتاه» يهدئهم بسرعة:

- نم.. نم يا عزيزي، فلن أوقظك.

ويتابع طريقه، متجنباً فحسب غرفة الرجال من الخدم، لأن هؤلاء كانوا فطنين للغاية، وبعد عشر دقائق كان يظهر مرة أخرى على العتبة، ومن جديد ينادي النائمين، مختلقاً مختلف الأعذار، كأن يدعي أن أحداً قدم في عربة ذات أجراس "ترى أليس هذا بيتكا قادماً من الجيش في إجازة"، أو أن غيمة تمخر السماء محملة ببَرَد مخيف.

لقد كانوا يخافون الصواعق كثيراً – تقول ناتاليا – كنت بنتاً صغيرة ومع ذلك أذكر.. كان بيتاً أسود كئيباً.. لا رده الله. واليوم في الصيف بطول عام. وكان الخدم من الكثرة بحيث لا تعرف ماذا تفعل بهم.. الرجال وحدهم كانوا خمسة. وكما هو معروف كان السادة الشبان يحبون النوم بعد الغداء، ونحن، الخدم المطيعين المخلصين، كنا مثلهم. وهكذا كان بيتر

كيريليتش يأتينا، وخاصة إلى غيرفاسكا «أيها الخدم هل أنتم نائمون»...فيرفع غيرفاسكا رأسه ويسأله: «هل تريد أن أفرك لك كرشك بالقريص»؟

- «لمن تقول هذا يا عاطل؟...» للشبح يا سيدي.. فقد رأيته في المنام...

فيتابع بيتر كيربليتش تجواله عبر القاعة وحجرة الضيوف، وهو ينظر طوال الوقت إلى النوافذ والحديقة: ألم يملأ الغيم السماء بعد؟.. وحقاً كم كان الماضي مليئاً بالصواعق، بصواعق هائلة. كان هذا يحدث بعد الظهر عادة، عندما تبدأ الصفارية بالزعيق، فتزحف الغيوم من خلف الحديقة، ويظلم البيت، وتخشخش الحشائش والقريص، وتختبئ الديوك الهندية مع فراخها تحت الشرفة.. شيء ممل لحد الرعب. وكان الجد يتنهد، ويرسم شارة الصليب، ويركض لإشعال شمعة عند الأيقونة، ويعلق المنشفة المباركة التي ورثها عن جده المرحوم — كنت أخاف هذه المنشفة حتى الموت —، ويلقي بالمقص عبر النافذة، وهذه أهم خطوة، فالمقص أداة فعالة ضد الصاعقة.

صارت الحياة أكثر مرحا في سوخادول عندما أتاها الفرنسيون — في البداية أتى إليها شخص يدعى لوي

إيفانوفيتش، وهو رجل كان يرتـدي سروالاً عريـضاً للغايـة في أعلاه، ضيق في أسفله، وله شاربان طويلان، وعينـان زرقـاوان حالمتان، وكان يسرح رأسـه الـصلعاء، بحيـث تمتـد الـشعرات المتبقية من الأذن إلى الأذن، ثم تلتـه مـدموزيل كهلـة كانـت لا تكف عن الإحساس بالقشعريرة – وخاصة عندما كان صـوت لـوي إيفـانوفتيش يهـدر، مالئـاً الغـرف وهـو يـصيح باركاشـا «اذهـب مـن هنـا ولا تعـد أبـداً».. وعنـدما يتنـاهى مـن قاعـة الدرس «تسلق الغراب الشجرة»(*)، وعندما كانت تونيـا تـتعلم العزف على البيانو. عاش هذان الفرنسيان في سـوخادول ثمانيـة أعوام، ولقد مكثا فيها كي لا يحـس بيـتر كيريليـتش بالـضجر. وعندما أرسـل الأولاد إلى مدينـة المحافظـة غـادرا البيـت قبـل عودتهم إليه في العطلة الفصلية الثالثـة، وعنـدما انقـضت هـذه العطلة لم يرسل بيـتر كيريليـتش أركاشـا وتونيـا إلى أي مكـان: فبرأيه أنه يكفي إرسال بيتينكا وحده. وهكـذا ظـل الولـدان إلى آخر حياتهما بلا تعليم أو إرشاد.. تقول ناتاليا:

- كنت أصغر الجميع سناً، أما غيرفاسكا فكان في سن أبيكما تقريباً، وهذا ما جعلهما صـديقين حميمـين. ولكـن، كـما يقـال،

(*) بالفرنسية في الأصل.

الذئب ليس خلاً للحصان. لقد تصادقا، وتعاهدا على صون هذه الصداقة إلى أبد الزمان، وتبادلا الصلبان، ولكن سرعان ما خرب غيرفاسكا كل هذا: إذ كاد أن يغرق والدكما في البحرة. كان أجرب، ماهراً في ارتكاب كل ما يجلب السجن والأعمال الشاقة. حدث هذا عندما قال لأبيكما ذات مرة «هل ستجلدني عندما تكبر» - «أجل» - «كلا» - «وكيف هذا» ثم نسج حيلة: كان لدينا برميل ملقى على منحدر التل المجاور للبحرة، انتبه إليه غيرفاسكا، واقترح على أركادي بيتروفيتش أن يجلس فيه كي يدحرجه إلى الأسفل: «تتدحرج أنت أولاً وبعد ذلك أنا». فأطاعه السيد الصغير، واستلقى في البرميل، فدفعه ذاك، وراح البرميل يهوي ضاجاً مقعقعاً، وسقط في الماء...يا مريم العذراء!! أي عمود من غبار ارتفع في السماء!! ولكن الحمد للرب أنه كان بالقرب منه بعض الرعاة.

عندما كان الفرنسيان في سوخادول ظل البيت محافظاً على حيويته. وعندما كانت الجدة حية، كنت ترى فيه أسياداً وسلطة وطاعة، وكنت تميز بين غرفة الراحة وغرفة الأسرة، وبين الأيام العادية والأعياد. وقد ظل هذا في زمن الفرنسيين، ولكن هذين رحلا، فبقي البيت بلا رب له. عندما كان الأولاد صغاراً كان

بيتر كيريليتش يبدو وكأنه يحتل المركز الأول في المنزل. ولكن ماذا بإمكانه أن يفعل، ومن كان يقود الآخر، هو أم الخدم؟.. أُغلق البيانو، واختفى الغطاء عن المائدة، وصاروا يتغدون بلا غطاء، وكيفما اتفق، ولم يبق ممر في المدخل بسبب الكلاب، ولم يعد أحد يهتم بالنظافة، والجدران الخشبية الفاقعة، والأرض القاتمة، والسقف والأبواب الشاحبة وما يعلوها، والأيقونات القديمة التي تغطي وجوهها السوزدالية ركناً كاملاً في القاعة، اسودت تماماً. في الليل، خاصة عندما يرعد الرعد، وتصخب الحديقة تحت المطر، وتضيء البرق الوجوه المرسومة على أيقونات القاعة، وتنفتح السماء المهتزة، الوردية، المذهبة، فوق البستان، وعندما، بعد ذلك، تتعالى ضربات الرعد في العتمة، كان الرعب يملأ البيت. أما النهارات فكانت فارغة، مملة، ناعسة، ومع مر السنين كان بيتر كيريليتش يزداد وهناً، ووجوده يتلاشى شيئاً فشيئاً. وكانت ربة البيت هي تلك الحيزبون داريا أوستينوفنا، مرضعة الجد، ولكن سلطتها لم تكن تزيد عن سلطته. أما الوكيل دميان فكان لا يتدخل في شؤون البيت. لم يكن يهتم إلا بأمر الحقول والزراعة، وكان يقول أحياناً، بضحكة ساخرة كسلى «وماذا، فأنا لا أزعل

أسـيادي...». كـان الوالـد فتـى لا مبالـياً بكـل مـا يجـري في سوخادول: لقد جن ولعاً بالصيد، والعـزف عـلى البالالايكـا، وبصداقته لغيرفاسكا الذي كان يعد خادماً، ومـع ذلـك يغيـب معــه أيامــاً بطولهــا في مــستنقعات ميــشيرسكي، أو في عنــبر العربات، من أجل دراسة حيل العزف والغناء.

تقول ناتاليا:

- لم يكونا يأتيان إلى البيـت إلا للمبيـت، وإذا لم يأتيـا، فهـذا يعنـي أنهـما في القريـة، أو في عنـبر العربـات، أو في الـصيد. في الشتاء يصطادون الأرانب، وفي الخريف الثعالب، وفي الـصيف العـصافير أو الـبط أو الحجـل. كانـا يركبـان العربـة متنكبـين بندقيتهما، ثم يناديان ديانكا و... ادعوا لنـا بـالتوفيق: اليـوم في الطاحونــة، وغــداً في مــستنقعات ميــشيرسكي، وبعــد غــد في السهب. كان الوالد يصاحب غيرفاسكا طوال الوقـت، وكـان هذا المبادر الأول في كل شيء، ولكنه كان يـوهم الآخـرين بـأن السيد الصغير يأمره. لقد أحب أركادي بيتروفيـتش عـدوه هـذا بصدق كأخ، أما هذا فكان يزداد حقداً عليه يوماً بعد يوم. كـان الـسيد يقــول لــه أحيانــاً: تعــال يــا غيرفــاسي نعــزف عــلى البالالايكـا!! علمنـي بحـق الـرب كيـف أعـزف: «انزلقـت

الشمس الحمراء خلف الغابة»، فينظر إليه هذا، نافثاً الدخان من منخريه، ويقول ساخراً: «...قبل يدي أولاً».. فيشحب أركادي بيتروفيتش ويثب من مكانه، وينهال على وجهه ضرباً بكل ما لديه من قوة، أما ذاك فكان يكتفي بأن يهز رأسه مسود الوجه، مقطباً مثل قاطع طريق «انهض يا وغد»... فينهض متمطياً مثل الكلب السلوقي، ببنطاله المخملي الفضفاض، صامتاً «أعتذر... لا تؤاخذني يا سيدي»... فيشهق السيد الصغير وهو لا يعرف ماذا يضيف «أجل.. إنني أسعى لأن أسلك معك يا لئيم سلوك ندٍّ لند، ولم أكن لأضن بروحي من أجلك وأنت... أتتعمد إغاظتي»؟

شيء بربري – تقول ناتاليا – كان غيرفاسكا يهين السيد الصغير وجده، وكانت الآنسة تهينني. السيد الصغير وجده، للحق يحبان غيرفاسكا وأنا كنت أعبد الآنسة... ولكن عندما عدت من سوشكي، بعدما أذنبت، عقلت قليلاً.

-٥-

ظلوا يجلسون إلى المائدة، والسياط على ركبهم، حتى بعد موت الجد، وهرب غيرفاسكا، وزواج بيتر بيتروفيتش، وبعد

أن نذرت العمة تونيا نفسها، وقد اختل عقلها، خطيبة ليسوع الحلو، وعادت ناتاليا من سوشكي. ولقد كان جنون العمة تونيا، ونفي ناتاليا ناتجين عن الحب.

أعقب زمن الجد الممل القصي، زمن السادة الفتيان. عاد بيتر بيتروفيتش إلى سوخادول، مفاجئاً الجميع باستقالته، وكان قدومه مميتاً لناتاليا وللعمة تونيا. فالاثنتان وقعتا في الحب، وقعتا بشكل خفي غير ملحوظ. في البداية أحستا...«ببساطة أن الحياة أكثر بهجة».

في الفترة الأولى قلب بيتر بيتروفيتش الحياة في سوخادول على وجهها الآخر، الوجه الاحتفالي الأرستقراطي. لقد قدم مع صديقه فويتكفيتش وجلب معه طباخاً، سكيراً، حليق الذقن، كان ينظر باحتقار إلى قوالب الجيليه المخدشة، المخضرة، والملاعق والشوك الفضة – وكان بيتر بيتروفيتش يريد أن يظهر أمام صديقه بشوشاً، سخياً وغنياً، وكان يفعل هذا بخراقة وصبيانية. ولقد كان بالفعل صبياً تقريباً، ناعماً للغاية، وسيم الوجه، حاداً بطبيعته وقاسياً، رغم ثقته الظاهرية بنفسه، ولكنه كان يضطرب بسهولة حتى البكاء، وبعد ذلك يظل يضمر الحقد طويلاً لمن سبب له ذلك الاضطراب.

- أتذكر يا أخي أركادي – قـال وهـو جـالس إلى المائـدة في اليوم الأول من قدومه إلى سوخادول – أتذكر نبيذ ماديرا الـذي كان لدينا؟

احمر الجد، وأراد أن يقول شيئاً ولكنه لم يجرؤ، فدعك صداره فحسب، أما أركادي بيتروفيتش فبهت:

- أي ماديرا؟...

وأما غيرفاسـكا فنظـر بوقاحـة إلى بيـتر بيتروفيـتش وأطلـق ضحكة ساخرة.

- لقد نسيت يا سيدي – قال مخاطباً أركادي بيترفيتش حتـى من دون أن يحاول إخفاء سخريته – حقاً، كان لـدينا كثـير مـن هذا النبيذ، بحيث لم نكن نـدري أيـن نـذهب بـه. وكنـا جميعـاً، نحن الخدم، نتخاطفه. كان نبيذ أسياد، أما نحـن الحمقـى فكنـا نشربه بدلاً من العصير.

- مـا هـذا أيـضاً؟... صرخ بيـتر بيتروفيـتش وقـد تـوردت وجنتاه – اخرس!!..

فأردف الجد بحماس:

- هكـذا...هكـذا.. يـا بيتكـا!!.. امـض.. امـض – هتـف بصوت ناعم فرح وهـو يكـاد يبكـي – أنـت لا تتـصور كيـف

يدمرني، خطر لي غير مرة أن أتسلل إليه وأحطم رأسه بالمدقة النحاسية... بل وأقسم أنني نويت مرة أن أغرس في خاصرته الخنجر حتى مقبضه.

فأجاب غيرفاسكا على الفور عابساً:

- ولكنني سمعت يا سيدي أنهم يعاقبون على هذا عقاباً مؤلماً. وأنا أيضاً يخطر على بالي أنه آن الأوان للسيد أن يطير إلى مملكة السماء!!

قال بيتر بيتروفيتش إنه، بعد هذا الرد الوقح المفاجئ، لم يتمالك نفسه إلا من أجل الضيف. وقال لغيرفاسكا كلمة واحد فحسب «انقلع من هنا فوراً»... وبعد ذلك أحس بالخزي لانفعاله، واعتذر بسرعة من فويكتفيتش، رافعاً إليه بابتسامة عينيه الآسرتين اللتين، ولوقت طويل، لم يستطع من عرف بيتر بيتروفيتش نسيانهما.

وظلت ناتاليا تذكر هاتين العينين لوقت طويل... طويل. كانت سعادتها قصيرة للغاية – من كان يظن أنها ستختتم برحلة إلى سوشكي، هذه الرحلة التي كانت أبرز حدث في حياتها؟

ما تزال ضيعة سوتشكي قائمة حتى الآن، رغم أنها انتقلت منذ زمن بعيد إلى ملكية أحد التجار، وهي تضم كوخاً طويلاً،

مزروعاً وسط سهل عار، وعنبراً، وبئراً يعلوه شادوف، وبيدراً تحيط به مزارع البطيخ. على هذا الحال كانت الضيعة طبعاً في زمن الجد أيضاً. حتى المدينة الواقعة على الطريق الواصلة بينها وسوخادول لم تتغير إلا قليلاً، أما ذنب ناتاليا فكان أنها، وبشكل فاجأها هي نفسها، سرقت مرآة بيتر بيتروفيتش الجميلة المؤطرة بالفضة.

عندما رأت هذا المرآة سحرها جمالها – كما يسحرها كل ما لدى بيتر بيتروفيتش - بحيث لم تتمالك نفسها عن سرقتها، وظلت، لعدة أيام قبل أن يكتشف ضياع المرآة، مذهولة بفعلتها، مسحورة بسرها الرهيب وكنزها، كما في حكاية «الوردة القرمزية»(*). وعندما ترقد لتنام كانت تضرع للرب كي يمضي الليل بسرعة ويحل الفجر. كان البيت مفعماً ببهجة العيد، وكان مليئاً منتعشاً بشيء ما جديد مدهش، سببه قدوم السيد الصغير الجميل ذي الشعر اللماع، والياقة الحمراء العالية

(*) الوردة القرمزية حكاية شعبية روسية، بطلتها فتاة أميرة ضحت بنفسها من أجل أبيها وعاشت مع وحش دميم الخلقة ولكنها ظلت مخلصة له حتى أنقذه حبها من السحر الواقع عليه وعاد إنساناً سوياً، جميل الوجه، بهي الطلعة. (المترجم).

للسترة العسكرية، والوجه الأسمر الناعم كما لدى الصبايا. كان العيد يملأ حتى الممر الذي كانت تنام فيه ناتاليا، وعندما تقفز عن صندوقها في السحر تتذكر فوراً أن العالم مفعم بالفرح، لأن الجزمة الخفيفة كانت تنتظرها للتنظيف عند عتبة الباب. كانت الجزمة من النعومة بحيث تليق بابن ملك. وكان العيد الأكبر ينتظرها خلف الحديقة، في الحمام المهجور، حيث تقبع المرآة المزدوجة المؤطرة بإطار فضي ثقيل، فكانت تركض إلى هناك سراً، والجميع نيام، عبر العشب الندي، كي تتمتع بحيازتها، وتتفرج على نفسها حتى الدوار، ومن ثم تغلق المرآة، وتخبئها، وتركض عائدة كي تقوم طوال الصباح بخدمة ذلك الذي لا تجرؤ على أن ترفع عينيها إليه، ذلك الذي تأمل بجنون أن تعجبه، وتنظر في المرآة مراراً من أجله.

ولكن حكاية «الوردة القرمزية» انتهت بسرعة، وبسرعة كبيرة. انتهت بالخزي والعار اللذين لا يمكن وصفهما بالكلمات، حسبما كانت ناتاليا تعتقد. انتهت بأن أمر بيتر بيتروفيتش نفسه بقص شعرها، وبأن تلبس أقبح الثياب، وهي التي تتألق وتكحل عينيها من أجله، أمام المرآة التي صنعت لها سراً حلواً، وإلفة خارقة بينها وبينه. لقد اكتشف فعلتها بنفسه،

واعتبر هذه الفعلة مجرد سرقة عادية، عملاً طائشاً لفتاة خادمة، فألبسوها ثوباً من الخيش، ووجهها متورم من البكاء، وأجلسوها أمام أعين الجميع، في عربة لنقل الزبل حملتها، ملطخة بالعار، مقطوعة الصلة بكل ماهو أليف لها وحميم، إلى ضيعة مجهولة مخيفة في السهول النائية. كانت تعرف أن عليها، في تلك الضيعة، أن تحرس الصيصان والديوك الهندية، ومزارع البطيخ، وأن الشمس ستشويها هناك، وأنها ستكون منسية من العالم كله، وأن الأيام السهبية هناك طويلة كالأعوام، وأن الأفق غارق في سراب رجراج، وأن الهدوء والقيظ يسودان، بحيث لا يشتهي المرء سوى أن ينام طول النهار كالموتى، لولا أن عليه الإصغاء إلى الوقع الحذر للبازلاء المتيبسة، والحركة القلقة للدجاج على التراب الحار، والوقوقة المسالمة الحزينة للديوك الهندية، ولولا أن عليه ترقب، ظل الباشق المخيف المنقض من عل، وأن يقفز كي يصرخ بصوت رفيع ممطوط «كش...كش...». كان في الضيعة عجوز أوكرانية تافهة، هي تلك التي ستملك السلطة على حياة وموت ناتاليا، وربما هي الآن تنتظر ضحيتها بفارغ الصبر!!.. الأفضلية الوحيدة لناتاليا على المحكومين بالإعدام هي إمكانية أن تخنق نفسها بيديها.

وهذا وحده هو ما جعلها تتماسك في طريقها إلى المنفى، المنفى الأبدي كما كانت تظن.

كم من أشياء يشاهدها المرء من طرف المقاطعة إلى طرفها الآخر، ولكنها لم تكن تعير اهتماماً لكل ما تراه... كانت تعتقد، أو تحس بالأحرى، أن حياتها قد انتهت، وأن عارها وجريمتها من الهول بحيث لا يدعان لها أملاً في العودة إلى الحياة.. وكان إلى جانبها رفيق حميم هو يفسي بودولا. ولكن ماذا سيكون مصيرها عندما يسلمها إلى أيدي الأوكرانية ويبيت هناك، ثم يرحل تاركاً إياها إلى الأبد في بلد غريب؟.. بعد أن بكت طلبت أن تأكل، ولدهشتها كان يفسي ينظر إلى كل هذا ببساطة شديدة، فقد راح يأكل معها ويحدثها وكأن شيئاً لم يكن.. وبعد ذلك غفت، ولم تصح إلا في المدينة. ولم تدهشها المدينة إلا بالضجر المخيم فيها، والجفاف والهواء الحبيس الخانق، وبشيء ما غامض، رهيب، يبعث على الكآبة، شبيه بالحلم الذي لا يمكن أن ترويه. لم تذكر من ذلك اليوم سوى أن السهب حارة للغاية في الصيف، وسوى أنه ليس هناك ما هو أطول من يوم الصيف ودروب السفر في الدنيا كلها. وتذكرت أيضاً أن شوارع المدينة كانت تضم أماكن مفروشة بالحجارة، وكانت

العربات تقرقع بعجلاتها عليها بشكل غريب للغاية، وأن المدينة كانت تفوح من بعيد برائحة السطوح الحديدية، وأن صدر الساحة، حيث استراحا وعلفا الحصان، قرب السقائف «النهمة» الخالية عند المساء، كان يفوح برائحة الغبار والقار والقش المتعفن، الذي تقبع عيدانه على محطات الفلاحين، مختلطة بروث الخيل.

فك يفسي رباط الحصان وأداره إلى العربة كي يأكل ثم أزاح قبعته الملتهبة إلى قذاله، وجفف العرق بكمه، ودخل الحانة مسوداً كله من الحر. كان قد أمر ناتاليا بصراحة أن «تفتح عينيها»، وإذا ما حدث شيء أن تصرخ بأعلى صوتها. جلست ناتاليا من دون حراك، ومن دون أن تزيح عينيها عن قبة كنيسة بنيت حديثاً، وعن نجمة فضية هائلة كانت تلمع بعيداً، خلف البيوت. ظلت جالسة حتى عاد يفسي مغتبطاً، وهو يمضغ الطعام متأبطاً رغيف خبز، ولكنه لم يربط الحصان إلى العربة، وإنما زقزق بحيوية مخاطباً ناتاليا تارة والحصان تارة أخرى:

- لقد تأخرنا يا ملكتي قليلاً... ولكنهم لن يشنقونا. فنحن لسنا ذاهبين لإطفاء حريق... كذلك لن أعود القهقرى، فحصان السيد أهم يا عزيزي من لسانك.

هنا كان يتكلم قاصداً دميان – وإذا فتحت فاك: «انتبه.. إذا حدث شيء فسوف أفتش سراويلك...» آخ.. كم أرعبتني ولكن السادة لم ينزلوا سروالي بعد... لست أنت من يحاسبني يا كالح الوجه... انتبه.. وعلام أنتبه؟.. فأنا لست أغبى منك وإذا شئت فلن أعود أبداً: أوصل الفتاة، وأغير ديني، ثم لا ترونني بعدها. إنك تدهشينني يا بنت: أيتها الحمقاء علام تحزنين؟.. ألا ترين من العالم سوى رغبة واحدة مجنونة؟...سيمر بالقرب من الضيعة عدد من الحوذيين والتجار والشيوخ، وبكلمة واحدة منك تصبحين بلحظة في روستوف.. وعندها فليجدوك إن استطاعوا.

كانت فكرة «سأشنق نفسي» تختلط في رأس ناتاليا الحليقة بفكرة الهرب، صرت العربة وبدأت تتأرجح. صمت يفسي وقاد الحصان إلى البئر الواقعة في منتصف الساحة، وهناك، من حيث أتيا، انحدرت الشمس إلى ما وراء حديقة الدير الكبيرة، والتمعت نوافذ السجن الأصفر المواجه للدير، على الناصية الأخرى من الشارع، ببريق ذهبي. وأجج منظر السجن فيها فكرة الهرب أكثر فأكثر. كثيرون يعيشون في فرار دائم!!... ولكن يقال إن الشيوخ يحرقون أعين الفتيات والصبيان الهاربين

بالحليب المغلي ويستغلونهم في التسول. أما التجـار فيأخـذونهم إلى شاطئ البحر ويبيعونهم للتتـار، ويحـدث أحيانـاً أن يقـبض السادة على خدمهم الفارين، ويقيدونهم بـسلاسل مـن حديـد، ويزجون بهم في السجن... ولكن السجن يقطنـه بـشر لا ثـيران كما يقول غيرفاسكا!!

خبا البريق في نوافذ السجن!!.. فاختلطت أفكارهـا.. كـلا، الهـرب مخيـف أكثـر مـن الانتحـار!! صـمت يفـسي وثـاب إلى رشده، وقال بصوت مضطرب، وهو يقفز إلى العربة:

- تأخرنا يا بنت.

اتخذت العربة درب السفر... ومن جديد بدأت تخفق وتهتـز، وتعالى وقعها السريع على الأحجار..."آخ.. كان مـن الأفـضل لو أعادها إلى سوخادول، كي ترتمي على أقدام سادتها". ولكـن يفسي كان يقـود العربـة أسرع فـأسرع. غابـت النجـوم خلـف البيوت، وامتد أمامها شارع عـار أبـيض، وناصـية لـه بيـضاء، وبيوت بيض، وكان هذا كله يتقاطع عند كنيسة ضخمة بيـضاء أيضاً، تعلوها قبـة رصاصـية ضـاربة إلى البيـاض. واصـطبغت الـسماء فـوقها بلـون أزرق شـاحب، جـاف. كـان النـدى في سـوخادول، يتـساقط في مثـل هـذا الوقـت، والحديقـة تفـوح

بعبيرها ونضارتها، والمطبخ الغارق يفوح بروائحه، وبعيداً خلف حقول القمح والحور الفضي، على حافة البستان، وراء الحمّام العتيق، كانت ذبالة الفجر تلتمع، وكانت الأبواب في حجرة الضيوف تفتح على الشرفة، ليمتزج الشعاع القرمزي بعتمة الزوايا. وكانت الآنسة السمراء، الشاحبة، سوداء العينين، الشبيهة بالجد وبيتر بيتروفيتش، تعدل كل لحظة كمي ثوبها الخفيف، العريض، المنسوج من حرير برتقالي، وتحدق بانتباه إلى النوطة، جالسة بظهرها إلى الفجر، ضاربة أزرار البيانو الصفراء، مالئة حجرة الضيوف بأصوات عذبة احتفالية، حلوة ويائسة، هي أنغام بولينيز أوغينسكي، وكأنها لا تبدي أي اهتمام بذلك الضابط المربوع، قاتم الوجه، الذي كان يقف خلفها، واضعاً يده اليسرى على خصره، متابعاً يديها السريعتين بتركيز متجهم..."لديها من تحبه، ولدي من أحبه"، بهذا كانت ناتاليا تفكر أو تحس، في تلك الأماسي، بوجيب في القلب، ثم تركض إلى الحديقة الباردة الندية، مخترقة عواسج القريص والحشائش الرطبة الفواحة، بحدة إلى أقصاها، وتقف هناك منتظرة ما لا يأتي، منتظرة أن يخرج السيد الصغير من الشرفة، ويتسكع في المماشي فيراها، وينعطف إليها فجأة، ويقترب منها

بخطى سريعة، من دون أن تصدر عنها، من الرعب والسعادة، أي نأمة... كانت العربة تصر، وكانت المدينة (تلك المدينة نفسها التي تخيلتها يوماً ما سحرية) حارة وكريهة الرائحة. نظرت ناتاليا بدهشة أليمة إلى الناس المتراخين، السائرين حول البيوت والمنعطفات والدكاكين ذات الأبواب المفتوحة، وسألت نفسها: «لماذا أتى يفسي بي إلى هنا، ولماذا قرر أن يرعد بعربته في هذا المكان؟...».

مرا قرب الكنيسة، وانحدرا إلى نهر صغير، عبر طرق جبلية مغبرة وعرة، ومرا قرب ورشات للحدادة، وألواح منتنة لباعة صغار.. ومن جديد فاحت رائحة المياه العذبة، الدافئة، والطمي والنضارة المسائية للحقول، التمع أول بصيص في آخر المدى، على الجبل المقابل من بيت صغير، وحيد، يجاوز حاجز السكة الحديدية... هاقد أصبحا أخيراً في الهواء الطلق، واجتازا الجسر، وصعدا إلى الحاجز، وصافحت أعينهما الطريق الحجري الخالي، ذا البياض الهارب إلى الأفق اللامتناهي، في زرقة المساء الطازج السهبي. كان الحصان يخب مسرعاً، فاجتاز الحاجز مبتعداً عنه قيد خطوة فحسب، ومرة أخرى تناهى صوت السكون، سكون الليل والأرض والسماء، إذ لم يكن ينبعث

سوى رنين جرس صغير، آت من بعيد. كان الرنين يتعالى أكثر فأكثر، وأحلى فأحلى، حتى امتزج أخيراً بالوقع المتوافق لحوافر الجياد، ووقع العجلات المقتربة الراكضة على الطريق... كان يقود الترويكا حوذي شاب، طلق السمات، وخلفه في العربة كان يجلس ضابط، مغرقاً ذقنه في معطفه العسكري ذي القلنسوة، وعندما حاذت الترويكا العربة رفع رأسه للحظة، فلمحت ناتاليا فجأة ياقة حمراء، وشاربين أسودين، وعينين فتيتين، تلمعان تحت سدارة تشبه الدلو.. فصرخت متسمرة بلا حراك وغابت عن الوعي....

لقد برقت في ذهنها فكرة مجنونة، هي أن من رأته هو بيتر بيتروفيتش، ومن ذلك الألم، وتلك الرقة اللذين لامسا كالبرق قلبها، قلب الخادمة المتوتر، فهمت بغتة مم حرمت: لقد حرمت منه.. هرع يفسي إليها، وراح يرشق رأسها الحليقة المائلة بماء مزودة السفر. ثم أعادتها إلى وعيها نوبة من الغثيان، وبسرعة ألقت برأسها خلف حاجز العربة، فوضع يفسي على الفور راحته تحت جبينها البارد...

وبعد أن تحسنت حالها رقدت على ظهرها، مرتعشة مبتلة الياقة، وراحت تحدق إلى النجوم. انتاب يفسي الخوف،

وصمت ظناً منه أنها غفت – كان يهز برأسه فحسب - وراح يلهب الجواد أكثر فأكثر. كانت العربة تهتز كلها، وتندفع في ركضها، أما الفتاة فكانت تحس بأن لا جسد لديها، وأنها لا تملك الآن سوى الروح وحدها، وكانت هذه الروح «سعيدة كما في مملكة سماوية»...

الوردة القرمزية المتفتحة في حدائق الحكايا كان حبها، ولكنها حملت هذا الحب إلى سهب وأصقاع أكثر نأياً وسرية من سوخادول، كي تتغلب في السكون والعزلة على آلامها الأولى، الحلوة، الحارقة، ومن ثم تحفظها إلى الأبد، حتى القبر، في أعماق روحها السوخادولية.

-٦-

لم يكن الحب عادياً في سوخادول. والكراهية كذلك. الجد الذي هلك بشكل أخرق للغاية، مثل من أهلكه، ومثل كل من هلك في سوخادول، قتل في ذلك العام نفسه. في بكروف، عيد التتويج في سوخادول، سمى بيتر بيتروفيتش الضيوف، وكان قلقاً للغاية من فكرة: هل سيأتي كبير النبلاء الذي وعد بالمجيء أم لا؟.. وكذلك قلق الجد بفرح دونما سبب معلوم. أتى كبير

النبلاء، وكان الغداء فاخراً، وعم المرح والصخب، وكان الجد أكثر الجميع مرحاً. وفي صباح اليوم الثاني من تشرين الأول وجد ميتاً، على الأرض، في حجرة الضيوف.

عندما استقال بيتر بيتروفيتش لم يخف أنه يضحي بنفسه من أجل إنقاذ شرف آل خروشوف، وشجرة نسب العائلة وبيتها العريق. ولم يخف أنه «مضطر» لإدارة شؤون الأرض والزراعة بنفسه، وأن عليه لهذا أن يعقد مختلف الصداقات والصلات مع النبلاء الأكثر تنوراً ونفعاً في المنطقة، أما فيما يتعلق بالآخرين فعليه ببساطة ألا يقطع علاقاته معهم. في البداية نفذ كل ما رسمه بدقة، بل وحتى زار كل المالكين الصغار، بل وزار أيضاً ضيعة العمة أولغا كيرلوفنا، وهي امرأة بدينة للغاية، تعاني من مرض النوم، ، وتنظف أسنانها بالنشوق. وفي الخريف لم يعد أحد يدهش من كون بيتر بيتروفيتش يدير سوخادول بمفرده، ولم يعد مظهره مظهر ضابط وسيم قادم في إجازة، وإنما مظهر رب بيت وإقطاعي شاب، بل وكفت وجنتاه عن التورد عندما يرتبك كما في السابق. أصبح منعماً بديناً، وبدأ يرتدي قفاطين غالية الثمن، وينعم على قدميه الصغيرتين بأحذية حمراء تترية، ويزين يديه الدقيقتين بخواتم مطعمة بالفيروز، أما أركادي

بيتروفيتش فكان يخجل من النظر إلى عينيه العسليتين، ولم يكن يدري عم يتحدث معه، وفي الفترة الأولى دأب على التنازل له عن كل شيء، والهرب إلى الصيد.

في عيد بكروف أراد بيتروفيتش أن يسحر الجميع ببشاشته، وأن يظهر لهم أنه، هو بالذات، الرجل الأول في البيت. ولكن الجد شوش عليه ذلك. كان الجد سعيداً ومغتبطاً للغاية، ولكنه لا يتقن أصول اللياقة، إضافة إلى كونه ثرثاراً، مثيراً للرثاء في قبعته المخملية الطرة، وسترته الجديدة الفضفاضة للغاية التي خاطها له خياط من البيت. كان يظن نفسه أنه، هو أيضاً، رب بيت بشوش، وظل يحوص من الصباح الباكر صانعاً من استقبال الضيوف احتفالاً رسمياً أحمق. لم تكن إحدى ضلفتي الباب المؤدي من الممر إلى القاعة تفتح أبداً، فأزاح بنفسه الرتاجات الحديدية في أسفل الباب وأعلاه، وأزاح الكرسي، وارتقاه مرتعشاً كله. وبعد أن فتح الباب على مصراعيه انتصب على العتبة، مستغلاً صمت بيتر بيتروفيتش الذي تسمر من الخزي والغيظ، ولكنه قرر مع ذلك أن يتحمل كل هذا، ولم يبارح مكانه حتى قدوم آخر ضيف. لم يكن بصره يفارق الدرج - وعلى الدرج أيضاً توجب فتح الباب على مصراعيه،

فهذا ماكانت تتطلبه عادة قديمة غريبة – وكان يحرك قدميه من الاضطراب، وعندما يرى أحد الداخلين كان يقفز للقائه، ثم يقول وهو يشهق:

- كم أنا فرح! كم أنا فرح: لم يشرفني أحد بزيارته منذ زمن بعيد تفضلوا!!... تفضلوا.. وكان ما يغيظ بيتر بيتروفيتش أيضاً أن الجد كان يخبر كل قادم بذهاب تونيا إلى أولغا كيريلوفنا في لونيفا.

- تونيا مصابة بالكآبة، وقد رحلت إلى عمتها لقضاء الخريف هناك.

ماذا سيظن الضيوف بعد هذه التصريحات الزائدة؟... فقصتها مع فويتكيفتش معروفة للجميع طبعاً. ربما كان لدى فويتكيفتش حقاً نوايا جدية عندما كان يقف بشكل غامض قرب تونيا، أو يعزفان على البيانو معاً بأربعة أيدي، أو يقرأ لها بصوته المخنوق «لودميلا»، أو يقول لها باستغراق مكفهر: «أنت منذورة لميت، مرتبطة معه بكلمة مقدسة» ولكن تونيا كانت تضطرب فجأة، وبشكل جنوني، لدى أقل محاولة مهما كانت بريئة منه للتعبير عن مشاعره – كأن يقدم لها وردة مثلاً – ثم رحل فويتكيفتش بشكل مباغت. بعدما رحل بدأت تونيا

تسهر الليالي، وتجلس في العتمة قرب النافذة المفتوحة، وكأنها تنتظر بالضبط لحظة محددة كي تنفجر بالنحيب فجأة، وتوقظ بيتر بيتروفيتش. وكان هذا يظل راقداً لبرهة طويلة وهو يضغط على أسنانه، مصغياً إلى هذا النحيب، وإلى لعثمة الحور الناعسة، الخافتة، الشبيهة برذاذ لا ينقطع، الآتية عبر النوافذ من الحديقة المعتمة، ثم ينهض كي يهدئها. وكانت الخادمات أيضاً يأتين لتهدئتها وهن يغالبن النوم. كان الجد يركض مذعوراً، عندما كانت تونيا تخبط الأرض بقدمها وهي تصيح: ابتعدوا عني يا أعدائي المفترسين. وكانت المسألة تختتم بسباب مقذع يكاد يتحول إلى شجار.

كان بيتر بيتروفيتش يدمدم بجنون، بعد أن يطرد الخادمات والجد ويغلق الباب، مشدداً قبضته على المزلاج:

- أدركي.. أدركي أيتها الأفعى.. إنهم سيظنون الظنون»..

فكانت تونيا تزعق بالقوة نفسها:

- آخ يا بابا.. إنه يقول إنني حبلى!!..

فكان بيتر بيتروفيتش يحتضن رأسه بيديه ويركض هارباً. وكان غيرفاسكا مصدراً إضافياً للقلق: فماذا لو تفوه بكلمة ما نابية؟

لقد شب غيرفاسكا بشكل سريع للغاية، كان ضخماً، غير متناسق الهيئة، ولكنه كان أبرز وأذكى الخدم. كان هو أيضاً يرتدي سترة زرقاء، وسروالاً فضفاضاً، وجزمة خفيفة من جلد الماعز بلا كعب، وقد عقد حول عنقه السمراء النحيلة منديلاً ليلكياً منسوجاً من قماش يشبه الصوف، أما شعره الجاف الثخين فقد فرقه إلى جانب. لم يرض أن يقصه على طريقة تسريحة البولكا وإنما قصه بشكل دائري، ولم يكن لديه لحية كي يحلقها، باستثناء خصلتين أو ثلاث صغيرة، قاسية، سوداء، قليلة الشعر، كانت تلوح على ذقنه وأطراف فمه الكبير، الذي كان يقال عنه «فم يطول الأذنين». كان طويل الساقين، عريض الصدر مسطحه. وعظامه بارزة، ذا رأس صغيرة، ومحجرين أزرقين، وشفتين رماديتين ضاربتين إلى الزرقة، وأسنان مائلة إلى الزرقة أيضاً. كان هذا المجوسي الآري المعتق يلقب بـ"السلوقي". كان الكثيرون يقولون لأنفسهم، عندما ينظرون إلى تكشيرته، ويسمعون سعاله: «أيها السلوقي قريباً ستفطس»، أما جهاراً فكانوا ينادون هذا الفتى الغر، كما لم يكونوا يفعلون مع غيره: غيرفاسي أفانسييفيتش(*).

(*) عندما يريد الروسي أن يخاطب أحداً باحترام فإنه يناديه باسمه واسم أبيه. (المترجم).

ليس الخدم من كان يخاف غيرفاسكا فحسب وإنما السادة أيضاً. كان طبع السادة مثل طبع الخدم: إما التسلط أو الخوف. ولدهشة الخدم لم يعاقب بيتر بيتروفيتش غيرفاسكا، على جوابه الوقح للجد، يوم قدوم بيتر بيتروفيتش، أي عقاب. أما أركادي بيتروفيتش فقد قال له باقتضاب: «أنت دابة حقيقية يا أخ!!».. وهو أيضاً تلقى رداً مقتضباً «إنني لا أطيقه يا سيدي»، وبعد ذلك ذهب غيرفاسكا إلى بيتر بيتروفيتش بنفسه، ووقف على العتبة معتمداً بجسده على ساقيه الطويلتين المتباعدتين، في سرواله العريض للغاية، ثانياً ركبته اليسرى، وطلب أن يجلد.

- إنني فظ وحار الطبع يا سيدي – قال من دون اكتراث، مرقصاً عينيه السوداوين.

أحس بيتر بيتروفيتش في عبارة «حار الطبع» إيماءة ما، فجبن وهتف بصرامة مفتعلة:

- سنجلدك يا عزيزي، سنجلدك، والآن انقلع من هنا، لا أطيق رؤيتك أيها الوقح.

وقف غيرفاسكا قليلاً بصمت ثم قال:

- كما تشاء يا سيدي..

وقف قليلاً أيضاً عابثاً بشعرة قاسية تعلو شفته العليا، ضاغطاً كالكلب على أسنانه المزرقة، من دون أن ينم وجهه عن أي تعبير، وخرج. ومنذ ذلك الحين اقتنع بفائدة هذا الأسلوب: ألا يعبر بوجهه عن شيء، وأن يكون مقتضباً في الإجابة قدر الإمكان. أما بيتر بيتروفيتش فلم يتجنب الحديث معه فحسب، وإنما صار يتحاشى النظر إلى عينيه. عيّد غيرفاسكا في بكروف بلا مبالاة وغموض. أنهك التعب الجميع وهم يستعدون لاستقبال العيد، مطلقين ومتلقين التعليمات، شاتمين مجادلين بعضهم بعضاً، ماسحين الأرض، منظفين فضة الأيقونات الكالحة الثقيلة بصابون أزرق، رافسين بأقدامهم الكلاب الزاحفة إلى المداخل، فزعين من ألا تبرد الجيليه، وألا تكفي الشوَك، ومن أن يحترق الكعك والحلوى. وحده غيرفاسكا كان يكشر بسخرية، ويقول لكازيمير الطباخ السكير، الذي يكاد يفقد صوابه: «اهدأ يا أبانا الشماس، فصدارك سينشق».

ــــ حذار أن تسكر – قال بيتر بيتروفيتش لغيرفاسكا شارداً مضطرباً بسبب كبير النبلاء.

- أنا لا أشرب أبداً – ألقى غيرفاسكا بهذه العبارة إليه كند – لا تشدني الخمر.

وبعد ذلك، وأمام الضيوف، هتف بيتر بيتروفيتش بتملق وبأعلى صوته:

- غيرفاسي!! لا تتركنا من فضلك، فبدونك نحس أننا بلا أيدي.

فأجاب غيرفاسكا باحترام شديد وكبرياء:

- لا تقلق يا سيدي، فلن أجرؤ على الابتعاد.

ثم خدمهم كما لم يخدم أحداً أبداً، مصادقاً على كلمات بيتر بيتروفيتش الذي كان يقول لضيوفه جهاراً:

- لا تتصورون كم هو وقح هذا اللوح!!.. ولكنه مع ذلك عبقري ويداه من ذهب!!..

ولكن هل خطر له أنه يسكب في الكأس القطرة التي ستجعلها تطفح؟ فعندما سمع الجد كلماته، دعك السترة على صدره، وهتف فجأة بكبير النبلاء، عبر المائدة كلها:

- يا صاحب السعادة!!... مد لي يد المساعدة! إنني ألجأ إليك كأب متشكياً من خادمي!! أجل من خادمي هذا غيرفاسي أفانسييتفيتش توليكون!! إنه يدمرني عند كل خطوة.. إنه!!..

فقاطعوه وأقنعوه بالسكوت وهدؤوه. لقد اضطرب الجد حتى الدمع ولكنهم راحوا جميعاً يهدئونه باحترام، ساخر طبعاً، بحيث أنه استسلم لهم، وعاوده الإحساس مرة أخرى أنه طفل سعيد. كان الجد يلاحظ أن هذا العملاق يملك رأساً صغيرة للغاية، وأنه يمكن أن تكون أصغر لو حلق شعرها، وأن قذاله ناتئ، وأن الشعر أكثف ما يكون على هذا القذال بالضبط. كان مغطى بشعر كثيف، ثخين، مقصوص بفظاظة، وبشكل حدبة على عنقه النحيلة. كان وجه غيرفاسكا الأسمر، في بعض المواضيع، متقشراً من لفح الشمس والصيد، مبقعاً ببقع بنفسجية شاحبة. ظل الجد ينظر بهلع ورعب إلى غيرفاسكا، ولكنه مع ذلك لم يكن يكف عن الهتاف للضيوف بفرح:

- حسن! إنني أصفح عنه: ولكنني، مقابل ذلك، لن أدعكم تذهبون يا ضيوفي الأعزاء قبل ثلاثة أيام كاملة. لن أدعكم تذهبون بأي حال!!.. أرجوكم بشكل خاص ألا ترحلوا مساءً، فعندما يحل المساء لا أتعرف على نفسي: أي كآبة، وأي رعب!!.. الغيوم تملأ السماء، كما سمعت أنه ألقي القبض على جنديين فرنسيين من جنود نابليون بونابرت في غابة تروشين..

سأموت في المساء حتماً.. تذكروا كلمتي هذه: لقد تنبأ مارتين زاديكا(*) لي بهذا، ولكنه مات في الصباح الباكر...

وأصر على دعوته بحيث أن كثيراً من الضيوف بقي للمبيت «من أجله». ظلوا طوال المساء يشربون الشاي، وكان المربى وفيراً للغاية ومتنوعاً، بحيث أنك لا تفلح في تذوق كل أصنافه. وبعد ذلك صفت الطاولات، وأشعلت القناديل والشموع بكثرة، بحيث أنها انعكست في كل المرايا، والتمع بريقها الذهبي في الغرف الملأى بدخان التبغ المعطر والصخب والثرثرات، كما في الكنيسة. المهم أن الكثيرين باتوا هناك، وهذا يعني ليس أن يوماً جديداً مرحاً سيطل عليهم غداً فحسب، وإنما يعني أيضاً أن مزيداً من التعب والركض هنا وهناك بانتظارهم. ولكن لولاه، لولا بيتر كيريليتش لما كان العيد ممتازاً، ولما كان الغداء غنياً وحيوياً «أجل، أجل – فكر الجد ليلاً بقلق، وقد ألقى على كتفيه بالسترة، ووقف في حجرة نومه، أمام منضدة العبادة والشموع المشتعلة فوقها، محدقاً إلى أيقونة

(*) مارتين زاديكا منجم فلكي شهير في القرن التاسع عشر وضع كتاباً فيه الكثير من التنبؤات. (المترجم).

ميركوري – أجل الموت قاسٍ على الخاطئ، لن تشرق الشمس علينا ما دمنا حقودين».

ولكنه تذكر في الحال أنه أراد التفكير بشيء آخر. جاب الغرفة منحنياً، هامساً بالرموز الخمسين، وعدل من وضع عود البخور المشتعل على المنضدة، ثم تناول الإنجيل، والتفت مرة أخرى، وتنهد بغبطة وهو يرفع عينيه إلى القديس مقطوع الرأس، وفجأة قبض على الفكرة التي كان يبحث عنها، فالتمعت على وجهه ابتسامة:

- لو لم يكن لدي مشاكل لاخترعتها!!

كان يخشى أن يغفو، فينسى أمراً من الأمور التي ينبغي تسويتها، ولذا لم ينم تقريباً، وفي الصباح الباكر، عندما كانت الغرف ما تزال في الفوضى ورائحة التبغ، وحيث ساد سكون غير عادي، هو ذلك الذي يعقب الأعياد، مشى بحذر حافياً إلى غرفة الضيوف، ورفع بضع طباشير مبعثرة قرب الطاولات الخضراء، وأطلق من البهجة تأوهاً خافتاً وهو ينظر عبر الأبواب الزجاجية إلى الحديقة، وإلى البريق الساطع للزرقة الباردة، والفضة الصباحية التي غمرت الشرفة والدرابزين، وإلى الجذوع البنية الغارقة وسط الحشائش العارية. فتح الباب

ومد أنفه. كانت رائحة العفن الخريفي النفاذة، الكحولية، ماتزال تفوح من العواسج، ولكنها كانت تتلاشى في الطزاجة الشتائية. كان كل شيء ساكناً، هادئاً، واحتفالياً، وكانت الشمس المطلة مما وراء الضيعة تخضب ذرا شجر الماشي البهية، شبه العارية، الموشاة بذهب جذوع أشجار البتول. وكانت هذه الذرا البيضاء، المذهبة، المخترقة بنتف من السماء، تبوح بهسيس فرح، آسر، ليلكي، عصي على الإدراك. ركض كلب في الظل البارد تحت الشرفة، فصرّ تحت وقع قوائمه العشب المحترق بالصقيع، المغطى به وكأن ملحاً يغمره. ذكّر الصرير الجد بالشتاء، فهز بكتفيه راضياً، وعاد إلى غرفة الضيوف ثم راح، كاتماً أنفاسه، يغير مواضع الأثاث الثقيل، جاراً إياه على الأرض فيصدر صريراً وأزيزاً، وهو ينظر بين حين وآخر إلى المرآة، التي كانت تعكس السماء.

دخل غيرفاسكا بسرعة وصمت، من دون سترة، وعلى وجهه علائم النوم «شريراً كشيطان»، كما قال هو عن نفسه فيما بعد.

دخل وناداه بهمس صارم:

- اهدأ!!.. لماذا تحشر نفسك فيما لايخصك؟

رفع الجد وجهه متوفزاً، وأجابه هامساً برقة، كتلك الرقة التي لم تفارقه طيلة ليلة الأمس:

- أهكذا يا غيرفاسي!!.. في الأمس صفحت عنك، وبدلاً أن تمتن لسيدك...

فقاطعه غيرفاسكا:

- لقد أضجرتني أيها الحقير الأكثر قذارة من وحل الخريف، ابتعد عن طريقي.

نظر الجد برعب إلى قذاله الذي بدا أكثر نفوراً على عنقه الرقيقة الناتئة من ياقة قميصه الأبيض، ثم انتفض وغطى بجسده طاولة اللعب التي أراد ذاك سحبها إلى الزاوية. فكر للحظة ثم ناداه بصوت خافت:

- ابتعد عن طريقي، عليك أن تحترم سيدك. إنك تخرجني عن طوري، سأغمد خنجراً في خصرك.

آه – صرخ غيرفاسكا بحنق، وأسنانه تلمع، ولطمه على صدره بكل قوته. انزلق الجد على خشب الأرض البلوطي الأملس، فارداً ذراعيه، فارتطم صدغه بالزاوية الحادة للطاولة.

عندما رأى غيرفاسكا الدم فتح فاه، وحملق بعينيه ببلاهة، ثم نزع عن عنق الجد التي كانت ما تزال دافئة، الطوق ذا الأيقونة

الذهبية، والحجاب المعلق بشريطة مهترئة.. نظر فيما حوله، ثم نزع خاتم الزواج عن خنصره.. وبعد ذلك غادر غرفة الضيوف بسرعة وهدوء، واختفى كما يذوب فص ملح.

الإنسان الوحيد الذي رآه بعد هذا من كل سوخادول كان ناتاليا.

-٧-

عندما كانت في سوشكي، منفاها، حدث في سوخادول حدثان مهمان آخران: تزوج بيتر بيتروفيتش، وشارك الشقيقان في حملة القرم «كمتطوعين». عادت من منفاها بعد سنتين فحسب. كان الجميع قد نسوها. عندما عادت لم تتعرف على سوخادول ولم تتعرف سوخادول عليها.

في ذلك المساء الصيفي، عندما صرّت العربة المرسلة من فناء السيد قرب الكوخ في سوشكي، وقفزت ناتاليا إلى العتبة، هتف يفسي بودوليا بدهشة:

- أهذه أنت يا ناتاليا؟؟ معقول؟

- ومن أنت؟ – أجابته ناتاليا بابتسامة لا تكاد ترى.

فهز يفسي برأسه قائلاً:

- يا إلهي كم ساءت هيئتك!!..

ولكن لم يتغير فيها سوى أنها لم تعد ناتاليا السابقة. لقد تحولت من فتاة صغيرة حليقة الرأس، مدورة الوجه، صافية العينين، إلى امرأة نحيلة، قصيرة، ممشوقة القد، هادئة، رزينة، رقيقة، كانت ترتدي تنورة وقميصاً مطرزاً، ورغم أنها كانت تغطي رأسها بمنديل غامق اللون، حسب عادة أهالي سوشكي، إلا أنها مع ذلك كانت ملفوحة بالشمس، يغطي بشرتها نمش دقيق بلون الذرة الدخينة. ولقد رأى يفسي، السوخادولي العريق، في المنديل الغامق والبشرة الملفوحة والنمش طبعاً منظراً غير جميل.

في الطريق إلى سوخادول قال يفسي:

- إيه أيتها الفتاة، لقد أصبحت عروساً، أتريدين الزواج؟...

فهزت برأسها قائلة:

- كلا يا عم يفسي، لن أتزوج أبداً.

فسأل يفسي، بل وأزاح الغليون عن فمه اهتماماً:

- وما هو الحدث السعيد الذي جعلك تتخذين قراراً كهذا؟

فأوضحت له بتؤدة أنه ليس على الجميع أن يتزوجوا، وأنهم على الأرجح سيسلمونها للآنسة، وهذه نذرت نفسها للرب. ما يعني أنها لن تسمح لها بالزواج. فضلاً عن أنها رأت في نومها غير مرة أحلاماً بالغة الوضوح...

- وما هذه الأحلام؟

- لا شيء مهم. أرعبني غيرفاسكا وقتها حتى الموت، ثرثر بأخبار مختلفة فتملكتني الأفكار.. وهكذا صرت أرى تلك الأحلام...

- أحقاً تناول غيرفاسكا فطوره عندكم؟

فكرت ناتاليا للحظة وأجابت:

- أجل. أتى إلينا، وقال: أرسلني السادة إليكم بمسألة هامة، ولكن دعيني آكل أولاً.

فجهزنا له المائدة كمسافر، فأكل، ثم خرج من الكوخ، وأومأ لي. وعندها قفزت إليه. روى لي كل ما جرى وذهب في طريقه...

- ولماذا لم تنادي أسيادك؟..

- لقد هدد بقتلي، وأمرني ألا أبوح بحرف حتى المساء. أما أصحاب البيت فقال لهم إنه ذاهب للنوم في العنبر.

وفي سوخادول تطلع إليها الخدم جميعاً بفضول كبير، وتحرشت بها صديقاتها وأترابها، ولكنها لم تكن تجيب على الأسئلة إلا باقتضاب، وكأنها شغفة بذلك الدور الملقى على عاتقها. كانت تكرر باستمرار:

- كانت حياتي هناك جميلة.

وذات مرة قالت بخشوع:

- الرب كريم، جميلة كانت حياتي.

ومن ثم ببساطة، انخرطت في الحياة العملية الرتيبة فوراً، وكأنها غير مندهشة لغياب الجد، ولذهاب السيدين الفتيين إلى الحرب «متطوعين»، ولجنون الآنسة، ومن أن سيدة جديدة غريبة – ضئيلة القد، ممتلئة، نشيطة للغاية وحامل – تجوب الغرف كالجد، وتحكم سوخادول.

هتفت السيدة بعد الغداء:

- نادوا هذه ... ما اسمها؟.. ناتاليا.

فدخلت ناتاليا بسرعة وهدوء، ورسمت شارة الصليب، وانحنت في الزاوية أمام الأيقونة، ثم ذهبت إلى السيدة والآنسة، ووقفت منتظرة الأسئلة والأوامر. أتتها الأسئلة من السيدة فحسب طبعاً. أما الآنسة التي نحلت وشبت بسرعة، بأنفها الحاد وعينيها شديدتي السواد، اللتين تحدقان ببلاهة، فلم تنبس بحرف. قررت السيدة أن تكرس ناتاليا لخدمة الآنسة، فانحنت قائلة ببساطة:

- سمعاً وطاعة.

أما الآنسة التي ما تفتأ تحدق بلامبالاة، فقد انقضت عليها فجأة عند المساء، ناظرة إليها شزراً، وبقسوة ولذة راحت تشدها من شعرها، لأنها خلعت الجوارب من قدمي الآنسة بلا إتقان. فبكت ناتاليا كطفلة، ولكن لم تتفوه بكلمة، وإنما ذهبت إلى غرفة الخادمات وجلست على صندوقها. وراحت تربت على شعرها المقطع، بل وابتسمت عبر الدموع المعلقة بأهدابها.

- يا لها من ضارية. ستكون حياتي صعبة معها.

عندما استيقظت الآنسة في الصباح، ظلت راقدة في الفراش لفترة طويلة، أما ناتاليا فوقفت على العتبة، مطأطئة رأسها،

ناظرة بطرف عينيها إلى وجهها الممتقع. سألت الآنسة بلا اكتراث، تماماً وكأن إنساناً آخر يتكلم نيابة عنها:

- ماذا رأيت في نومك؟

فأجابت:

- لا شيء يا سيدتي.

عندها قفزت الآنسة، كما في الأمس، من الفراش مسعورة، وقذفتها بقدح شاي، ثم ارتمت على الفراش وهي تنتحب بمرارة. تجنبت ناتاليا القدح، وسرعان ما تعلمت كيف تناور بمهارة خارقة. تبين أن الآنسة كانت تصرخ أحياناً بالخادمات الحمقاوات اللواتي يجاوبن على سؤالها هذا: «لم نر شيئاً» (اختلقن أي شيء)، ولكن بما أن ناتاليا لم تكن ماهرة في الكذب، فقد اضطرت إلى أن تطور في ذاتها موهبة أخرى، ألا وهي المناورة.

أخيراً زار الطبيب الآنسة ووصف لها أقراصاً كثيرة وقطرة، ولكن الآنسة كانت تخاف أن تصيبها الأدوية بالتسمم، ولذا أرغمت ناتاليا على أن تجرب أولاً هذه القطرة وتلك الأقراص. فجربتها كلها بلا استثناء. كانت ناتاليا قد علمت، بعد قدومها،

أن الآنسة تنتظرها كما ينتظر المرء «ملاك الرحمة»، وأنها كانت تذكرها دائماً، وأنها تنظر إلى الطريق كي ترى فيما إذا كان هناك عربة قادمة من سوشكي، وكانت تؤكد للجميع أنها ستستعيد عافيتها حالما تعود ناتاليا، وهاهي تستقبلها ببلادة تامة. ولكن ألم تكن دموع الآنسة، دموع خيبة مريرة؟ انقبض قلب ناتاليا عندما أدركت هذا، فخرجت إلى الممر، وجلست على أحد الصناديق، وبكت مجدداً. سألتها الآنسة فيما بعد، عندما دخلت بعينين منتفختين:

- ماذا... هل تحسنت؟..

- تحسنت.

همست ناتاليا. ورغم أن رأسها كانت تدور. وقلبها ينقبض من الأدوية إلا أنها اقتربت وقبلت يد الآنسة بحرارة.

وظلت لوقت طويل بعد هذا، تقف أمام الآنسة بأهداب مسبلة، خائفة من أن ترفع عينيها إليها، مفعمة بالشفقة عليها.

- ايه أيتها الأفعى الأوكرانية!

هكذا نادتها مرة زميلة من زميلاتها الخادمات، تدعى سوشولكا، وهي أكثر الخادمات دأباً على أن تكون أمينة كل

أسرارها وأحاسيسها، ولكنها كانت تصطدم دائماً بإجابات ناتاليا المقتضبة، البسيطة، التي تقضي على كل بهاء الصداقة. ابتسمت ناتاليا بحزن وأجابت شاردة:

- هذا صحيح، خالط القوم تصبح منهم. كثيراً ما أشتاق ليس إلى أمي وأبي وإنما إلى هؤلاء الأوكرانيين الذين عشت معهم.

عندما رحلت إلى سوشكي لم تعر أهمية للجو الجديد المحيط بها. لقد وصلت إلى هناك صباحاً، ولم يبد لها غريباً في ذلك الصباح سوى طول الكوخ المفرط وبياضه الذي يلوح من مسافة بعيدة، وسط السهول المحيطة، وسوى أن المرأة الأوكرانية التي كانت توقد التنور رحبت بها ببشاشة، وأن زوجها الأوكراني لم يصغ إلى يفسي. كان يفسي يثرثر بلا توقف عن السادة ودميان، وعن حر الطريق، وعما تناول في المدينة من طعام، وعن بيتر بيتروفيتش، وعن المرآة طبعاً. أما الأوكراني شاري أو العزيز، كما كانوا يسمونه، فكان يهز برأسه فحسب. وفجأة عندما صمت يفسي، نظر إليه بشرود وغمغم مازحاً:

- "لسان كحجر الطاحون".

بعـــد ذلـــك بـــدأت تثـــوب إلى رشـــدها، وتـــزداد إعجابـــاً بسوشكي، وتجد فيها الكثير من الأشياء الجميلـة والاختلافـات عن سوخادول، فالكوخ الأوكراني وحده كاف لبعث الـرضى، ببياضه ونعومته واستوائه وسطحه المغطى بالعشب. وكـم كـان يبدو غنياً بفضل ترتيبه الـداخلي، بالمقارنـة مـع القـذارة البـشعة لبيوت سوخادول. أي أيقونات فضية غالية الثمن كانت معلقة في زواياه، وأي أزهار ورقية بديعة كانت تحيط بها، وأي مناديـل مبرقشة زاهية كانت تتدلى فوقها، وأي غطاء مطرز كـان يغطـي المائدة، وأي قدور رمادية ضـاربة إلى الزرقـة كانـت تقـف عـلى الرفوف قرب الفرن!!.. ولكن أكثر ما أدهشها كان رب البيـت وزوجته.

لم تكن تدرك تماماً بماذا أدهشاها، ولكن هذا ما كانـت تحـسه باستمرار. لم تر أبداً رجلاً أنيقاً، هادئاً ومسالماً مثل شاري. كـان قصير القامة، مثلث الرأس حليقها، تغطيها فـضة كثيفـة متينـة، وشارباه – لم يكن لديـه سـوى شـاربين – كانـا فـضيين أيـضاً، ودقيقين، تريين، ووجهه وعنقه كانا أسودين من لفح الشمس، تتخللها تجاعيد عميقة، ولكنها، لسبب ما، تبدو أيـضاً مـسالمة، محددة، وضرورية. كان يسير بخراقة – بسبب جزمتـه الثقيلـة –

وكان يحشو بنطاله المنسوج من جنفاص خشن مبيض في هذه الجزمة، ويحشو قميصاً من القماش نفسه، فضفاضاً عند الإبط، ذي ياقة مثنية، في البنطال، وكان عندما يسير ينحني قليلاً. ولكن لا هذه المشية، ولا تلك التجاعيد، ولا الشيب، كانت تجعله يبدو هرماً. لم يكن يلوح على وجهه ذلك الضنى والتعب الذي نشكو منه. كانت عيناه الصغيرتان تنظران بحدة وسخرية مرهفة. ثمة شيخ أتى إلى سوخادول من بلد ما، ذات مرة، مصطحباً غلاماً يعزف على الكمان، كان شاري يذكر ناتاليا به. أما الأوكرانية مارينا فكانوا يلقبونها في سوخادول بالرمح. كانت طويلة القامة، ممشوقة القد، تبلغ من العمر خمسين عاماً. كان اللفح الأصفر يغطي تماماً البشرة الرقيقة لوجهها العريض، الفظ قليلاً، والجميل مع ذلك باستقامته، والحيوية الصارمة للعينين اللتين لم تكن تدري أهما عقيقيتا اللون أم كهرمانيتاه، فقد كان لونها يتغير باستمرار كما لدى القطط، وكانت تعتمر منديلاً أسود مذهباً، ذا بقع حمراء، وقد لفته حول رأسها على شكل عمامة، وكانت ترتدي تنورة سوداء قصيرة تبرز بحدة بياض القميص الناصع، وتظهر تقاطيع ركبها وساقيها الطويلتين. وكانت تحتذي بقدميها العاريتين جزمة

ذات حدوتين، وكانت قدماها العاريتان رقيقتين، مدورتين، حولتهما الشمس إلى ما يشبه جذعين خشبيين مصفرين لامعين، وعندما كانت تغني أحياناً، أثناء العمل، محركة حاجبيها بصوت قوي خارج من الصدر، أغنية عن حصار الكفار لمدينة بوتشايف:

حل شفق المساء...

وتوقف فوق بوتشايف...

وعن كيف باركت أم الرب الدير المقدس، كان صوتها يمتزج باليأس والأنين، وفي الوقت نفسه كان ينم عن عظمة وقوة ووعيد، بحيث أن ناتاليا، وقد انتابها فرح لا يوصف، لم تكن ترخي عينيها عنها.

لم يكن لدى الأوكرانيين أطفال – وناتاليا كانت يتيمة. وعندما كانت تعيش في سوخادول كانوا يعاملونها تارة كابنة بالتبني، وتارة كلصة، تارة يعطفون عليها، وتارة يفقأون عينيها، أما الأوكرانيان فقد عاملاها ببرود، ولكن دونما تقلب، كانا غير فضوليين وقليلي الكلام. وفي الخريف استقدموا للحصاد والجرش نساء وفتيات من كالوجسكايا، وكن يدعين، لثيابهن المبرقشة، بـ«الغجر»، ولكن ناتاليا كانت تتحاشى

هـؤلاء الغجريـات، فهـن معروفـات بـانحلالهن وبأمراضـهن الزهرية، وكن ضـخمات الأثـداء، وقحـات وعـديمات الحيـاء، وكن يتقاذفن أقذع الشتائم بمتعة وبلاغة، ويـركبن الخيـل عـلى طريقة الرجال، وينطلقن بها كمن مسه نـار. كـان يمكنهـا، في وسـطها المـألوف، أن تفـرج «كربتهـا» بالمكاشـفة والـدموع والأغاني، ولكن من تكاشف هنـا، ولمـن تغنـي؟.. فقـد كانـت الغجريات يلتقطن الأغنية بأصواتهن المنكرة، ويرددنها معاً بـلا إيقاع وبصخب منقطع وصفير. أما شـاري فكـان يغنـي أغـاني مرحة راقصة فحسب، وأمـا مارينـا فكانـت حتـى في أغانيهـا العاطفية، صارمة، معتزة، وغارقة في تأملات قاتمة:

في الضفة الأخرى، تبكي

الأشجار التي زرعتها...

هكذا كانت تغنـي بـصوتها الحـزين الممطـوط، ثـم تـضيف مخفضة صوتها وبتأكيد يائس:

على خلّي

الذي أحببته

في الوحدة كانت ناتاليا تتجرع ببطء مرارة حبهـا المرفـوض، وتعاني خزيها وأحلامها المرعبة اللطيفة، التي كانت تأتيها لـيلاً،

وأحلام اليقظة التي لا تتحقق، وتوقعاتها التي كانت تنهكها في نهارات السهب الطويلة. وكثيراً ما كانت الرقة تعقب في قلبها الأسى الحارق، والهوى الجارف والاندفاع اليائس يعقبهما الخضوع والرغبة بوجود متواضع للغاية غير ملحوظ بالقرب «منه»، مع حبها الخفي إلى الأبد والذي لا ينتظر رداً ولا يطلب شيئاً. كانت الأخبار الآتية من سوخادول توقظها من غيبوبتها، ولكن الأخبار لم تأت من سوخادول زمناً طويلاً، ولذا بدأت تفقد الإحساس بحياة سوخادول اليومية الرتيبة، فتبدت سوخادول لها شيئاً فشيئاً رائعة جذابة بحيث لم تعد لديها القوة لتحمل الوحدة والكرب.. فجأة ظهر غيرفاسكا، وألقى إليها مستعجلاً بها يحمله من أخبار سوخادول، وروى لها بنصف ساعة مالا يستطيع غيره أن يرويه في نهار كامل، روى لها كل شيء بها في ذلك، كيف أنه «دفع» الجد دفعة مميتة، وقال بثقة:

- والآن وداعاً إلى الأبد!!..

ثم هتف بها، وهو سائر إلى الطريق، لاسعاً إياها، وهي المذهولة، بعينيه:

- أما هذه الحماقات فقد آن الأوان لأن تقذفي بها من رأسك!.. قريباً سيتزوج. إنك لا تصلحين له حتى كعشيقة.. ثوبي إلى رشدك!!...

وقد ثابت إلى رشدها.. أضرمتها هذه الأخبار المرعبة، فعاد إليه الوعي، وثابت إلى رشدها!!..

تطاولت الأيام بعد هذا، برتابة مضجرة، كتلك النسوة التقيات اللواتي كن يسرن على الطريق مارات بالضيعة، وعندما يتوقفن كي يسترحن كن ينخرطن معها في أحاديث طويلة، ويعلمنها الصبر والاتكال على السيد الرب الذي كن يلفظن اسمه ببلادة وخشوع. كانت أبسط قاعدة لديهن: لا تفكري...

فسواء فكرت أم لا، لن يحدث ما نريد – هذا ما قالته لها إحدى هاته النسوة التقيات، وهي تربط خفها الليفي، بوجه مقطب متعب، وتحدق بشرود إلى أفق السهب – لدى السيد الرب كل شيء... اقتلعي لنا يا بنت خلسة شيئاً من البصل....

عادة، كانت النساء الأخريات يرعبنها بالحديث عن الخطايا والعالم الآخر، وكن يرددن أن مصائب وكوارث أخرى أجل شأناً ستحدث. وذات مرة رأت في نومها حلمين مرعبين متتاليين: كانت تفكر طوال الوقت بسوخادول – يصعب عليها

ألا تفكر بها... وبالآنسة والجد وبمستقبلها. وكانت تنجم لنفسها لترى فيها إذا كانت ستتزوج أم لا، ولتعرف، متى وممن ستتزوج.. وذات مرة تسللت أفكارها بخفة إلى الحلم بحيث أنها رأت بوضوح عصر يوم قائظ، مليء بالغبار، عاصف ومقلق، وأنها تركض فيه إلى بركة الماء بالدلاء، لترى فجأة على طين المنحدر اليابس، قزماً كبير الرأس، قبيح الشكل، بلا قبعة وبجزمة ممزقة، ذا خصل شعر أحمر شعّثتها الريح، وقميص ناري محلول يخفق في الهواء. «الجد!! – هتف برعب وخوف - آه حريق» - «وسيطير الآن كل شيء» صرخ القزم أيضاً، ولكن الريح الساخنة غطت على صراخه - «ثمة سحابة لا توصف تتقدم نحونا، ولذا لا يمكنك حتى التفكير بالزواج».. أما الحلم الآخر فكان أكثر إرعاباً. كانت تقف فيه، في عز الظهيرة، داخل كوخ حار خاو، وقد أرتج أحدهم الباب عليها من الخارج، ولذا وقفت بلا حراك منتظرة ما سيحدث، وفجأة قفز من وراء التنور تيس رمادي هائل، وانتصب أمامها على قائمتيه الخلفيتين، وخاطبها بلغة البشر وبتوفز وقح، وعيناه تلمعان بفرح مجنون، وبضراعة كالحجر: «أنا خطيبك»، قال هذا وهو يتقافز حولها بسرعة وخراقة، ضارباً الأرض بقائمتيه الخلفيتين الصغيرتين، ثم هوى بقائمتين الأماميتين على صدرها...

كانت تهب، بعد هذه الأحلام من فراشها، وهي تكاد تموت من وجيب القلب ومن رعب الظلمة، ومن فكرة أن لا أحد تلجأ إليه.

- سيدي يسوع – كانت تهمس بسرعة – أيتها الأم الإلهية، يا أولياء الله!

ولكنها، عندما تتصور هؤلاء الأولياء بنيي اللون، وبلا رؤوس مثل ميركوري، كانت تحس بمزيد من الرعب.

وعندما بدأت تحلل أحلامها، راحت تراود ذهنها فكرة أن سني صباها قد انقضت، وأن مصيرها قد تحدد – ليس عبثاً قدر عليها هذا القدر الغريب، أن تحب سيدها!...وأن محناً أخرى تنتظرها، وأن عليها أن تحاكي الأوكرانيين في تحفظها، والنسوة التقيات في تسليمهن البسيط. وبما أن أهالي سوخادول يحبون أن يلعبوا أدواراً، وأن يقنعوا أنفسهم بحتمية ما ينبغي أن يحدث، ورغم أنهم هم من يختلق هذا الذي ينبغي أن يحدث، فقد اتخذت ناتاليا أيضاً لنفسها دوراً.

-٨-

شلت قدماها فرحاً، عندما قفزت إلى العتبة عشية عيد بطرس، وأدركت أن بودولا أتى لأخذها. ورأت عربة سوخادول المغبرة المهترأة، والقبعة الممزقة على رأس بودولا المشعث، ورأت لحيته المتداخلة، الشقراء بفعل الشمس، ووجهه المتعب المتوفز، الشائخ، الذي فقد رونقه، بل واكتسب ملامح قبيحة غير متناسقة، ورأت الكلب الأليف المشعث أيضاً، والذي يشبه إلى حد ما ليس بودولا فحسب، وإنما سوخادول بكل ما فيها: كان الكلب رمادياً غامقاً عند الظهر، أما من الأمام، عند الصدر والعنق المرخية بأسى، فكان بالضبط وكأنه مدخن بدخان الكوخ الأسود. ولكنها تمالكت نفسها بسرعة، وفي طريق العودة إلى البيت ثرثر بودولا بكل ما يخطر على باله. تكلم عن حرب القرم، تارة فرحاً بها، وتارة متحسراً بسببها، أما ناتاليا فكانت تقول بروية:

- لعل من الضروري كف يد الفرنسيين...

كانت طوال اليوم الذي مضى في الطريق إلى سوخادول، نهباً لإحساس مخيف: سيكون عليها أن تنظر بعينين جديدتين

إلى عالمها القديم الأليف، وأن تتقمص مجدداً، عندما تقترب من ركنها الحبيب، ذاتها القديمة، وأن تلاحظ ما تغير، وأن تتعرف على كل ما تصادفه. عند المنعطف المؤدي من طريق السفر إلى سوخادول، وفي الحقل المغطى بالسرخس، كان يعدو مهر في الثالثة من عمره، وثمة صبي وضع قدمه الحافية على الرسن، متعلقاً بعنق المهر، وجاهد لقذف قدمه الأخرى إلى ظهر المهر، ولكن المهر كان يجمح ويعدو، مقلقلاً الصبي: اضطربت ناتاليا عندما عرفت أن الصبي ما هو إلا جوفكا انتوجنين. وصادفت أيضاً نازاروشكا ذا المئة عام، جالساً في عربة فارغة ليس على طريقة الرجال، وإنما على طريق النساء – بساقين ممدودتين إلى الأمام بشكل مستقيم – وكتفاه مرفوعان بوهن إلى الأعلى، وعيناه بائستان حزينتان، لا لون لهما. ناحلاً بحيث «لم يبق ما يوضع في النعش». كان بلا قبعة، وبقميص مهترئ طويل، مزرقاً من الرماد، ومن الاستلقاء الدائم على الفرن. ومرة أخرى انقبض قلبها. فقد تذكرت أنه لثلاثة أعوام مضت، أراد أركادي بيتروفيتش الطيب، خالي البال جلد نازاروشكا هذا، عندما قبض عليه في الحاكورة، ممسكاً بذيل فجلة. ولقد بكى وسط الخدم المحيطين به، وهو يكاد يموت من الخوف، ثم صرخ ذاك مقهقهاً:

- لا تغمغم أيها الجد: واضح أنه ينبغي عليك نزع حفاضاتك! لا مفر من هذا!...

وكم خفق قلبها عندما رأت المرعى، وصف الأكواخ، والبيت ذا الحديقة، والسقف العالي، والجدران الخلفية لحجرة الخدم، والمستودع والإسطبل. كان حقل الحنطة الأصفر، المليء بشقائق النعمان، يلاصق هذه الجدران والحشائش الطفيلية النامية حولها، وثمة عجل أبيض، ذو بقع بنية، كان غارقاً في الشوفان، يلتهم حبوبه وأزهاره. كان كل ما في المحيط مسالماً بسيطاً، عادياً، ولكن هذا كله كان يغدو خارقاً مخيفاً في ذهنها هي فحسب، ذهنها الذي اضطرب تماماً عندما انطلقت العربة بسرعة في الفناء الواسع المكتظ بكلاب بيضاء كما تكتظ المقبرة بالشواهد، وعندما، بعد غياب سنتين دخلت البيت المتبرد، وشمت رائحة الشموع التي تعرفها، وأريج الزيزفون وعبق المطبخ، ورأت سرج أركادي بيتروفيتش القوزاقي مرمياً على مقعد في الممر، وأقفاص العصافير الفارغة المعلقة فوق النافذة، ونظرت بارتباك إلى ميركوري الذي انتقل من حجرة الجد إلى زاوية في الممر...

وكالسابق كانت القاعة المعتمة مضاءة بنور الشمس الآتي من الحديقة، عبر النافذة الصغيرة، وكان ثمة صوص، الله أعلم كيف وصل إلى الداخل، يصيء بيتم، وهو يتخبط في حجرة الضيوف. كانت أزهار الزيزفون قد يبست، وفاح أريجها على أطراف النوافذ الحارة اللامعة.. وبدا لها أن كل ما هو قديم مما يحيط بها قد تجدد شبابه، كما يحدث عادة في البيوت، عندما يتوفى أحد سكانها. كانت تحس في كل شيء -وخاصة في أريج الزهور- بضعة من روحها وطفولتها وصباها، وحبها الأول، وكانت تحس بالشفقة على كل من شاخ ومات وتغير، وعلى ذاتها، وعلى الآنسة. شب أقرانها وقريناتها. كثير من الشيوخ والعجائز الذين كانوا يهزون رؤوسهم من الهرم، وينظرون من عتبات غرف الخدم ببلادة إلى دنيا الله، قد اختفوا إلى الأبد عن هذا العالم. اختفت داريا أوستيوفنا، واختفى الجد الذي كان يخشى الموت كالأطفال، ويعتقد أن الموت سينخره ببطء، فحصده بلمح البصر. لم تصدق أنه لم يعد موجوداً، وأنه الآن راقد تحت كومة من تراب، قرب الكنيسة في ضيعة تشيركيزوف، ولم تصدق أن هذه السيدة الناحلة السوداء ذات الأنف المدبب، اللامبالية حيناً، المسعورة حيناً آخر، الثرثارة

المهمومة الصريحة معها حيناً ثالثاً، كما مع ند، والتي تقتلع لها شعرها حيناً رابعاً، لم تصدق أنها هي الآنسة تونيا. لم يكن مفهوماً لها لماذا تحكم البيت امرأة قميئة، كثيرة الصياح ذات شارب أسود مثل كلافديا ماركوفنا.. ألقت ناتاليا ذات مرة نظرة إلى غرفة نوم هذه المرأة، فرأت المرآة القاتلة ذات الإطار الفضي، فانساب إلى قلبها كل الرعب والفرح والحلاوة السابقة، وكل انتظار الخزي والسعادة ورائحة الأعشاب المخضلة بالندى عند شفق المساء... ولكنها كتمت كل مشاعرها وأفكارها وقمعتها في ذاتها. هاهو الدم السوخادولي القديم، القديم، يجري مجدداً في عروقها. كم أكلت من فطير الخبز الذي تمنحه تلك التربة المحيطة بسوخادول. كم شربت من المياه العذبة التي تتدفق بها البرك التي حفرها أجدادها في مسيل النهر الناضب. لم تكن تخيفها الحياة اليومية المضنية، وإنما كان يخيفها ما هو خارق. ولم يكن حتى الموت يرعبها، ولكن الأحلام وعتمة الليل والعاصفة والرعد والنار كانت تقض مضجعها، كانت حبلى، كما بطفل، بانتظار غامض لمحن ما لا مفر منها...

أهرمها هذا الانتظار. كانت لا تفتأ توحي لنفسها بأن الصبا قد ولى، ثم تبحث في كل ما يحيط بها عن إثبات لذلك، ولم

يمض عام على قدومها إلى سوخادول حتى لم يبق أثر من ذلـك الإحساس الفتي الذي تخطت به عتبة البيت في سوخادول.

ولــدت كلافينــا ماركوفنــا، واتُخــذ مــن فيدوســيا مربيــة. وفيدوسيا هذه امرأة شابة كانت ترتدي على الـدوام ثوبـاً غامقـاً عجائزياً، وكانت وديعة تقية. وماكاد هذا الوافد الجديد مـن آل خروشوف يفتح عينيه الصغيرتين، البيضاويتين، الخاويتين بعـد من أية أفكار، حتى بـدأ يطلـق الفقاعـات مـن فمـه، ويقـع إلى الأمام من ثقـل رأسـه، ويزعـق بـأعلى صـوته. راحـوا ينادونـه بالسيد الصغير، وبدأت أغاني المهد القديمة تنبعـث مـن حجـر الأطفال.

- هاهو الشيخ قد أتى بكيسه. يا شيخ يا شيخ لا تأت إلينا.. لن نعطيك السيد الصغير، فهو لن يصرخ بعد الآن..

- وكانت ناتاليا تقلد فيدوسيا، إذ كانت تحسب نفسها مربية مثلهـا، مربيـة وصـديقة للآنـسة المريـضة، شـتاء ماتـت أولغـا كيريلوفنا، فطلبت ناتاليـا أن تخـرج مـع العجـائز، اللـواتي كـن يمضين بقية حياتهن في حجرة الخدم، في الجنازة، وأكلـت هنـاك من أرز المأتم الذي كان يبعث القرف في نفـسها، بمذاقـه التافـه شديد الحلاوة، ولدى عودتها إلى سوخادول راحت تحكي برقـة

كيف أن السيدة كانت ترقد «تماماً وكأنها حية»، رغم أنه حتى العجائز لم يجرؤن على النظر إلى النعش والجثمان المرعب الثاوي فيها.

في الربيع أُحضر للآنسة من قرية تشيرماسني مشعوذ مشهور اسمه كليم يروخين، وهو فلاح غني، وسيم الطلعة، رمادي اللحية كبيرها، رمادي الشعر أجعده، مسرح على صف واحد، كما أنه رجل عملي وعاقل للغاية، بسيط الكلمات، ولكنه كان يظن نفسه كاهناً مجوسياً يبارك مريديه. كانت ثيابه، للغرابة، متينة أنيقة، كان يرتدي صداراً غامقاً وحزاماً أحمر وجزمة، وكانت عيناه الصغيرتان، ماكرتين ثاقبتين وهما تبحثان بإلحاح عن الأيقونات. كان يدخل البيت بحذر، حانياً قامته الممشوقة قليلاً، ثم يبدأ حديثه بلهجة عملية. كان يتحدث في البداية عن القمح والأمطار والجفاف، ثم يشرب الشاي بأناة ولوقت طويل، وبعد ذلك يرسم شارة الصليب، ثم يغير من لهجته في الحال، ويسأل عن المريض، ويقول بلهجة غامضة:

- آن الأوان...فقد حل الغسق..

كانت الحمى تنتاب الآنسة، فتكاد تتدحرج على الأرض من القشعريرة، عندما تجلس في عتمة حجرة النوم منتظرة ظهور

كليم على العتبة. وكان الرعب يتملك ناتاليا، الواقفة إلى جانبها أيضاً، من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. وكان السكون يعم البيت. حتى السيدة كانت تملأ غرفتها بالخادمات وتتحدث معهن همساً. ولم يكن أحد يجرؤ على إشعال شمعة واحدة أو إصدار أي صوت. وكانت سولوشكا المرحة، التي تقف في الممر، لتلبية ما يطلبه كليم، تنتصب غائمة العينين جافة الريق، وقلبها ينتفض بشدة. هاهو يعبر بالقرب منها، حاملاً في سيره منديلاً يضم عظاماً سحرية، وبعد ذلك انبعث من غرفة النوم، عبر الصمت الجنائزي صوته الجهوري الغريب:

- انهضي يا عبدة الرب!!..

ثم لاح رأسه الرمادي من خلف الباب وقال بصوت ميت:

- أريد لوحاً من الخشب.

وعلى اللوح الممدد على الأرض أرقد الآنسة التي انقلبت عيناها رعباً، وأصبح جسدها بارداً كالجثة. كانت الدنيا قد أظلمت بحيث تكاد ناتاليا لا تميز وجه كليم. وبغتة بدأ يردد بصوت عجيب كأنه آت من بعيد:

- سيأتي فيلات.. ويفتح النوافذ.. ويشرع الأبواب ويهتف قائلاً: «أي كآبة، أي كآبة».

ثم كرر بقوة مفاجئة وتسلط رهيب:

- «أي كآبة، أي كآبـة»!! اذهبـي أيتهـا الكآبـة إلى الغابـات المظلمة فهناك مكانك!!.. اذهبـي إلى البحـر والمحـيط – تلفـظ هذا بصوت سريع أصم شرير – اذهبي إلى البحر والمحـيط، إلى جزيرة بويان حيث اللؤلؤ والمرجان.

أحست ناتاليا بأنه لا يمكن أن يكون ما هو أكثـر هـولاً مـن هذه الكلمات التـي قـذفت بروحهـا إلى عـالم وحـشي، خـرافي، بدائي، وفظ، ولم يكن بمقدورها ألا تؤمن بقوة هـذه الكلـمات، كما لم يكن بمقدور كليم نفـسه، الـذي كـان يـصنع المعجـزات أحياناً مع المرضى، ألا يؤمن بها. كان كليم يقول وهو جالس في الممر بعد إنهاء طقوسه، ماسحاً جبينه المعروق بالمنـديل، شـارباً الشاي:

- والآن بقي لدينا ليلتان.. بإذن الرب ستخف.. هل بـذرتم حنطة هذا العام يا آنستي؟.. يقال إن الحنطـة ستخـصب جيـداً هذا العام.

في الصيف كان من المنتظر قدوم السيدين من القـرم. ولكـن أركادي بيتروفيتش أرسل رسالة مسجلة يطلب فيها المزيـد مـن النقود، ويقول إنهما لن يستطيعا العـودة قبـل الخريـف، وذلـك

بسبب جـرح بيـتر بيتروفيـتش. إنـه جـرح غـير خطـير ولكنـه يتطلب عناية وهدوءاً مديدين. أرسلت السيدة إلى تـشيركيزوفيا من يسأل العرافة دانيلوفا فيما إذا كان الجـرح سـيبرأ. فرقـصت دانيلوفا وفقشت بأصابعها، وكان هذا يعنـي أن الجـرح سـيبرأ. عندها اطمأنت السيدة. أمـا الآنـسة وناتاليـا فلـم يكـن لـديهما الوقت للاهتمام بـذلك، إذ تحـسنت صـحة الآنـسة في البدايـة، ولكن منذ نهاية عيد بطرس بدأت تتقهقر مجـدداً: ومـرة أخـرى حلت الكآبة والرعـب مـن الرعـد والحرائـق، ومـن شيء آخـر كانـت الآنـسة تخفيـه، بحيـث لم يكـن لـديها متـسع للاهـتمام بأخويها. ولهذا أيضاً لم يكـن لـدى ناتاليـا متـسع للاهـتمام بهـا. كانت ناتاليا تذكر بيتر بيتروفيتش في كـل صـلاة مـن صـلواتها. وتدعو له بدوام الصحة، كما ظلـت تـذكره بعـد موتـه إلى آخـر حياتها داعية لـه بطمأنينـة الـنفس. ولكـن الآنـسة كانـت الآن أقرب الناس إليها. كانت الآنسة تعديها يوماً بعد يوم بتخوفاتها وتوقعاتها للمحن، وبذلك الشيء الذي ظل سراً لديها.

كان ذاك الصيف حاراً، مغبراً، عاصـفاً، حـافلاً بـالرعود في كل يوم من أيامه. وكـان ثمـة إشـاعات قائمـة مخيفـة يتناقلهـا الشعب، تتحدث عن حرب جديدة، وعن انتفاضات وحرائـق

ستحدث. بعضهم كان يقول إن الجنود سيسرحون قريباً، وبعضهم الآخر كان يردد أنه سيحدث عكس ذلك، وسيؤخذ كل الرجال إلى الجندية. وكما يحدث أحياناً، ظهر في المنطقة عدد لا يحصى من جوابي الآفاق والمجاذيب والرهبان، وكادت الآنسة تتشاجر مع السيدة بسببهم، إذ كانت تمدهم بالخبز والبيض. أحدهم، ويدعى درونيا، كان طويل القامة، أحمر الشعر، رث الثياب إلى أقصى حد، سكير، ولكنه كان يمثل دور ملاك طاهر. كان يعبر الفناء متجهاً إلى البيت بخط مستقيم، مستغرقاً في التفكير إلى درجة أن رأسه كان يصطدم بالحائط، فكان يقفز بوجه فرح مبتهج وهو يزعق متثنياً بجسده، حاجباً الشمس من عينيه بيده اليمنى.

- يا طيوري!!... طيري إلى السماء يا طيوري!..

وكانت ناتاليا تنظر إليه، مثل بقية النساء، كما ينبغي أن ينظر إلى مخلوقات الله هذه: ببلادة وعطف، أما الآنسة فكانت ترتمي إلى النافذة مخضلة العينين، وتصرخ بصوت يائس:

- درونيا، يا ولي الله، صل لأجلي أنا الخاطئة!!..

وعندما تسمع ناتاليا هذا النداء كانت عيناها تجمدان من التوقعات المرعبة. وأتى من ضيعة كاتيشين رجل اسمه

تيموشكا كليتشينسكي، وهو إنسان قصير، بدين، أشبه بـالمرأة، ذو ثديين كبيرين، ووجه طفـل أحـول، تخنقـه الـسمنة وتخبلـه، أشقر الشعر، يرتدي قميصاً أبيض وسروالاً قصيراً من الخـيش، كان يسير بعجلة، واطئاً الأرض بطرفي قدميه المكتنـزتين، وهـو يقترب من درج البيت، وعيناه الضيقتان تحدقان تماماً وكأنه قفز لتوه من الماء، أو أنه هارب من هلاك محتم. وكان يغمغم متنفساً بصعوبة:

- مصيبة... مصيبة!!..

فكانوا يهدئونه، ومن ثـم يطعمونـه وينتظـرون أن يبـوح بـما لديه. ولكنه يظل صامتاً، ومخاطه يسيل من أنفـه، وهـو يتجـشأ بنهم، وعنـدما ينتهـي مـن تجـشؤه، يلقـي بكيـسه عـلى ظهـره، ويبحث قلقاً عن عصاه الطويلة، فتهتف الآنسة:

- متى ستأتي يا تيموشا؟..

فكان يجيبها بصوت جهوري أخرق، محرفاً اسمها:

- في عيد القديس يا لوكيانوفنا!!

وكانت تزعق في إثره بصوت يائس:

- يا ولي الله!! صلي لأجلي، أنا مريم المجدلية الخاطئة.

كانت أخبار الكوارث والحرائق تأتي يومياً من كل مكان، وتعاظم في سوخادول الخوف البدائي من النار. ما إن ينطفئ بحر السنابل الناضجة الصفراء تحت الغيوم الزاحفة من جهة البيت، وما إن تعصف أول هبة ريح في المرعى، ويتناهى للأسماع انداياح رعد ثقيل، حتى تهرع النسوة إلى العتبات، حاملات ألواح الأيقونات القائمة، ويستعجلن لتحضير قدور الحليب، التي، كما هو معروف، تتمتع بقدرة على إخضاع النار. كما كانت المقصات تطير من البيت إلى القريص في الحديقة، وتخرج المنشفة المخيفة العريقة، وتغطي النوافذ، وتشعل الشموع بأيدٍ مرتجفة... ولم تكن لتميز هل أصابت عدوى الخوف السيدة فعلاً أم أنها كانت تتصنع ذلك. سابقاً كانت تقول عن الرعد أنه «ظاهرة من ظواهر الطبيعة»، أما الآن فراحت هي أيضاً ترسم شارة الصليب مغمضة العينين، وتزعق لدى رؤية البرق. ولكي تفاقم رعبها ورعب المحيطين بها، كانت تتحدث عن الصاعقة الخارقة، التي هدر عام ١٧٧١ في تيرولا، وقتلت في الحال مئة وأحد عشر شخصاً. وعندما تبدأ المستمعات باختطاف وقص ما عندهن: تارة عن الصفصافة الواقعة في طريق السفر، والتي أحرقتها الصاعقة

عن آخرها، وتارة عن المرأة التي قتلها الرعد منذ أيام في تشيركيزوفا، وتارة عن العربة الثلاثية التي أصم الرعد جيادها في الطريق بحيث أنها وقعت كلها على ركبها.. وفي النهاية كان ينضم إلى هذه الاجتهادات رجل اسمه يوشكا أو «الراهب الآثم» كما كان يسمي نفسه.

-٩-

ينحدر يوشكا من أسرة فلاحين، ولكنه لم يجهد عضلاته قط، وإنما عاش على ما يمنحه الرب، وأينما اتفق، مشترياً خبزه وملحه بحكاياته عن بطالته التامة وعن «آثامه». كان يقول: «أنا فلاح ذكي وأكاد أكون أحدب، فلماذا أعمل».

وللحق كان ينظر بتهكم وذكاء كالأحدب، ولم يكن ينبت على وجهه شيء. وكان كتفاه وقفصه الصدري، بسبب كساح أصابه في طفولته، مرتفعين إلى الأعلى، وكان يقضم أظافره، أما أصابعه، التي كان يسرح بها شعره الأحمر البرونزي، فدقيقة وقوية. وكان يعتبر الحراثة عملاً «مملاً لا يليق به»، وقد دخل الدير في كييف، «وترعرع هناك»، ثم طرد «بسبب آثامه». عندها أدرك أن التظاهر بالحج الدائم إلى الأماكن المقدسة،

وبأنه إنسان يحاول إنقاذ روحه، ما هو إلا حيلة قديمة، وربما غير مربحة، لذا جرب حيلة أخرى، أن يتباهى ببطالته وشهوانيته، من دون أن يخلع رداء الرهبان، وأن يدخل ويشرب قدر ما يستطيع - لم يكن يسكر أبداً – وأن يهزأ بالدير، وأن يروي لماذا بالضبط طرد منه، موضحاً ذلك بأفحش الإشارات والحركات.

كان يقول للفلاحين غامزاً بعينيه:

- الآن فهمت، لماذا صفع العبد الفقير الواقف أمامكم، وها أنذا عائد إلى بلدي روسيا، وثقوا بأنني لن أضيع!!

ولم يضع فعلاً، فقد استقبلته روسيا، وهو الآثم عديم الحياء، كما تستقبل أولئك الباحثين عن خلاص أرواحهم؛ أطعمته وسقته وآوته واستمعت إليه بانبهار.

كان الفلاحون يسألونه، وعيونهم تلتمع بانتظار جواب صريح لاذع:

- إذن لقد آليت على نفسك ألا تعمل أبداً؟

فكان يجيب:

- الشيطان وحده الآن يمكن أن يرغمني على العمل. إنني مدلل يا أخ!.. وأكثر شبقاً من تيوس الدير. والفتيات – أنا

أتعامل مع الفتيات فحسب، أما النساء فلا أحفل بهن – يخفن مني حتى الموت، ولكنهن يغرمن بي. وهذا ليس بالأمر الغريب: صحيح أنني قبيح الهيئة ولكن عظامي قوية.

عندما ظهر في فناء الدار دخل إلى البيت رأساً كإنسان محنك. وكانت ناتاليا جالسة في الممر على مقعد تغني: «كنت صبية أكنس الدار، فوجدت سكراً في طريقي....» وعندما رأته قفزت مرعوبة وهتفت به:

- من أنت؟

فأجابها يوشكا وهو يقيسها ببصره، من قمة رأسها إلى أخمص قدميها:

- إنسان، أخبري السيدة.

فصرخت السيدة من القاعة:

- من هذا؟...

ولكن يوشكا استطاع بدقيقة واحدة طمأنتها، إذ قال إنه راهب وليس جندياً فاراً كما يمكن أن تظن، وإنه عائد إلى وطنه، ويرجو أن يفتش ثم أن يسمح له بالمبيت ونيل قسط من الراحة. ولقد أدهش السيدة بصراحته، بحيث أنه، في اليوم

التالي، انتقل إلى غرفة الخدم، وأصبح واحداً من أهل البيت. كانت الرعود تقصف، أما هو فكان بلا كلل يعمل على تسلية سيدات البيت بقصصه، ثم اقترح إغلاق كوى التهوية لحماية السقف من الصواعق، وركض إلى الشرفة، تحت قصف أعنف من الرعود، كي يري الحاضرين أنها لا تخيفه، مساعداً خلال ذلك الخادمات على تهيئة السماورات. وكانت الخادمات ينظرن إليه بأطراف أعينهن، وهن يشعرن بعينيه الشبقتين، السريعتين، تجريان على أجسادهن، ولكنهن كن يضحكن لنوادره. أما ناتاليا التي استوقفها غير مرة في الممر المعتم، وهو يهمس في أذنها: «لقد وقعت في حبك يا بنت»، فلم تكن تجرؤ على رفع بصرها إليه. كانت تتقزز منه، ومن رائحة التبغ التي تفوح من كل ثيابه، وكانت ترى فيه كائناً مرعباً، مرعباً.

كانت تعرف بثقة ما سيحدث. كانت نائمة بمفردها في الممر، قرب باب غرفة نوم الآنسة، وكان يوشكا قد قال لها بلهجة قاطعة «سآتيك حتى ولو ذبحتني، سآتي، وإذا ما صرخت، فسأحرق البيت عن آخره» ولكن أكثر ما كان يشلها هو إدراكها أن شيئاً محتماً سيحدث، وأن تحقق الحلم المرعب - حلم التيس الذي رأته في سوشكي - قد غدا قريباً، وأنه

مكتوب عليها منذ ولادتها أن تهلك والآنسة معاً. وقد أدرك الجميع الآن أن من يمرح في البيت ليلاً هو الشيطان نفسه، وأدركوا ما الذي، بالضبط، إضافة للرعود والحرائق، يخلب لب الآنسة، ويجعلها تتأوه بلذة ووحشية في نومها، ومن ثم تهب مطلقة زعيقاً مرعباً لا تقارن به أكثر الرعود قصفاً. كانت تزعق: «يا أفعى الغواية، يا ثعبان أورشليم، إنك تخنقني»... ومن هذه الأفعى غير الشيطان نفسه، وغير ذلك التيس الرمادي الذي كان يأتي النساء والفتيات في الليل؟.. وهل في العالم ما هو أكثر هولاً من قدومه في العتمة، في الليالي الماطرة ذات الرعود التي لاتهدأ، ووميض البروق المتصلة على الأيقونات السوداء؟ كانت الشهوة والشبق اللتان كان القادم الغريب يهمس بهما لناتاليا غير إنسانيتين، فكيف يمكنها ألا تذعن له؟ كانت تجلس في الليل على السرج الملقى على الأرض، مفكرة بساعتها القاتلة الآتية بلا ريب، وهي تحدق في العتمة، وقلبها يخفق بشدة، مصغية إلى كل نأمة أو حفيف يصدر عن البيت النائم. ومنذ ذلك الوقت عرفت النوبات الأولى لذلك المرض الثقيل الذي عذبها طويلاً فيما بعد: كانت تشعر بحكة مفاجئة في باطن قدمها، ثم تعتريها رعشة حادة واخزة، مما

يضطرها لأن تثني أصابعها إلى قعر الحذاء، وبعد ذلك تسري بوحشية واندفاع في عروق قدميها وجسدها كله، بحيث تصل إلى حنجرتها في اللحظة التي تسبق رغبتها في الصراخ بأقوى وأفظع مما تصرخ به الآنسة، وبعذاب أشد ولذة أكبر.

ووقع المقدور. أتى يوشكا بالضبط في تلك الليلة المرعبة، قبيل انتهاء الصيف، عشية عيد القديس إيليا ناديلياشي. لم تعرف السماء تلك الليلة الرعد، كما لم تعرف ناتاليا النوم. كانت ترقد مغالبة الوسن، ثم صحت وكأن أحداً دفعها. كانت برهة ميتة للغاية، وقد أدركت هذا بقلبها الذي كاد ينخلع هلعاً. هبت واقفة، وألقت نظرة فأخرى على أول الممر وآخره، فلم تر سوى بريق متقطع مبهر للأبصار، كان يندلع من السماء الصامتة المليئة بالأضواء والأسرار. كان الممر يغتسل بالنور بين لحظة وأخرى كما في النهار. ركضت ثم توقفت كالمقيدة؛ كانت جذوع الحور الراقدة في الفناء وخلف النافذة منذ زمن بعيد، تبيّض مبهرة العيون عندما تبرق السماء؛ ثم اندفعت إلى القاعة، فرأت نافذة واحدة مرفوعة الزجاج، وتناهى إلى سمعها صخب الحديقة الرتيب؛ كانت الظلمة هنا أكثف، فكلما اشتد سطوع البرق خلف النافذة التفت الأشياء بعتمة أكثف بعد

ذلك، ثم من جديد ينتفض البرق هنا وهناك، فتلمع الحديقة وتتنامى، وتختلج ذرا عواسجها، وأشباح حورها وبتولها الشاحبة الخضراء، لتلوح عبر أغصانها المنحدرات الجبلية الذهبية حيناً، البيضاء الضاربة إلى الزرقة حيناً آخر. هرعت عائدة، هامسة، وهي تحس أنها إنما تقضي على نفسها بتلك التعاويذ السحرية.

- في البحر والمحيط في جزيرة بويان...

ما أن تلفظت بهذه الكلمات البدائية الرهيبة حتى رأت، وهي تلتفت، يوشكا رافعاً كتفيه، واقفاً على بعد خطوتين منها. كان البريق يضيء وجهه المتقع ذا العينين المحاطتين بدوائر سوداء. ركض إليها من دون أن يصدر عنه صوت، وطوق خصرها بيديه الطويلتين، واحتضنها بقوة، ثم، بحركة واحدة، أرقدها على ركبتيه ومن ثم على أرض الممر الباردة... وأتاها يوشكا في الليلة التالية، وفي ليال أخرى كثيرة، وكانت تغيب عن وعيها من الرعب والاشمئزاز وتستسلم له. ولم تكن تجرؤ أيضاً على مقاومة هذا الشيطان الذي كان يستمتع بها كل ليلة، كما يقال، ومثل الجدة نفسها، التي لم تكن تجرؤ، وهي الحسناء المتسلطة، على مقاومة خادمها تكاتش، الوغد الوقح اللص، والذي انتهى

به الأمر إلى المنفى في سيبيريا... وفي النهاية ضاق يوشكا ذرعاً بناتاليا وبسوخادول كلها، فاختفى فجأة مثلما ظهر.

بعد شهر من هذا أحست بنفسها أماً. وفي أيلول، في اليوم التالي لعودة السيدين الشابين من الحرب، احترق البيت في سوخادول، وظلت النيران تلتهمه لوقت طويل. لقد تحقق حلمها الثاني. اندلع الحريق في غبش المساء، عندما هطل وابل من المطر، ولمع البرق، وانقذفت كرة ذهبية ملتهبة، كما يقول سولوشكا، من الفرن إلى غرفة نوم الجدة. ثم انطلقت متقافزة إلى بقية الغرف. عندما رأت ناتاليا الدخان والنار خرجت من الحمام، حيث كانت تقضي أياماً بطولها باكية – راكضة بكل قوتها، وقالت لنا إنها تعثرت في الحديقة برجل يرتدي قميصاً أوكرانياً أحمر، وقبعة قوزاقية عالية ذات شرائط مذهبة. كان هو أيضاً يركض بكل ما في قدميه من عزم عبر العواسج المبتلة. ولم تجزم فيما إذا حدث هذا حقاً أم أنه خيل لها. ولكنها تذكر فحسب أن ذلك الرعب الذي شلها قد حررها من الطفل القادم.

ومنذ ذلك الخريف بدأ شبابها يذوي، ودخلت حياتها ذلك المجرى اليومي الرتيب، ولم تخرج منه حتى آخر أيامها. أما

العمة تونيا فقد أُخذت إلى ضريح ولي في فورونج، وبعد ذلك لم يعد الشيطان يجرؤ على الاقتراب منها. وعندها سكنت نفسها، وبدأت تعيش كالآخرين، ولم يبق من جنونها سوى التماع عينيها الوحشيتين، وإهمالها للنظافة والترتيب، ونرفزتها المسعورة، وكآبتها عندما يكون الطقس سيئاً. كانت ناتاليا في صحبتها عندما زارت الضريح، وقد ساعدتها هذه الرحلة على استعادة طمأنينتها وهدوئها، وحل كل ما كان يبدو لها مستعصياً على الحل. كم من الاضطراب سببت لها فكرة اللقاء ببيتر بيتروفيتش!! ومهما أعدت نفسها لهذا اللقاء، فإنها مع ذلك، لم تكن لتتصوره بأعصاب باردة. لم يكن لديها القدرة على ذلك. وماذا تقول عن يوشكا عارها وهلاكها. ولكن الوجه الخارق لهذا الهلاك، والعمق الاستثنائي لمعاناتها، كان يكمن في ذلك الشيء القدري، المحتوم، الملازم لتعاستها – إذ ليس عبثاً أن يوافق حدوثه الحريق – وقد أعطتها زيارتها للولي الحق بأن تنظر ببساطة وهدوء ليس إلى عيون الناس المحيطة بها فحسب وإنما إلى عيني بيتر بيتروفيتش أيضاً. الرب نفسه وسمها هي والآنسة بعلامته المهلكة، فهل تخافان البشر!.. عادت من فورونج متبتلة، مستكينة، بسيطة، خادمة للجميع، خفيفة

وطاهرة تماماً، وكأنها في لحظة الاعتراف الذي يسبق الموت، ودخلت البيت، وبجرأة دنت من يد بيتر بيتروفيتش. وللحظة فحسب انقبض قلبها برقة وأنوثة وجموح الشباب عندما مست شفتاها اليد الصغيرة السمراء ذات الإصبع الفيروزية...

حلت الرتابة في سوخادول. وسرت إشاعات عن تحرير الأقنان، فسببت القلق والاضطراب بين الخدم وفي القرية: أي مستقبل ينتظرهم، ألن يكون أسوأ مما مضى؟...إذ من السهل الحديث عن حياة جيدة! وكان على السادة أيضاً أن يبدأوا هذه الحياة الجديدة، وهم الذين أخفقوا في تسيير حياتهم القديمة. إن موت الجد، والحرب من بعد، والمذنب المشتعل الذي زرع الرعب في البلاد كلها، والحريق، وإشاعات تحرير الأقنان، كل هذا غيّر بسرعة وجوه ونفوس السادة، وأذهب شبابهم، وحرمهم من راحة البال، وأطفأ فيهم اتقادهم السابق وغضبهم السريع، الذي لايكاد يندلع حتى يمحوه الرضا والتسامح، وملأ نفوسهم بالغيظ والضجر، فراحوا يتبادلون الاتهامات، ويذم بعضهم بعضاً لأتفه الأمور، وبدأ «الشقاق» كما قال والدنا. وبلغت الخلافات، حداً جعلهم يحملون السياط وهم جلوس خلف المائدة، وبدأ العوز يذكرهم بالضرورة الملحة

لإصلاح أمورهم وأعمالهم التي خربتها حرب القرم والحريق والديون. أما فيما يتعلق بشؤون الزراعة فكان كل من الشقيقين يعوق الآخر. فأحدهما كان جشعاً إلى درجة الطيش وصارماً وشكاكاً، والآخر سخياً إلى درجة الطيش أيضاً، وطيباً ويثق بالناس كلهم. وبعد صدامات عديدة اتفقا على إجراء كان ينبغي أن يجلب لهما أرباحاً طائلة: رهنا الضيعة واشتريا حوالي ثلاثمائة حصان نحيل – جمعاها من كل أطراف المنطقة بمساعدة غجري يدعى إيليا سامسوف - وقررا تسمين الجياد خلال الشتاء، ومن ثم بيعها في الربيع بأسعار مربحة. ولكن الجياد، بعد أن استهلكت كميات هائلة من الطحين والقش، بدأت، قبيل الربيع ولسبب مجهول، تنفق الواحد تلو الآخر...

تفاقمت الخلافات بين الشقيقين، وبلغت من الحدة أنهما كانا يهرعان إلى السكاكين والبنادق.. ولا أحد يعلم بم انتهى كل هذا لو لم تحدث كارثة جديدة في سوخادول، ذهب بيتر بيتروفيتش ذات مرة شتاءً، بعد أربع سنوات من عودته من القرم، إلى لونيفا، حيث تسكن عشيقة له، وظل هناك يومين، وهو يشرب بلا انقطاع، ثم انطلق في طريق العودة سكراناً. كان الثلج كثيفاً، وكان يجر الزحافة المغطاة بسجادة زوج من الجياد.

أمر بيتر بيتروفيتش بحل وثاق أحدهما، وهو جواد فتـي جـامح كان غارقاً إلى بطنه في الثلج الهش، وبأن يربط إلى الزحافـة مـن الخلف ثم رقد طالباً النوم مديراً رأسه إلى الحصان. حـل غـبش المساء، قاتم الزرقة، مليئاً بالضباب. صرخ بيتر بيتروفيتش قبـل أن يغفو بيفسي يادولا، الذي كان كثيراً مـا يأخـذه معـه عوضـاً عن الحوذي فاسكا كازاك، خشية أن يقتلـه هـذا بعـد أن أحنـق الخدم كلهم بضربه لهم، صرخ بـه: «انطلـق» ورفـس يفـسي في ظهره ورمح الجواد الكميت، المبتل، وهو ينفث البخـار، وقلبـه يخفق بشدة، منطلقاً بهما عـبر الطريـق الثلجـي الـوعر، في عكـر الضباب ورحابة الحقول النائية، عبر الليل الشتوي الـذي كـان يشتد عتمة واكفهراراً... وفي منتصف الليل، عندما كان كل من في سوخادول يغط في سبات عميق، قرع أحدهم بإلحاح ولفهـة نافذة الممر حيث تنـام ناتاليـا. قفـزت عنـد مقعـدها وركـضت حافية إلى المدخل، فلاح لها عبر الظلمـة شـبح زحافـة، وشـبح يفـسي واقفـاً والـسوط في يـده. غمغـم يفـسي بـصوت كتـيم، غريب، وكأنه يتناهى من حلم:

- مصيبة، حدثت مصيبة يا بنية.. لقد قتل الحصان سـيدنا... أتعبه الركض خلـف الزحافـة فهـوى بحـافره عـلى وجـه بيـتر

بيتروفيتش وسحقه. لقد بدأ جسده يـبرد... لـيس أنـا... أقـسم بيسوع.. ليس أنا من قتله.

نزلت على الدرج بـصمت، وغاصـت قـدماها الحافيتـان في الثلج، ثـم اقتربـت مـن الزحافـة، ورسـمت شـارة الـصليب، وهوت على ركبتيها، واحتضنت الرأس المدمى، وراحت تقبلـه، وهي تطلق، على مدى الضيعة كلهـا، صرخـات فـرح وحـشي وتشرق بعويلها وقهقهاتها...

-١٠-

عندما يـصدف أن نرتـاح مـن المـدن في سـوخادول النائيـة، الهادئة، المعدمة، كانت ناتاليا، مجدداً ومجـدداً، تـروي لنـا قـصة حياتها المدمرة. أحياناً كانت عيناها تعـتمان وتجمـدان، وصـوتها يتحول إلى ما يشبه همساً صـارماً موقعـاً. مازلـت أذكـر أيقونـة القديس الفظة المعلقة في زاوية مـن زوايـا غرفـة الخـدم في بيتنـا العتيق؛ لقد أتى القديس إلى مواطنيه مقطوع الرأس، حاملاً إياه ميتاً بيديه. كشاهد على صحة قوله...

لقد اختفت آثـار المـاضي الماديـة، الملموسـة، القليلـة، التـي عرفناها ذات يوم في سوخادول. اختفت اللوحات والرسـائل،

بل ولم يترك لنا أجدادنا وأباؤنا حتى أدوات الاستعمال اليومي البسيطة. وما بقي منها أكلته النار. ثمة صندوق ظل واقفاً زمناً طويلاً في الممر؛ كان ملفوفاً بقطع من جلد نعجة أملس متخشباً ربما خيطت منذ مئة عام. إنه صندوق الجد ذو الأدراج المتحركة، والمصنوع من خشب البتولا الكاريلي، المكتظ بكتيبات تعليم اللغة الفرنسية، والكتب الدينية المغطاة عن آخرها بالشمع. ثم اختفى هذا الصندوق أيضاً، واختفى الأثاث الثقيل المحطم الذي كان في غرفة الضيوف... كان البيت يتداعى ويتهدم أكثر فأكثر. وكانت كل تلك الأعوام التي مرت عليه منذ وقوع آخر الأحداث التي أتى ذكرها هنا، بالنسبة له أعوام موت بطيء. وكان ماضيه يغدو أسطورياً يوماً بعد يوم.

«...عاش أبناء سوخادول حياة نائية قاتمة، ولكنها مع ذلك معقدة وشبيهة بحياة مجتمع ثابت، راسخ، منعم، ويمكن، انطلاقاً من ركود هذه الحياة، ومن تعلق أهالي سوخادول بها، أن يظن المرء أن لا نهاية لها. ولكن أحفاد رعاة السهب هؤلاء كانوا ليني العريكة، ضعفاء، (مائعي الحزم) ومثلما تختفي أوكار القوارض وممراتها في عمق الأرض، تحت سكة المحراث وهو

يزرع الحقل، كذلك كانت أعشاشنا في سخودول تختفي بسرعة أمام أعيننا، من دون أن تترك أثراً، وكان سكانها يقضون نحبهم أو يهاجرون. أما من بقي، بشكل من الأشكال، فقد كان يجتر البقية من حياته بشكل من الأشكال أيضاً. ونحن لم ندرك هذه الحقبة، ولا تلك الحياة، وإنما عرفنا بضع ذكريات عنهما، ووجوداً بسيطاً شبه متوحش. كانت زياراتنا لموطننا السهبي تقل بالتدريج مع مضي السنين؛ ومع مضي السنين أيضاً كان يزداد غربة عنا، ويزداد رباطنا بتلك الحياة، وتلك الطبقة التي خرجنا منها، ضعفاً. إن عديدين ممن ينحدرون من سلالتنا مشهورون وعريقو النسب مثلنا، فأسماؤنا مذكورة في الكتب، كما كان أجدادنا من رجال البلاط، أو قواداً عسكريين، و«رجالاً أعلاماً»، ومشاركين كباراً في أعمال جليلة كثيرة، بل أقرباء للقياصرة، وكانوا يسمون بالفرسان.

لا يمكن لسليل الفرسان أن يقول إن طبقة كاملة من الأشراف قد امحت عن وجه الأرض خلال نصف قرن، وأن عديداً منا قد انقرض، أو جن، أو انتحر، أو غرق في الخمر، أو انحط، أو ضاع في مكان ما ببساطة، أو لا يمكنه أن يعترف كما أعترف أنا، بأننا لا نملك تصوراً دقيقاً، أو شبه دقيق، ليس عن

حياة أجدادنا الأول فحسب، وإنما عن حياة آباء آبائنا، وأننا نحس بصعوبة أكبر، مع كل يوم جديد، في تخيل ما كان قائماً قبل نصف قرن.

أما المكان الذي كان بيتنا في لونيفا قائماً عليه فقد حرث وزرع من زمن بعيد، مثلما حرثت وزرعت أماكن كثير من البيوت الأخرى. لقد صمت البيت في سوخادول بشكل من الأشكال ولكن صاحبه، ابن بيتر بيتروفيتش، قطع أشجار البتول المتبقية في الحديقة، وباع، قطعة إثر قطعة، كل الأرض المزروعة تقريباً، ثم رحل كي يصبح موظفاً في السكك الحديدية. أما قاطنات سوخادول المسنات، كلافديا ماركوفنا والعمة تونيا وناتاليا، فكن يقضين بمشقة أعوامهن الأخيرة. كان الصيف يعقب الربيع والخريف يعقب الصيف، وذاك تعقبه الشتاء.. ولكنهن لم يكن يعرفن حساباً لهذه التعاقبات. كن يعشن بالذكريات والأحلام والمشاجرات وبهموم لقمة الخبز اليومية، وفي الصيف، كانت تلك الأماكن التي امتد إليها البيت فيما مضى، تغرق في الجودار؛ وكان البيت وهو محاط بها، يبدو بعيداً بعيداً. وكانت العواسج وبقايا الحديقة، موحشة للغاية، بحيث أن السمان كان يزعق على الشرفة نفسها... ولكن

ما شأن الصيف هنا!!... «فالصيف بمنزلة الفردوس لنا» كما تقول العجائز الثلاث. إذ كان الخريف طويلاً، ثقيل الوطأة، كثير الأمطار، كما كان الشتاء غزير الثلج في سوخادول، وكانت العجائز يقاسين البرد والجوع في ذلك البيت المقفر، المتداعي، الذي كانت العواصف تلطمه، وتنفخ الريح الصقيعية أنفاسها الباردة فيه. ولم يكن يشعلن المواقد إلا فيما ندر. وفي الأماسي كان ثمة ضوء خاب ينبعث عبر نوافذ حجرة السيدة الهرمة – الحجرة الوحيدة المأهولة – من قنديل تنكي. كانت السيدة ترتدي نظارات وفروة وجزمة دافئة، وتجلس لنسج جورب منحنية إلى القنديل، أما ناتاليا فكانت تغفو في مرقدها البارد، وأما الآنسة الشبيهة بكاهن سيبيري، فكانت تجلس في كوخها وهي تدخن الغليون، وعندما لم تكن العمة متخاصمة وكلافديا ماركوفنا، كانت هذه لا تضع القنديل على الطاولة وإنما على حافة النافذة، فكانت العمة تونيا تستضيء بهذا الضوء الشحيح، الآتي من البيت إلى داخل كوخها الجليدي، المفروش ببقايا الأثاث القديم، وحطام الأواني الذي يغطي أرضه، والبيانو المائل على جنبه. كان الكوخ من البرودة بحيث أن الدجاجات، التي توليها العمة تونيا كل عنايتها، كانت تنفض

الصقيع عن أبدانها بقوائمها، وهي راقدة على نثار وحطام الأواني...

«أما الآن فقد خوى البيت تماماً. مات كل من أتى ذكره في هذا السجل، ومات جيرانهم وأترابهم. أحياناً أفكر: وهل حقاً وجدوا في هذه الدنيا...»؟

عندما أزور مقبرة القرية فحسب أحس أنهم وجدوا. بل أحس بقرب حميم منهم، ولكن حتى هذا يتطلب مني أن أبذل جهداً وأن أجلس قرب أضرحة الأهل – إذا ما وجدتها - وأن أستغرق في التفكير. من الخزي أن أقول ما سأقوله، ولكن لن أقدر على كتمانه: نحن لا نعرف قبور جدنا وجدتنا وبيتر بيتروفيتش. إننا نعرف فحسب أنها قائمة قرب هيكل كنيسة قديمة في ضيعة تشيركيزروف. لا يمكنك شتاء أن تذهب إلى هناك: إذ تغوص إلى خصرك في كثبان من الثلج، تبرز منها صلبان متباعدة، وأطراف أغصان وعواسج عارية. أما في أيام الصيف فتعبر شارع القرية الحار، الهادئ، المقفر، ثم تربط الحصان إلى سور الكنيسة الذي تقف خلفه، كجدار أخضر، بضع صنوبرات مكتوية بالقيظ. وخلف شجرة الخوخ المتطاولة، وخلف الكنيسة البيضاء ذات القبة الصدئة، كان ثمة حرج كامل من أشجار الدردار الواطئة، يلقي بظلاله الباردة في

كل مكان. وتتسكع طـويلاً بـين العواسـج والأكـمات، والحفـر المغطاة بأعشاب المقابر الرقيقة، وبـلاط الأضرحـة الغـائص في الأرض، الملفع بطحالـب سـوداء، وبخـار مـاء المطـر يتـصاعد منه... هاهما شاهدتان حديديتان أو ثـلاث شـواهد ولكـن لمـن هي؟... لقد اخضرت وتذهبت بحيث لم يعد بالإمكان قراءة ما كتب عليها. تحت أي أكمـة إذن ترقـد عظـام الجـد والجـدة؟.. الرب وحده يعلم. إنك تعرف شيئاً واحداً فحـسب، وهـو أنهـا موجودة هنـا... بـالقرب منـك. وتجلـس وتفكـر جاهـداً في أن تتخيل كل آل خروشوف المنسيين، فيبدو لك زمـنهم بعيـداً بـلا نهاية، وقريباً دونما حد؛ وعندها تقول لنفسك:

- ليس صعباً، ليس صعباً أن تتـصورهم. عليـك ألا تنـسى فحسب، أن هذا الـصليب المـذهل، المائـل، المتـصب في سـماء الصيف الزرقاء، كان في زمـنهم أيـضاً... وأن في زمـنهم أيـضاً كانــت الــسنابل تــصفر في الحقــول الخاويــة القائظــة، وكانــت الأحراش تلقي بظلالها الباردة، وأنه قد تـسكع أيـضاً، في هـذه الأحراش، حصان كهذا الحصان الأبـيض، الهـرم، ذي العـرف الأخضر، والشعر المغسول، والحوافر الوردية المحطمة...

١٩١١

في شارع أليف

في ليلة ربيع باريسية، كنت سائراً في البولفار، عبر سديم متصاعد من الخضرة الطازجة الكثيفة، وكانت القناديل ترسل عبر السديم أضواءها المعدنية. كنت أحس بنفسي الشباب والخفة، وكنت أردد:

في شارع أليف
أذكر بيتاً عتيقاً
ذا درج عال معتم
وشباك بستائر مسدلة.

أبيات رائعة، وكم هو مدهش أن كل هذا كان لدي يوماً ما، موسكو، برسنيا، شوارع صماء مغطاة بالثلج، بيت خشبي لتاجر صغير، وأنا، الطالب الذي لا أصدق الآن أنه كان موجوداً في زمن ما.

وكان ضوء خفي

يشع حتى منتصف الليل.

وكان يشع هناك أيضاً. العاصفة تعوي، والريح تنفخ الثلج عن السطح الخشبي، خافقة إياه بالدخان، وفوق، في العلية، كان ثمة ضوء منبعث من خلف ستارة حمراء من التفتة.

آه كم هي غريبة هذه الفتاة

في ساعة منشودة من الليل

كنت ألتقيها في ذلك البيت

بشعرها المرسل

وهذا كان أيضاً. كانت ابنة شماس من سيربوخوف، هجرت أسرتها المعدومة وأتت إلى موسكو للدراسة... صعدت الدرج الخشبي المغطى بالثلج، وهززت الحلقة الموصولة بسلك ممتد حتى الممر، ينتهي بصفيحة معدنية تضج كالجرس. ومن خلف الباب انبعثت أصوات خطى تعدو على السلم الخشبي، ومن ثم فتح الباب، وهبت الريح على وجهها وشالها وكنزتها

البيضاء... رحت أقبلها، معانقاً إياها، حاجباً عنها الريح، ثم ركضنا إلى العلية في البرد الصقيعي وعتمة السلم، ركضنا إلى غرفتها الصغيرة الباردة أيضاً، المضاءة بقنديل غازي شحيح... الستارة الحمراء على النافذة، وكرسي تحتها يحمل القنديل، وسرير حديدي بمحاذاة الجدار. ألقيت معطفي وقبعتي حيثما اتفق، وأجلستها على ركبتي، بعد أن جلست أنا على السرير، فأحسست بجسدها وعظامها تلتصق بي عبر التنورة... لم يكن شعرها مرسلاً، وإنما كان لديها ضفيرة شقراء نحيلة، ووجه شعبي بسيط، شفاف من الجوع، وكانت عيناها شفافتين أيضاً وفلاحيتين، وكانت شفتاها رقيقتين، كما لدى جميع الفتيات الضعيفات...

نزعت رداء الطفولة والتهبت

منهمرة بقبلها على شفتي

وهمست لي مرتجفة

اسمع، فلنهرب.

نهرب!؟ ولكن إلى أين ولماذا وممن؟ كم هي رائعة هذه الحماقة الطفولية المضطرمة «فلنهرب». لم يكن لدينا «فلنهرب»، وإنما كانت تلك الشفتان الضعيفتان أحلى شفتين في العالم، وتلك الدموع الحارة، المتألقة في العينين من فرط السعادة، والإنهاك الثقيل للجسدين الفتيين، الذي، من وطأته، كان كل منا يلقي برأسه على كتف الآخر. كانت شفتاها تلتهبان، كما في الحريق، عندما كنت أحل كنزتها، وأقبل نهدها الأبيض ذا الكرزة الصغيرة الصلبة. وعندما نصحو كانت تقفز لإشعال القنديل، وتحضير الشاي. وبعد ذلك كنا نشرب الشاي مع الخبز الأبيض، والجبن ذي القشرة الحمراء، ونتحدث إلى ما لا نهاية عن مستقبلنا، ونحن نحس الجو، خلف الستارة، عابقاً بالشتاء والبرد الطازج، ونصغي إلى وقع الثلج على النافذة.

«في شارع أليف أذكر بيتاً عتيقاً» وماذا أذكر أيضاً؟ أذكر كيف رافقتها في الربيع، إلى محطة كورسك، وكيف عدونا على الرصيف، بسلتها القشية، وصرة من بطانية حمراء ملفوفة بحزام، بمحاذاة القطار الطويل، الذي كان يتهيأ للانطلاق،

محـدقين إلى العربـات الخـضر المكتظـة بالبـشر... وأذكـر كيـف استطاعت أخـيراً الـدخول إلى ممـر إحـداها، وكيـف تكلمنـا وتواعدنا، وقبل أحدنا يدي الآخر، وكيـف وعـدتها بـالمجيء، بعد أسبوعين، إلى سيربوخوف....

لا أذكر شيئاً آخر، فبعد هذا لم يحدث شيء.

١٩٤٥

منمنمات

الشباب والشيخوخة

كانت أياماً صيفية رائعة، وكان البحر الأسود هادئاً.

اكتظ المركب من مقدمته وحتى مؤخرته، بالناس والأمتعة.

كان إبحارنا طويلاً ودائرياً: القرم، القفقاس، ساحل الأناضول، القسطنطينية...

الشمس لاهبة، السماء زرقاء، البحر ليلكي، وقفات لا تنتهي في الموانئ المزدحمة بالناس، الضاجة بهدير الرافعات المصم، وبشتائم البحارة وصراخهم: انزل، ارفع، ثم من جديد يسود الهدوء والنظام والانسياب البطيء، بمحاذاة النتوءات الجبلية، الذائبة من الحر في سديم الشمس.

كان النسيم البحري يهب على مقصورات الدرجة الأولى، وكانت غرفة الاستراحة فارغة، نظيفة، رحبة، أما القذارة والضيق فكانا يعمان جحافل الركاب متعددي القوميات والأجناس، القابعين قرب الماكنة الساخنة والمطبخ الفواح،

وعلى الأرض تحت الستائر، وفوق سلسلة المرساة والحبال الثخينة في المقدمة. كان المكان هنا عبقاً برائحة نفاذة، حارة، لطيفة، تارة، ودافئة، كريهة، تارة أخرى، لكنها مثيرة دائماً، خاصة، مركبية، تمتزج بها طزاجة البحر. كان ثمة رجال ونساء روس، وأوكرانيون وأوكرانيات، ورهبان من شبه جزيرة أفون، وأكراد وجيورجيون ويونانيون... كان الأكراد، وهم شعب بسيط، ينامون منذ الصباح وحتى المساء، أما الجيورجيون فكانوا يغنون أو يرقصون أزواجاً، متقافزين بليونة، وبخفة مغناجة يشمرون أكمامهم العريضة، ويعومون في الحشد الذي يخلي الساحة لهم مصفقاً بإيقاع: تاش – تاش، تاش – تاش. أما الحجاج الروس الذاهبون إلى فلسطين فكانوا يشربون الشاي من دون انقطاع، وثمة بينهم رجل طويل ذو كتفين خاسفتين، ولحية صفراء مدببة، وشعر مستقيم، كان يقرأ الكتاب المقدس، وامرأة متحررة إلى درجة الاستفزاز، لا تزيح عينيها الحادتين عنه. كانت ترتدي كنزة حمراء، ومنديلاً أخضر شفافاً، يلف شعرها الجاف الأسود، وتجلس وحيدة قرب المطبخ.

توقفنا طويلاً في ترابيزوند. نزلت إلى الشاطئ، وعندما عدت رأيت عصبة جديدة من الأكراد المسلحين، بثياب رثة

ممزقة، تصعد السلم إلى المركب، إنها حاشية لشيخ كان يتقدمهم، ضخم عريض العظام، بصدار أبيض وعباءة شركسية رمادية، مزنرة عند الخصر النحيل بحزام مزركش. نهض الأكراد الذين كانوا معنا، والقابعين كلهم في مكان واحد من سطح المركب، ونظفوا فسحة خالية، ففرشت حاشية الشيخ كثيراً من السجاد، وصفت عديداً من الوسائد، ورقد الشيخ على هذا المضجع بحركة ملكية. كانت لحيته بيضاء كالرغوة، ووجهه جافاً، مسوداً من لفح الشمس، وكانت عيناه الصغيرتان العسليتان تلمعان بألق غريب. اقتربت منه وجلست القرفصاء قائلاً «السلام عليكم» وسألته بالروسية:

- من القفقاس؟

فأجابني متودداً وبالروسية أيضاً:

- من مكان أبعد أيها السيد، نحن أكراد.

- إلى أين أنتم مبحرون؟

أجاب بتواضع أبي:

- إلى استامبول يا سيدي، إلى السلطان نفسه. إنني أحمل له هدية امتنان: سبعة أحزمة. أخذ مني السلطان للحرب سبعة

أبناء، أخذ كل ما عندي من أبناء، وقتلوا كلهم في الحرب. لقـد باركني السلطان سبعاً...

تسي، تسي، تسي – صات بأسف مستهتر شاب وسيم ممتلـئ واقف فوقنا وبيده سيجارة. كان يوناني الجنسية، غندوراً يرتـدي طربوشاً دمشقياً بلون الكرز، ومعطفاً رمادياً وصداراً أبـيض، وبنطالاً رمادياً من أحدث طراز، وحذاء ملمعاً، مزرراً من كـلا جانبيه، وأردف هازاً رأسه:

- شيخ في عمرك يبقى وحيداً.

نظر الشيخ إلى طربوش الشاب، وأجاب ببساطة:

ـــ يا لك من أحمق. أنت من سيكون شيخاً، أمـا أنـا فلـست بشيخ ولن أكون أبداً. أتعرف قصة القرد؟

ابتسم الغندور بارتياب:

- أي قرد؟

- اسمع إذن! خلق الله السماء والأرض، أتعرف هذا؟

- أعرف.

- وبعد ذلك خلق الإنسان وقـال لـه: سـوف تعـيش أيهـا الإنسان في هذا العالم ثلاثين عاماً. سوف تعيش جيداً، ستفرح

وتظن بأن كل ما خلق الله وصنعه على الأرض مسخر لك. هل أنت راض بهذا؟ ففكر الإنسان: حياة جديدة، ولكن ثلاثين عاماً فقط؟ آه... قليل هذا، أتسمع؟ سأل الشيخ ساخراً.

- أسمع – أجاب الغندور.

- بعد ذلك خلق الرب البغل وقال له: سوف تحمل الأثقال والأحمال، وسوف يمتطيك الناس، ويضربونك على رأسك بالعصا، هل ترضى أن تعيش مثل هذه المدة؟ انتحب البغل وبكى، وقال للرب: لم كل هذا؟ أعطني يا رب خمسة عشر عاماً من العمر فحسب، فقال الإنسان للرب: يا رب أرجوك، أضف الخمسة عشر عاماً المتبقية من حصته إلى عمري. وافق الرب وفعل. وأصبح عمر الإنسان خمسة وأربعون عاماً. كان الإنسان محظوظاً أليس كذلك – سأل الشيخ ناظراً إلى الغندور. أجاب ذاك متردداً، دون أن يفهم معنى كل هذا:

- أجل حظه طيب.

- بعد ذلك خلق الله الكلب وأعطاه ثلاثين عاماً، وقال له: سوف تعيش حاقداً أبداً، وستحرس مال الإنسان مرتاباً بكل غريب، وستنبح على المارة، ولن تنام الليل من القلق. زعق

الكلب: أوه، يكفيني نصف هذه الحياة. ومرة أخرى راح الإنسان يرجو الرب: أضف إلي النصف الآخر، ومرة أخرى وافق الرب. كم أصبح الآن عمر الإنسان؟

أجاب الغندور مرحاً:

ـــ ستين عاماً.

- وبعد ذلك خلق الله القرد، ومنحه أيضاً ثلاثين عاماً، وقال إنه سوف يعيش بلا عمل ولا هم، ولكنه سيكون قبيح الوجه للغاية: سيكون أصلع ، مليئاً بالتجعدات، وبحاجبين عاريين يزحفان على جبهته، وسيتفرج الجميع عليه ويضحكون.

سأل الغندور:

- إذن هو أيضاً طلب نصف هذه الحياة؟

- وهو أيضاً تخلى عن نصف عمره - قال الشيخ ناهضاً لتناول خرطوم النرجيلة من أحد رجاله، ثم أردف وهو يعود إلى الاضطجاع عليها:

- وطلب الإنسان هذا النصف لنفسه.

صمت محدقاً إلى نقطة ما أمامه، ذاهلاً عنا، ثم تكلم غير متوجه لأحد منا:

- عاش الإنسان أعوامه الثلاثين كما يليق بالإنسان: أكل وشرب وحارب، ورقص في الأعراس، وعشق الصبايا والنساء. بعد ذلك عمل خمسة عشر عاماً كالبغل، مراكماً ثروته، وعاش خمسة عشر عاماً أخرى كالكلب، أمضاها في حراسة ثروته وحمايتها، وفي النباح والحقد على الآخرين، دون أن ينام الليل، وبعد ذلك أصبح قبيحاً وهرماً كالقرد. كل هذا سيحدث لك – قال الشيخ للغندور ساخراً مدحرجاً بين أسنانه خرطوم النرجيلة.

سأل الغندور:

- ولماذا لم يحدث لك؟

- لم ولن يحدث لي هذا أبداً.

- لماذا؟

أجاب الشيخ بثقة:

- أمثالي قلة، لم أكن بغلاً، ولم أكن كلباً، فلماذا أكون قرداً؟ لماذا أكون هرماً؟

١٩٣٦

الأرجوحة

جلست، ذلك المساء الصيفي، في غرفة الضيوف، مدغدغاً أصابع البيانو. تناهى إلى سمعي وقع خطاها على الشرفة، فضربت الأصابع بوحشية، وزعقت مغنياً بصوت ناشز:

- لا أحسد الآلهة

لا أحسد الملوك

عندما أرى العيون الناعسة

والقد الرهيف والضفائر السود.

دخلت بفستان أزرق بلا أكمام، بضفيرتين طويلتين، سوداوين، مسبلتين على ظهرها، وعقد مرجاني، وعيناها الزرقاوان تضحكان في وجهها الملوح بالشمس:

- كل هذا عني؟ أهو من تأليفك؟

- أجل.

ضربت الأوتار مرة أخرى وصرخت:

- لا أحسد الآلهة.

- يا لها من إذن موسيقية تلك التي لديك.

- ولكنني بالمقابل رسام شهير، ووسيم مثل ليونيد أندرييف. فيا لمصيبتك إذ أتيت إليك.

- إنه يريد إرعابنا ولكنني لا أحس بأي رعب، هذا ما قاله تولستوي عن أندرييفك هذا.

- سنرى، سنرى.

- وعصا الجد؟

- صحيح أن الجد بطل من سيباستوبول، ولكن ليس فيه ما يخيف إلا مظهره. لنهرب ونتزوج، وبعد ذلك نركع على قدميه، فيبكي ويصفح عنا.

في الغسق، قبيل العشاء، عندما هبت من المطبخ رائحة اللحم والبصل، وصفا الهواء في الحديقة الندية، كانا يتأرجحان على الأرجوحة، في نهاية الممشى، واقفين أحدهما بمواجهة الآخر، والأرجوحة تصر بحلقاتها، خافقة الهواء، فترفرف أذيال ثوبها. كان يشد الحبل ويهز العقد، راسماً عينين مرعبتين،

أما هي فكانت تنظر إليه بثبات ومن دون معنى، متوردة، فرحة.

- هاهي أول نجمة، ها هو الهلال، والسماء فوق البحيرة خضراء، خضراء... إيه أيها الرسام، انظر أي هلال دقيق هو... يا هلال... يا هلال... يا ذا القرون الذهبية.. أوه... سنقع.

طارا من علٍ، وقفزا إلى الأرض، ثم جلسا على مقعد الأرجوحة، وهما يكبحان أنفاسهما اللاهثة، وينظران أحدهما إلى الآخر.

- ثم ماذا؟ لقد قلت ما عندي.

- وماذا قلت؟

- أنت واقعة في حبي.

- ممكن...صه.. إنهم ينادوننا للعشاء.. هيه...نحن قادمان، قادمان.

- انتظري دقيقة. دعينا نتأمل: النجمة الأولى، الهلال، السماء الخضراء، أريج الندى، رائحة المطبخ، حقاً، من جديد لحمي المفضل مع القشدة، وعينان زرقاوان ووجه سعيد رائع...

- أجل، لعله لن يكون في حياتي مساء أسعد من هذا.

- كان دانتي يقول عن بياتريسا: «في عينيها بداية الحب، وآخره في ثغرها». أليس كذلك؟

قال هذا وأخذ يدها.

فأغمضت عينيها وأحنت رأسها إليه. احتضن كتفيها وضفيرتها، ورفع رأسها:

- آخره في ثغرها؟

- أجل...

وعندما سارا في الممشى، نظر إلى ما بين قدميه:

- ماذا نفعل الآن؟ هل نذهب إلى الجد، ونركع أمامه طالبين بركته؟ ولكن، عندها، أي زوج أكون أنا؟

- لا... لا.. كل شيء، إلا هذا.

- وماذا إذن؟

- لا أدري فلنكتف بما لدينا.. لن يأتي ما هو أجمل.

١٩٤٥

الأسـطورة

على أنغام الأورغ والغنـاء – الجميـع كـان يغنـي عـلى وقـع الأورغ أغنية ناعمة، حزينة، ضارعة تقول: «يطيب لنا أن نكون معـك يـا إلهـي» -عـلى أنغـام الأورغ والغنـاء فجـأة رأيتهـا، وأحسست بها – رؤيا مباغتة، غير منتظـرة، لا أعـرف مـن أيـن انبثقت، مثل كل الرؤى الأخرى التي تأتيني –وظللـت طـوال النهار أفكر بها، وأعيش حياتهـا وزمنهـا. لقـد عاشـت في تلـك الأيام الغابرة التي نسميها القدم، ولكنها كانـت تـرى الـشمس التي أراها الآن، وهذه الأرض التي أحبها للغاية، وهذه المدينـة العتيقة، وهذا الكاتدرائية، والصليب الذي مـا زال يـسبح، كـما في الماضي، بين الغيوم، وسـمعت هـذه الأغـاني التـي أسـمعها الآن.

كانت فتية تأكـل وتـشرب وتـضحك وتثرثـر مـع جاراتهـا، وتعمل وتغني. كانت بنتاً ثم خطيبة فزوجة فأم.. وماتـت بـاكراً

مثلما تموت غالباً النساء اللطيفات المرحات، ورتلوا لها الأناشيد في هذه الكاتدرائية. وهاقد مضت قرون عديدة وهي غائبة عن هذا العالم. ونشبت بدونها حروب جديدة، وظهر باباوات وملوك وجنود وتجار ورهبان وفرسان، وفي الوقت نفسه كانت عظامها النخرة، وجمجمتها الصغيرة الفارغة، ترقد في الأرض وترقد...

كم عددها في الأرض هذي العظام وهذي الجماجم.

إن كل الماضي البشري، كل التاريخ الإنساني، ما هو إلا حشد وجحافل من الأموات. وسوف يأتي يوم انضم فيه إليهم، وسأكون أيضاً مرعباً بعظامي ونعشي في مخيلة الأحياء، مثلهم جميعاً – مثل ذلك الجحفل العام الذي سيغرق الأرض يوم الحشر – ومع ذلك سيظل هناك أحياء، وسيعيشون وهم يحلمون بنا، نحن الموتى، وبحياتنا المغرقة في القدم، وزمننا الماضي، الذي سيبدو لهم رائعاً، وسعيداً، لكونه أسطورياً.

١٩٤٩

في آخـر الليـل

هل كان حلماً، أم ساعة ليل من حياة خفية تـشبه الأحـلام؟ تراءى لي قمر الخريـف الأسـيان يـسبح منـذ زمـن بعيـد، فـوق الأرض، وأن ساعة الخلاص من كل كذب النهـار وهرجـه قـد حلت. تراءت باريس غافية حتى آخر شحاذ فيها. نمت طـويلاً حتى انصرف النوم ببطء عني، مثل طبيب حـريص متـأن، قـام بواجبه، ولم يترك المريض إلا بعـد أن رآه يتـنفس مـلء صـدره، ويفتح عينيه، ويرسم ابتسامة حيية، ابتـسامة العـودة إلى الحيـاة. صحوت، فتحت عيني، فرأيـت نفـسي غارقـاً في مملكـة الليـل المضيئة الساكنة.

ذرعــت الــسجادة، في غرفتــي بالطــابق الخــامس، بخطــى صامتة، ثم اقتربت من إحدى النوافذ، ورحت أنظـر إلى الغرفـة الكبيرة الملونة بعتمة خفيفة تارة، وتارة عبر الزجاج العلوي من النافذة، إلى القمر الذي كان يسكب الضوء عليّ. رفعـت عينـي

إلى أعلى، وحدقت طويلاً في وجهه. كانت أشعته تخترق دانتيلا الستارة البيضاء، ملطفة العتمة في عمق الغرفة. لم يكن القمر مرئياً من هناك، ولكن النوافذ الأربع كلها، وما يحاذيها، كانت تلمع ساطعة. كان ضوء القمر يسقط من النوافذ بأقواس شاحبة زرقاء، أو شاحبة فضية، وفي كل قوس منها ظل متصالب، دخاني، يتكسر على الأرائك والكراسي المنورة، على الأريكة عند النافذة الأخيرة، جلست تلك التي أحبها، في الأبيض كلها، تشبه بنتاً صغيرة، شاحبة ورائعة، تعبة من كل شيء، من كل ما عانيناه معاً، ومن كل ما كان يحولنا إلى عدوين لدودين، شريرين، في كثير من الأحيان.

لماذا لم تنم، هي أيضاً هذه الليلة؟

جلست على طرف النافذة، قربها، متجنباً النظر إليها.. أجل، تأخر الوقت. كان جدار البيت المقابل، بطوابقه الخمسة كلها، معتماً، وكانت نوافذه مظلمة مثل عيون عمياء. نظرت إلى الأسفل، فرأيت شريط الشارع الضيق العميق أسود وخاوياً. كانت المدينة كلها هكذا، وكانت تنظر إليّ، إلى عينيّ مباشرة، مضيئة، خائبة، وحزينة بسبب هذه الخيبة. كان الغيم يسبح

قربها كالدخان، مضوءاً، ذائباً، قرب البدر، كثيفاً مدلهماً بعيداً عنه، وكان يسير، خلف قمم الأسطحة، كجيش ثقيل مكفهر.

لم أر منذ زمن بعيد، ليلة قمراء، وهاهي أفكاري تعود بي من جديد إلى الليالي الخريفية المنسية البعيدة، التي شهدتها طفلاً، في سهوب روسيا الوسطى المتعرجة البائسة. هناك كان القمر ينظر إلى سقف بيتنا، وهناك عرفته وأحببت وجهه الوديع الشاحب. غادرت باريس بخيالي، وللحظة تراءت لي كل روسيا، تماماً وكأنني أنظر من علٍ إلى أغوار هائلة. ها هي الرحابة الذهبية المتلألئة لبحر البلطيق، ها هي بلاد الصنوبر المكفهرة، الذاهبة في الغسق إلى الشرق، وها هي الغابات الخفيفة والمستنقعات والأحراش الصغيرة، التي تبدأ بعدها حقول وسهول لا نهاية لها، وها هي خطوط السكك الحديدية ممتدة عبر الغابات، على مئات الفراسخ، تلمع بخفوت تحت أشعة البدر، والأضواء الناعسة تتألق على طول الطريق راكضة، الواحد إثر الآخر، إلى وطني. وتنبسط أمامي حقول تعلوها هضبات صغيرة، نهض في وسطها بيت إقطاعي رمادي عتيق، مقوضاً وديعاً تحت ضوء القمر.. أمن المعقول أن هذا القمر هو نفسه ذاك الذي كان يحدق إلى غرفة طفولتي، وشهدني فتى، وهو نفسه من يحزن

الآن معي، على شبابي الضائع؟ إنه هو مـن أدخـل الـسكينة إلى قلبي في مملكة الليل المضيئة...

سمعت صوتاً مرتبكاً يقول:

ـــ لماذا لم تنم؟

وخز قلبي، بألم ولذة، كونها هـي التـي بـدأت الكـلام بعـد صمت طويل عنيد.

أجبت بهدوء:

- لا أدري.. وأنت؟

وصمتنا طـويلاً مـن جديـد. هـبط القمـر بـشكل ملحـوظ مقترباً من الأسطحة. وراح يتأمل غرفتنا بعمق.

قلت مقترباً منها:

- اغفري لي...

غطت عينيها بكفيها ولم تجب. انحدرت الدموع على خديها، وارتفع حاجباها، وارتجفا كـما لـدى الأطفـال. فركعـت عنـد قدميها وألصقت وجهي بها، من دون أن أمنع دمعها أو دمعي.

همست مضطربة:

- وهل أنت المذنب؟ ألست أنا المذنبة في كل هذا؟

ورسمت عبر الدموع ابتسامة فرحة مريرة.

فقلت لها إننا مذنبان معاً، لأننا خرقنا سفر الفرح، الذي ينبغي أن نعيش على الأرض لأجله. وأحب أحدنا الآخر كما ينبغي لاثنين تعذبا معاً وضلا، وصادفا، مع ذلك، لحظات نادرة من الحقيقة، ولم يكن من شاهد على سعادتنا سوى القمر الحزين الشاحب.

١٩٠١

قبض الريح

أتعلمون كيف مات فولتير، وأين دفن في البداية، وما هو المصير الذي انتهى إليه دماغه وقلبه؟

روى لنا لينوتر هذا بمهارته المعتادة والسخرية المرهفة الدائمة التي تميزه.

قدم فولتير إلى باريس، قبل ثلاثة أشهر من وفاته، ونزل في فيلا السيد دوفيليت الواقعة على الزاوية القائمة بين شارع بون وضفة النهر. ساد الهدوء والسلام هذه الفيلا لمدة ثلاثة أشهر، حتى حل المساء الرهيب في ٣٠ أيار ١٧٧٨. كان باستطاعة المارة العابرين قرب بوابة الفيلا، تلك الليلة، إذا ما نظروا إلى فنائها (الذي ظل بالمناسبة، حتى زمننا هذا، على ما كان عليه في ذلك الوقت) أن يلاحظوا حركة غير عادية تملأ البيت: النوافذ الثلاث في الطابق الأول ظلت مضاءة بقوة حتى آخر الليل، وخلف ستائرها كان ثمة ظلال بشرية تركض. ماذا حدث؟ ما

حدث هو أن الملحد الأعظم قد أسلم الروح للرب، وأن أسرته، السيدة ديني وأخوها، والقس مينود والسيدان دورموا ودوفيليت، والطباخة والبوابة، كانوا منهمكين بإكساء الجثمان. جوهر المسألة أن فولتير، بعدما شهد جنازة أ. ليكوفرير، أحس بالرعب والخوف من أن يلقى كالجيفة، ومن تحقق نبوءات أعدائه الذين توقعوا له، عند دفنه، فضيحة كبرى سيثيرها المتعصبون الدينيون. وكان ينبغي إذن رد هذه الفضيحة بأي ثمن.

لفظ فولتير آخر أنفاسه في الساعة الحادية عشرة. بعد هذا، وفي الحال، اندفع أحد الحاضرين إلى الجراح تري، وانطلق آخر إلى الصيدلي المجاور ميتوار. أتى هذان، وفحصا الجثة بسرعة، وصادقا على الوفاة، ثم انهمكا في تعقيم الجثمان، وفي استخراج القلب والدماغ والأحشاء منه. الأحشاء ألقيت في أقرب وعاء للنفايات، أما الدماغ فحشر في قطرميز مليء بالسبيرتو، وأما القلب فوضع في علبة من الرصاص، وضعت بدورها في صندوق فضي مذهب. وليس هذا كل شيء، فقد كانت المعضلة الرئيسية كامنة في نقل الجثمان سراً من باريس إلى دير سيلير الذي يبعد عن العاصمة بحوالي ١٣٠ كيلو متراً. كان القس

مينو، ابن أخ الفقيد، مقرباً من هذا الدير، وكان يأمل بالحصول على إذن من رئيسه بتشييع فولتير، ودفنه هناك. ولكن كيف ينقلونه إلى الدير؟ إذ كان ينبغي أن يتم هذا بدهاء، وبأسرع شكل ممكن، من دون بخل في الإنفاق.

بعد استخراج القلب والدماغ والأحشاء شرعوا بإكساء الجثمان: لفوه بكفن مُزّق من بياضات السرير على عجل، ثم ألقوا على كتفيه عباءة، وعلى رأسه طاقية الليل، وأدخلوا قدميه في خفيه، وعندما انتهوا من هذا جروا الرفاة العظيمة، المقمطة، من البيت إلى الفناء، ووضعوها في عربة - كانت زرقاء بنجوم - وأمروا الخادم بالجلوس في مواجهة الجثة كي يسندها ويمنعها من السقوط، والحوذي بأن يلهب الجياد كي ترمح بأقصى سرعة ممكنة.

تمت هذه الإجراءات كما هو معروف، على أفضل وجه. وعند الوصول إلى سيليير كان الخادم نفسه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، بعد الرعب الذي ذاقه على الطريق، وهو جالس في عربة معتمة وجهاً لوجه مع ميت يتأرجح. وصل المتوفى إلى الدير كاملاً غير منقوص، بسرعة فائقة، وتمت بقية الإجراءات

بالسرعة نفسها. وعندما رقد جثمان فولتير تحت بلاطات الـدير لم تكن باريس قد علمت بعد بوفاته.

أما فيما يتعلق بالقلب والدماغ فقد تعرضـا لمغـامرات أسـوأ وأكثر تنوعاً. الـدماغ «الـذي كـان يتميـز بحجـم غـير عـادي» أصبح في حوزة الصيدلي ميتوار، وظـل هـذا، لـبعض الوقـت، يشبع ولعه بالتباهي: كان يريه للزبـائن «ولكـل مـن يرغـب في تأمل دماغ السيد فولتير» ولكن بما أنه كـان إنـساناً مثقفـاً، فقـد خشي على مستقبل هذه «التحفـة العجيبـة» ولـذا قـرر إهـداءها للدولـة. عنـدها سـخر القـدر بقـسوة مـن فـولتير: فلدهـشة الصيدلي، ارتبكت الدولة، وراحت تعبر عن امتنانها له، منحنيـة أمامه، ولكنها رفضت أخذ الدماغ، بعد نصف قـرن مـن ذلـك التاريخ كرر ابن الصيدلي، الطبيب، ميتوار، محاولة أبيه في حفـظ الدماغ للأجيال القادمـة، وقدمـه مـرة أخـرى لفرنـسا، ولكـن فرنسا، لسبب ما، اعتذرت مجدداً عن قبول هذا الشرف. المالـك الثالث للدماغ، السيد فيرديه، حاول إقناع الأكاديمية بأخذه، إذ لابد أن يقبل «الخالدون» على الأقل بقبـول دمـاغ زميـل سـابق لهم. ولكن الأكاديمية أيضاً رفضته: «إذ ليس لديها مكان جدير بهذه الهدية المباغتة». وانطلـق الـدماغ في رحلـة طويلـة: انتقـل

بالوراثة إلى حفيدة الصيدلي، التي كانت تنتقل في ترحال دائم، حاملة معها، أينما حلت، ذلك القطرميز النفيس «الذي يحمل معجزة أبدعت كثيراً من الأفكار العبقرية»، وعندما توفيت الحفيدة انتقل القطرميز، بشكل غير مفهوم إلى مساعد صيدلي يدعى لابروس، وفي عام ١٨٧٠ بيع في مزاد علني ضمن أشياء أخرى، واختفى في غياهب المجهول.

يقول لينوتر:

- ربما ظل سليماً حتى وقتنا هذا، ولعله الآن قابع في سقيفة ما، ما بين المهملات، ولكن أين بالضبط؟ لم يجب أحد عن هذا السؤال حتى يومنا.

أما القلب فلم يكن أحسن حظاً، إذ عرف هو أيضاً القلق والتعاسة.

كان لدى فولتير ابنة بالتبني «هي تجسيد للجمال والطيبة» تزوجت من الماركيز دوفيليت صاحب الفيلا الواقعة على شارع بون. كان شاعراً ونصيراً متحمساً للشيخ الأعظم. وقد أخذ القلب نفسه، وأمر بأن يحفر على الصندوق الذي يحوي القلب الأشعار التالية التي نظمها خصيصاً:

روحه تحوم في كل مكان

وقلبه يرقد آمناً هنا.

بعد ذلك قبع القلب طويلاً في ضريح خاص شيده له فيليت في صالون ملجأ فولتير الشهير، في ذلك القصر المعروف للعالم كله، والذي كان فيليت قد اشتراه. وهناك، أقام على شرف معبوده ما هو وسط بين المتحف والمعبد الوثني، ونصب نفسه كاهناً أكبر لعبادة فولتير. ولكن مضت السنون، وتلاشى حماس فيليت شيئاً فشيئاً، ثم أجر القصر لثري إنكليزي. وبالطبع أمر هذا بهدم المتحف، وإزالته من الصالون، وبإخراج الصندوق «الثمين» بالقلب الذي فيه «إلى مكان ما».

ومع ذلك كان القلب أسعد حظاً من الدماغ، وظل الصندوق الذي يحتويه محفوظاً. طبعاً استمر هو الآخر ولزمن طويل، ينتقل من يد إلى يد، ومن وارث إلى آخر، وكان خلال ذلك مادة غنية للمشاحنات والدعاوى القضائية، لكنه ظل سليماً. أخيراً قدم للدولة كهدية، فكانت هذه المرة أكثر تجاوباً وتساهلاً مما كانت عليه مع الدماغ.

إن قلب فولتير الآن يرقد آمناً مطمئناً، كما هو معروف، في المكتبة القائمة في شارع ريشليه، في أسفل القاعدة التي ينهض عليها نموذج من مرمر غودون الشهير.

أجل، ليس عبثاً يضحك فولتير بشكل مسموم، حتى الآن، وهو بالمناسبة يضحك على نفسه أيضاً.

١٩٢٧

برنار

أيامي على الأرض أمست قليلة.

وها أنا أتذكر ما كنت قد كتبته عن برنار، في جبال الألب الساحلية المجاورة للأنتيب.

- كنت نائماً بعمق عندما رشق برنار نافذتي بحفنة رمل...

هكذا تبدأ «على الماء» لموباسان. هكذا أوقظه برنار قبل خروج «بيلامي» من مرفأ الأنتيب في ٦ نيسان ١٨٨٨.

- فتحت النافذة فلفحت وجهي وصدري وروحي برودة الليل الآسرة. كانت زرقة السماء الشفافة تخفق ببريق النجوم الحي.

- الطقس حسن يا سيدي.

- والريح؟

- ساحلية يا سيدي؟

وبعد نصف ساعة أصبحا في البحر.

- كان الأفق شاحباً، بعيداً، وخلف خليج الملائكة كانت تتراءى أضواء نيس، تليها منارة فليفرانشا الدوارة.. ومن الجبال، غير المرئية بعد – كان ثمة إحساس بأن الثلج يغطيها – كانت تتناهى، أحياناً، أنفاس جافة وباردة..

ـــ ما إن خرجنا من المرفأ حتى ضج اليخت بالحركة والمرح، فضاعف من سرعته، راقصاً على المويجات الصغيرة... ثم طلع النهار فانطفأت النجوم.. وفي السماء البعيدة، فوق نيس، اشتعلت أضلاع الألب العليا الثلجية بنار وردية.

- سلمت الدفة إلى برنار كي استمتع بشروق الشمس. كانت الريح المتعاظمة تدفعنا عبر الأمواج المتدفقة. وكنت أسمع ناقوساً بعيداً - كان يقرع في مكان ما مغنياً Angelos...كم أحب هذه الساعة المبكرة، الخفيفة الطازجة، عندما يكون الناس نائمين، وعندما تبدأ الأرض في الاستيقاظ. إنك تتنفس فيها، وتشرب وترى حياة العالم الجسدية الوليدة، الحياة التي سيظل سرها عذابنا الأبدي العظيم.

- كان برنار نحيلاً، حاذقاً، شغفاً إلى حد غير طبيعي بالنظافة والترتيب، شديد الاهتمام والحرص. إنه إنسان طاهر القلب، مخلص، وبحار رائع...

هذا ما قاله موباسان عن برنار، أما برنار فقد قال عن نفسه ما يلي:

- أعتقد أنني كنت بحاراً جيداً(*).

لقد قال هذا وهو يموت، وكانت هذه كلماته الأخيرة على فراش الموت في الأنتيب، حيث انطلق على «بيلامي» في ٦ نيسان ١٨٨٨. روى إنسان شاهد برنار قبل موته بفترة وجيزة ما يلي:

- خلال سنوات طويلة قاسم برنار الأديب العظيم حياته التسكعية البحرية، ولم يفارقه حتى رحلته القاتلة إلى الدكتور بلانش في باريس.

- لقد مات برنار في أنتيبه، ولكنني كنت قد رأيته منذ زمن غير بعيد على شاطئ مشمس لأحد مرافئ الأنتيب الصغيرة، حيث كثيراً ماكان «بيلامي» يتوقف.

- كان طويلاً، يابساً، ذا وجه نشط لوّحه ملح البحر. ولم يكن من السهل جر برنار للاشتراك في الحديث. ولكن ما أن يمس الأمر موباسان حتى تلتمع عيناه الزرقاوان، وعندها لابد من الاستماع إليه وهو يحكي عنه!

(*) بالفرنسية في الأصل.

- لقد صمت الآن إلى الأبد، وكانت كلماته الأخيرة: «أعتقد أنني كنت بحاراً جيداً».

أتخيل بشكل حي كيف بالضبط لفظ هذه الكلمات. لقد قالها بإصرار وفخر، وهو يرسم بيد مسودة، يابسة من الشيخوخة، شارة الصليب:

ما الذي كان يريد التعبير عنه بهذه الكلمات؟ الفرح بإدراكه أنه، خلال حياته على الأرض، قد جلب المنفعة للآخرين بكونه بحاراً جيداً؟ كلا، وإنما أن الرب قد منح كلاً منا، مع الحياة، هذه الموهبة أو تلك، وفرض علينا واجباً مقدساً ألا ندفنها في التراب. لماذا ولأجل ماذا؟ لا ندري، ولكن علينا أن نعرف أن كل شيء في هذا العالم العصي علينا لابد أن يحمل معنى ما، قصداً إلهياً أعلى، موجهاً بحيث يكون كل ما في العالم «حسناً». وأن التنفيذ المجتهد لهذه الإرادة الإلهية هو، دائماً، مأثرتنا أمام الرب، وهي لهذا مصدر فرحنا واعتزازنا. وبرنار كان يعرف هذا ويحسه. ولقد كان طوال حياته يقوم بهذا الواجب المتواضع، المكلف به من قبل الرب، بإخلاص واجتهاد وجدارة. لقد خدم الرب ليس خوفاً منه، وإنما إرضاء لضميره الخاص. كيف إذن لا يقول ما قاله في لحظاته الأخيرة: «الآن،

وأنـت تطلـق سراح عبـدك يـا إلهـي، أجـرؤ عـلى القـول لـك وللناس: أعتقد أنني كنت بحاراً جيداً».

كتب موباسان:

- كل ما في البحر كان يثير اهتمام برنـار: التيـار الـذي يـأتي فجأة، منبئاً أنـه، في مكـان مـا في البحـر، قـد هبـت العاصـفة، والغيوم فوق أستيريل التي تعني بدء الرياح الشمالية البـاردة في الغرب... كان يراعي النظافة على اليخـت لدرجـة أنـه لم يكـن يحتمـل رؤيـة قطـرة مـاء واحـدة عـلى جـزء مـا مـن الأجـزاء النحاسية...

أي منفعة يجلبها برنار للآخرين بمسحه لهذه القطـرة؟ ومـع ذلك كان يمسحها. لماذا ومن أجل مـاذا؟ ولكـن الـرب نفـسه يحب أن يكون كل شيء «حسناً». وقد فرح هو نفسه عندما رأى أن ما خلقه كان «حسناً للغاية».

أعتقد أنني، كفنان، أستحق أن أقول عـن نفـسي، في أيـامي الأخيرة، شيئاً ما مشابهاً لما قاله برنار وهو يموت.

١٩٥٢

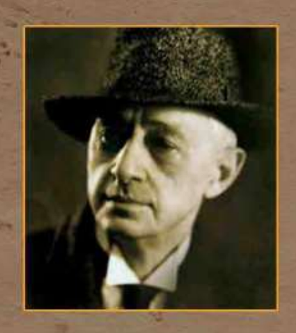
الفهرس

الصفحة

منمنمات

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



إيفان بونين:

- واحد من أعلام الأدب الروسي الكلاسيكي.
- ولد عام 1870 في فارونج، وترعرع في أحضان الطبيعة الروسية الساحرة.
- عام 1918، بعد قيام الثورة البلشفية، رحل وزوجته من موسكو إلى الجنوب، وقضى في أوديسا عاماً ونصف، وفي عام 1920 غادر وطنه إلى فرنسا، وعاش فيها بقية حياته، ولكنه ظل، إلى آخر لحظة من عمره، يحن إلى روسيا، ويحترق بذكرياته عنها.
- جدير بالذكر أن بونين نال جائزة نوبل عام 1933، وأنه توفي في فرنسا عام 1953.
- أهم أعماله الأخرى: رواية «حياة أرسينيف»، والقصة الطويلة «القرية».







www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٢٠٠ ل.س أو ما يعادلها